قاعدة فقهية في بناء

العلاقة الزوجية

أ. د. محمد بن عبد العزيز المبارك

الأستاذ بكلية الشريعة بالرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود

تقريظ / د. سلمان بن فهد العودة

ح محمد عبدالعزيز عبدالله المبارك، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المبارك، محمد عبدالعزيز عبدالله

٥٠ قاعـدة فقهية في بناء العلاقة الزوجية/ محمد عبدالعزيز عبدالله

المبارك.- الرياض، ١٤٣٤هـ

٣١٢ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٩-١٣٥٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- العلاقات الزوجية ٢- الرجل والمرأة أ.العنوان

ديوي٤٢٧, ٣٠١ ١٤٣٤/٤٣١

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٤٣١

ردمك: ٩-١٣٥٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعـة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سلمان بن فهد العودة
Salman AL-Odah

الرقم
التاريخ
المشفوعات

التاريخ : ٢٥ / ١٠ / ١٤٣٣ هـ

الموافق : ١٢ / ٠٩ / ١٤٣٣ هـ

فضيلة الأخ الأستاذ د. محمد بن عبد العزيز المبارك بارك الله فيه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،، وبعد :

قد قرأت كتابكم الموسوم بـ (٥٠ قاعدة فقهية في بناء العلاقة الزوجية) فألفيته مصنفاً لطيفاً بديعاً جمع نخبة من القواعد الفقهية المهمة ثم خرج بها عن نطاقها الأكاديمي ووظفها توظيفا جديداً في ميدان حيوي اجتماعي وهو ميدان العلاقة الزوجية دون تكلف ولا تعسف، ثم أضاف إليها من بديع الحكم والقصص ونتائج الدراسات وثمرات عقول حكماء الشرق والغرب والماضي والحاضر ما يجعل الكتاب صالحاً كمادة يدرسها المقبلون على الزواج والمتزوجون لتساعدهم على حل مشكلاتهم وضبط إيقاع حياتهم المشتركة على أفضل أسلوب ..

لقد أعجبني الكتاب وفكرته ومضمونه، وإن كنت لا أقرض الكتب عادة لأنني أعتقد أن الكتاب الجيد يقرض نفسه، وفي اعتقادي أن هذا الكتاب يتبوأ فعلاً منزلة متقدمة بصياغته ومحتواه، جزى الله كاتبه كل خير.

أسأل الله أن يكلل جهدكم بالتوفيق والنجاح ويمدكم بالهمة العالية والعزمة والتأييد إنه جواد كريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

أخوكم ومحبكم

د. سلمان بن فهد العودة.

المملكة العربية السعودية بريدة هاتف : ٣٨٢٦٤٦٦ ٦ ٩٦٦+ فاكس : ٣٨٣٠٠٥٣ ٦ ٩٦٦+ ص.ب ٢٥٢٥٠ الرمز البريدي ٥١٣٢١
جوال : ٠٥٠٤٢٥٠٢٥٠ البريد الإلكتروني : salman@islamtoday.net

المقدّمة

إن الحمد للّه، نحمده، ونستعينـه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومـن سيئـات أعمالنا، من يهد اللّه فـلا مضل لـه، ومن يضلل فـلا هادي لـه، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك لـه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

والصـلاة والسلام على رسول اللّه، الـذي بعثه اللّه بالحق بشيراً ونذيراً، وهاديـاً إلى اللّه بإذنـه وسراجاً منـيراً، فبلغ الرسالـة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما بعد:

فإن موضوع العنايـة بالعلاقة الزوجية والاهتمـام بصحتها واستمرارها مـن الموضوعات التـي حظيت باهتمـام المتخصصين والرأي العـام في الآونة الأخـيرة، وأصبحـت تشـكل هاجسـاً كبيراً وفرضـت نفسها بقـوة على حياة الإنسان في كافة وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

وشريعـة الإسلام تنظـر إلى إقامة الأسـرة باعتبارها آية مـن آيات اللّه تعـالى في خلقه، كما قال اللّه تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الـروم: ٢٤)، حيث يجـد الإنسان في ظلالها الوارفـة سكناً لنفسه، وراحة لبدنه وفـؤاده، واستقراراً لحياته ومعاشه، وأنساً لروحـه وضمـيره، وفيضـاً مـن المشاركـة الصادقـة، واطمئناناً ينعـم به كلا الجنسين على حد سواء.

إن الأسـرة كانـت ولا زالـت النـواة الرئيسـة لتكوين أي مجتمـع وقاعدة

الحياة الإنسانية، إلا أنها أضحت في العصر الحاضر تئن تحت وطأة كثير من المشكلات والعقبات، حيث هبت عليها رياح التغيير من كل مكان، وعبر وسائل إعلام ضالة أو مضللة، تستنبت مبادئها الفاسدة تارة في أرضنا، وتأخذ أشكالاً متعددة ومتنوعة، وتُستجلب تارة بعد تزيينها من ثقافات بعيدة عن قيمنا، وكل ذلك يمتد ويزداد اتساعاً وتأثيراً بحسب ما تتركه الأمة من فراغ وجنوح عن قيم الإسلام، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ومن هنا كان لا بد من التوجه نحو الأسرة المسلمة، من أجل إعادة بنائها ولملمة شتاتها وحمايتها من عوامل التفكك والانهيار، وفق قواعد الشريعة الإسلامية وقيمها، حتى نجتاز مرحلة التذبذب والحيرة بين قيمنا الأصيلة والقيم الوافدة بما تمثله من مفاهيم ورؤى غريبة عن ثقافتنا، تنأى بنا عن هويتنا وأصالتنا.

وفي هذا الصدد نلمس ما في كتب الفقه الإسلامي وقواعده من مواد ثرية وغنية تساعد على حل كثير من المشكلات الأسرية، وتعمل على تجاوز العقبات التي تقف في طريق استقامتها واستمرارها، ومن خلالها يمكن أن نستلهم مقومات النجاح لتكون مادة خصبة تعين الأزواج والقائمين على الشؤون الأسرية والمهتمين بها، وليتمكنوا من خلال السير في ضوئها من معالجة كثير من المشكلات المعاصرة التي تواجههم نتيجة تسارع العصر وكثرة مستجداته.

وفي الحقيقة من خلال التخصص الدقيق في القواعد الفقهية وجراء المشاركة في بعض البرامج الهادفة المساهِمة في حلّ المشكلات الأسرية رأيت إمكانية استثمار القواعد الفقهية بنجاح في مجال العلاقات الزوجية ومواجهة

الأخطـار المحدقـة بها، خصوصاً مـع ملاحظـة أن القضايا الأسريـة تعدّ من القضايـا المتشعبـة الجوانب والمتعـددة الأطراف، فكانت بحاجـة إلى طرح ما يناسبها من التقعيد الفقهي، وإبراز جانب التشريع الإسلامي في التعامل معها.

ومن جهة أخرى فإن قواعد الفقه وأسسه تعدّ منهج حياة متكامل وشامل، حيـث تتناول كل جوانب الحيـاة، وتنظّم العلاقات الإنسانيـة كافة، وتضع لها الأحـكام والتشريعات المناسبة على مقتضى الحق والعدل، وتستجيب استجابة سريعة وفاعلة لجميع متطلبات الحياة الإنسانية، وتتسع بحكمة ومرونة لتشمل كل التطورات والمتغيرات، لذلك كان من الثوابت والمسلمات يقيناً إمكانية تقديم رؤيـة إسلامية خاصـة وفذة لقواعد شرعية تعين الإنسـان في حياته الزوجية، وتكفل إقامة أسرة سليمة تنعم بكافة مقومات الراحة والطمأنينة.

ولأجل ما سبق رأيت الحاجة قائمة إلى تتبع أكبر قدر ممكن من القواعد الفقهية من مصادرها المختلفة، فجمعت في ذلك خمسين قاعدة فقهية تساهم في بناء العلاقة الزوجية بشتى صورها ومجالاتها، ومن ثم قمت بترتيبها وبيان المقصـود منها ومعناها بإيجاز، وربطها بتطبيقات من العلاقات الزوجية على وجه يؤصل منهجاً، أو يبني مرتكزاً، أو يواجه خطراً ويعالج خطأ.

وأخيراً أود أن أنبه إلى أمور أرجو ألا تغيب عن ذهن كل قارئ كريم :

- أن هـذا الكتاب جهد بشـري، قابل لوجود أخطاء غـير مقصودة، وحسب صاحبـه أنـه اجتهد وبـذل فيه غاية وسعـه وطاقته، فما أصـاب فيه فمن الله تعـالى وحـده، وما أخطأ فيه فمن نفسه والشيطـان، وكم أحسن ذلك الحكيم حينما قال: إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ في يومه إلا قال في غده: لو

غيرتُ هذا لكان أحسن، ولو زدتُ كذا لكان يُستحسن، ولو قدمتُ هذا لكان أفضل، ولو تركتُ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر!، وقال الدكتور ميلر أستاذ الرياضيات والمنطق الشهير: لا يوجد مؤلِّف في هذا العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً، ثم يقول: هذا الكتاب خالٍ من الأخطاء.

- أن المقصود من الكتاب مخاطبة الروح والعقل، فتارة وعظ وتذكير للقلوب المؤمنة، وتارة إقناع وتدليل للعقول النيرة، ولذلك جمعت فيه كل ما رأيته نافعاً، ابتداء بما في الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة، وأقوال الصحابة الأجلاء، والتابعين الفضلاء، وانتهاء بأشعار العرب، وأمثال الشعوب، وتجارب الأمم، وقصص الأولين والآخرين، وما حكي عن الحكماء والأطباء، وما توصلت إليه الدراسات الحديثة والتجارب الماثلة، ولا شك أن الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها فهو أحقّ بها.
- كتبت الكتاب بأسلوب راعيت فيه قدر الإمكان سهولة فهمه من قبل شرائح متعددة من الناس هم غالب المجتمع، فهو ليس كتابا في الأدب والبلاغة، كما أنه ليس موجهاً لفطاحلة أهل العلم والجهابذة، فليغفروا ما وجدوا فيه من زلل أو ركاكة.
- لم أستحسن وضع الحواشي للكتاب ولا أرقام الأجزاء والصفحات فيما أنقله، وإنما اكتفيت بالإشارة إلى النقل في صلب الكتاب، ووضعت ثبتاً بأهم المراجع في آخره، كل ذلك طلباً للتخفيف على القراء الكرام، واقتداء بكثير ممن عمل على تأليف كتب ذات صبغة عامة موجهة لجمهور متفاوت الثقافة والمشرب.

- لم أخرج الأحاديث المذكورة في الكتاب، أيضاً بقصد التخفيف على القراء، ولكن أودّ التنبيه إلى أني لم أورد حديثاً ضعيفاً ولا موضوعا بحمد الله، بل كل ما فيه من الأحاديث ما بين ثابتة في الصحيحين أو أحدهما، أو واردة في السنن والمسانيد ومصححة عند بعض الأئمة المعتبرين.
- رتبت القواعد الفقهية في الكتاب على حسب الحروف الأبجدية، لا باعتبار أهميتها، ولا باعتبار ما يترتب عليها، ثم إني عمدت إلى تخصيص الكلام في أول صفحة من كل قاعدة في شرحها شرحاً مختصراً موجزاً، وكيفية استثمارها في بناء العلاقة الزوجية، ثم كتبت بعض العناصر التي رأيت إمكانية اندراجها ضمن القاعدة، إما على سبيل المطابقة أو التضمن أو الالتزام، وأختم كل قاعدة بإضاءة أحببت أن تلخص ما ورد فيها، أو تميط اللثام عن شيء منه.
- وجهت الكلام في الكتاب إلى كل من الرجل والمرأة على حد سواء، فلم أحمّل الرجل كافة مسؤوليات بناء الأسرة، ولم أشقّ على المرأة في تحميلها كافة مهام رعايتها، إلا أنه قد تتساءل كثير من النساء أو يعترضن - وحقّ لهن- لماذا نجد توجيه الخطاب إلى المرأة في كثير من الأحيان ؟ ولمَ تحملّها فوق طاقتها ؟، ولمَ تجعلها مسؤولة وملامة في كثير من الحالات!؟، ألا يكفي تربية الأولاد والقيام بشؤون المنزل...هل كتب علينا أن نكون شموعاً تحترق من أجل غيرها فقط، ووروداً تمنح الآخرين عبقها إلى أن يحين وقت ذبولها!!، وأين دور الرجل الكبير الحصيف العاقل ومسؤولياته وتضحياته في هذا الباب !!، ولمَ لا ينزل هو من كبريائه؟ ليشارك الأنثى شيئاً من تعبها وعنائها !!.

وحينها أقول لكل حواء: مهلاً مهلاً أيتها الفاضلة...ما هكذا الأمر كما يخال لكِ :

أوردهـــا سعـد وسعـد مشتمـل

مـا هـكـذا يـا سعـد تـورد الإبـل

إننا حينما نوجه الخطاب للمرأة، ونحملها شيئاً من المهام والمسؤوليات، فإننا في الواقع نعلي من قيمتها وقدرها، ونمحنها الإحساس والشعور بالمسؤولية، الذي بلا شك يعمل على توليد شخصية فاعلة...ألا تحبين أن تكوني مع الرجل كالخيل وسائسه !!، فهل ترويض الخيل مسؤولية الخيل أو السائس؟، وحينما نقول لك روّضي خيلكِ فقد جعلناك في مقام السائس الحكيم...فقط إننا نطلب منك أن تكوني لزوجكِ شيئاً، وثقي سوف يكون حينها لك كل شيء!!، فهل تبخلي بهذا على نفسك ومن تحبين ! ؟.

ولا ننس المقولة المعهودة التي تقول: الرجل يحتاج عشر سنوات لترويض المرأة، في حين تستطيع المرأة أن تروّض الرجل بابتسامة واحدة...لكنها الابتسامة الصادقة المحتوية النابعة من القلب...كما قال الفيلسوف فولتير: الابتسامة تذيب الجليد، وتنشر الارتياح، وتبلسم الجراح، إنها مفتاح العلاقات الإنسانية الصافية !!.

وأخيراً، فأحمد الله تعالى وأثني عليه بما هو أهله على ما منَّ به عليَّ من إتمام هذا الكتاب، وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد في القول والعمل، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين.

تمهيد
في علم القواعد الفقهية

لقد بذل علماء الشريعة وجهابذتها جهوداً جبارة من أجل تيسير علوم الفقه وتفتيق كنوزها، وكان مما عنوا به: العمل على تقعيد القواعد، حيث أولى الفقهاء على اختلاف مذاهبهم الفقهية عناية كبيرة بهذا العلم، وعنوا بتحرير القواعد وتقريرها، وبيان ما يندرج تحتها من صور ووقائع، ولا شك أن الضبط والتقعيد في ذاته يغني عن كثير من التفصيلات التي يصعب حصرها، كما أنه يفيد من جهة أخرى إمكانية إلحاق الصور الحادثة بقواعدها وضوابطها، متى ما تحررت وتقررت واتضحت شروطها ومجالات عملها.

تعريف القواعد الفقهية:

مصطلح (القواعد الفقهية) عبارة عن مركّب توصيفي، فلا يفهم إلا بعد معرفة مفرداته، والمركب التوصيفي مفرداته :موصوف وصفته، فالموصوف هنا هو القواعد، والصفة هي: الفقهية، فلا بد من أجل الوقوف على تعريف هذا العلم، من تعريفه أولاً باعتباره مركباً، ومن ثم الوقوف على تعريفه باعتباره لقباً أو عَلَماً على علم معين.

- فالقواعد لغة: جمع قاعدة، والمادة اللغوية لكلمة (قعد) تدور حول معنى الثبات والاستقرار، ومن معانيها اللغوية: الأساس، ومنه قول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ (البقرة:١٢٧)، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ (التوبة:٢٦)، والمقصود: الأسس التي يرفع عليها البنيان، فكلّ ما يُبنى عليه غيره يسمى قاعدة.

- وأما القاعدة في الاصطلاح، فإن عبارات أهل العلم حول تعريفها متقاربة، وتطلق على معانٍ ترادف الأصل والقانون والضابط، ويمكن أن تؤول إلى أنها: قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها.
- والمقصود بالفقهية بيان أن هذه القواعد منسوبة إلى الفقه، والفقه في اللغة: الفهم، وفي الاصطلاح: معرفة الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

وأما تعريف القاعدة الفقهية بوصفها اللقبي، فإن لها تعريفات متعددة عند السابقين من أهل العلم والمعاصرين، وقد استعرضها كثير من الباحثين، وذكروا ما يرد عليها من اعتراضات وردود، والذي يمكن أن يخلص له أنها: قضيّة كليّة شرعية يتعرّف منها أحكام جزئياتها مباشرة.

أنواع القواعد الفقهية وأقسامها:

اختلفت طرق أهل العلم في تقسيم القواعد الفقهية، تبعاً لاختلاف موضوعاتها المتعلقة بها من جهة، وبحسب الحيثيات التي اعتبرت في التقسيم من جهة أخرى، ولعلنا نقف على أبرز ذلك.

- فهناك من يقسمها باعتبار علاقتها بمصادر التشريع قسمين: قواعد هي في ذاتها نصوص لأحاديث نبوية كريمة من قبيل جوامع الكلم، ثم أجراها الفقهاء مجرى القواعد الفقهية؛ لأنها تتضمن جانباً من الأحكام، وتشمل كثيراً من الفروع الفقهية، ومن أمثلة ذلك: الخراج بالضمان، لا ضرر ولا ضرار، والقسم الثاني: القواعد المأخوذة من دلالات النصوص التشريعية العامة المعللة، كما في قولهم: اليقين لا يزول بالشك، والمشقة تجلب التيسير.

- وهناك من يقسمها باعتبار الشمول والاتساع ثلاثة أقسام، القسم الأول: قواعد كلية كبرى، بوصفها أمهات القواعد الفقهية، والتي تدخل في جميع أبواب الفقه، وهي: (الأمور بمقاصدها، والضرر يزال، والمشقة تجلب التيسير، واليقين لا يزول بالشك، والعادة محكمة)، والقسم الثاني: قواعد صغرى يجعلونها على ضربين: قواعد داخلة في أبواب فقهية كثيرة دون أن تختص بباب فقهي معين، وهي أقل شمولاً واتساعاً من القواعد الكبرى، منها ما يتفرع من القواعد الكبرى، مثل قاعدة: لا عبرة بالظن البين خطؤه، المتفرعة عن القاعدة الكبرى :اليقين لا يزول بالشك، ومنها ما هو مستقل عن القواعد الكبرى، مثل قاعدة: التابع تابع، والضرب الثاني: قواعد متفرعة عن القواعد الكبرى إلا أنها مختصة بباب معين من أبواب الفقه، كقاعدة: العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني، المتفرعة عن قاعدة: الأمور بمقاصدها، والقسم الثالث: قواعد خاصة، وهي القواعد المختصة بأبواب فقهية معينة أو بمذهب دون آخر، مثل قاعدة: كل ميتة نجسة إلا السمك والجراد، وقاعدة: كل مكروه في الصلاة يسقط فضيلتها.
- ومنهم من يقسمها إلى: قواعد شرعية عامة متعلقة بجميع الجوانب الشرعية المتنوعة أو بمعظمها، وذلك مثل: أمهات القواعد الفقهية الخمس، وإلى قواعد شرعية خاصة يغلب عليها التعلق بجانب خاص من الجوانب الشرعية، كما في قولهم: الأصل في المياه الطهارة.
- ومنهم من يقسمها باعتبار الاتفاق عليها وعدمه قسمين: قواعد متفق

عليهـا بين جميع المذاهب في الجملـة، ومنها القواعد الخمس الكبرى التي سبقت، والغالب في هذا القسم أن يُصاغ بأسلوبٍ خبريّ لا إنشائي، والقسم الثـاني: قواعد مختلف فيها في الجملة، وهـذه يتفاوت الخلاف فيها، فقد يقلّ فتكون حينئذٍ أقرب إلى القواعد المتفق عليها، وقد يكثر المخالف فيها، وغالباً ما تصاغ بأسلوب إنشائيّ، فترد بصيغة الاستفهام؛ إشارةً إلى وقوع الخلاف فيها في المذهب، كقاعدة الغالب هل هو كالمحقق أم لا ؟.

خصائص القواعد الفقهية وأهميتها:

مـن خـلال النظر في ثنايـا كلام العلمـاء عن القواعـد الفقهية يمكن الوقوف على جملة الخصائص التي تكشف أهميتها وتبين فائدة دراستها، كما يمكـن استنباط بعض هـذه الخصائص من خلال التفكر فيهـا وفي طبيعتها، ولعل من أبرز ذلك:

- إفادتهـا ضبط الفروع والجزئيات الفقهية المتعـددة والمتناثرة تحت أصلٍ واحد، وهذه خصيصة تكشفها طبيعة القواعد وماهيتها، حيث إنها قضايا وأحـكام كلية تتناول فروعاً كثيرة متنوعة، ثم إن هذا الضبط يفيد إدراك الروابـط والصفات الجامعة بين الفروع والجزئيـات المتناثرة في الأبواب المشتركة، ومن ثم القدرة على إدراك أحكام الفروع بأيسر الطرق، وهذا ما يكشفه الإمام القرافي رحمه اللّه بقوله: من جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئيـة، دون القواعد الكلية، تناقضـت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهى، وانتهى العمر ولم تقضِ نفسه من طلب مناها...

ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات، لاندراجها في الكليات.

- إدراك مقاصد الشريعة وكشفها عن المدارك الشرعية والحِكَم التشريعية التي دعت إلى أحكام تلك الفروع الداخلة تحت مضمون القاعدة الفقهية، وفي هذا الصدد يقول الإمام السيوطي رحمه الله عن هذا العلم: به يُطّلَع على حقائق الفقه ومداركه، ومآخذه وأسراره، ويتمهر في فهمه واستحضاره، ويقتدر على الإلحاق والتخريج لمعرفة أحكام المسائل التي ليست بمسطورة، والحوادث والوقائع التي لا تنقضي على مرّ الزمان.

- صلاحيتها في الجملة للاستدلال أو الاستئناس بها، وإن كان هناك من يخالف في هذا الأمر، إلا أن النزاع فيه لا يصح بإطلاق، نظرا إلى اختلاف القواعد الفقهية من حيث أصولها من جهة، ومن حيث وجود الدليل على حكم المسألة المبحوث عنها، أو عدم وجوده من جهة أخرى؛ ذلك أن من القواعد الفقهية ما أصله من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ومنها ما هو مبني على أدلة واضحة من الكتاب والسنة، فهذا النوع يصلح دليلاً شرعياً نظراً إلى أصله أو دليله، كما أن منها ما هو في حقيقته تعليل ومأخذ لأحكام شرعية مختلفة، أو جمع وتأصيل لها، فكانت صالحة للاستدلال والاستئناس.

- إمكانية اطلاع غير المتخصصين في علوم الشريعة عليها وفهمها وإدراكها، إذ هي حِكَم مناسبة تتلقاها العقول والفطر السليمة بالقبول، ومن خلالها يمكنهم الوقوف على مدى شمول الشريعة الإسلامية، والدلالة على

صلاحية أحكامها للتطبيق والممارسة في أي زمان ومكان.

- أن هذه القواعد الفقهية في نحتها الرائع وبنائها القويم وصياغتها المحكمة عمل جليل وضخم من قبل فقهاء الأمة الإسلامية، تعمل على تنوير الفكر وتقويم السلوك وترشيد الاتجاه.

القاعدة الأولى

اتحاد الموجب والقابل ممنوع

هذه قاعدة فقهية لطيفـة، يقصد بها الفقهاء تقرير أن الأصل في العقود أن تكـون بين طرفـين، أحدهما موجب للعقـد، والآخر قابل له، أمـا أن ينفرد شخص به بحيث يكون موجباً قابلاً في ذات الوقت، فيعدّ ذلك خروجاً عن الأحكام الشرعية المستقرة.

وإذا ثبت هـذا، يمكـن أن تستثمـر هذه القاعـدة في باب الحـوار، الذي يتضمـن إيجاباً وقبولاً من طرفين، وهكذا هو الشأن في حوار الزوجين، فلا بد أن يأخـذ كل واحد منهمـا نصيبه من الحوار، دون أن يستأثر أحدهما بالكلام وإبـداء وجهة النظر، والبنـاء على ذلك وتقريـر النتائج والوصـول إليها!؛ إذ اتحـاد الموجب والقابل في الحوار ممنوع، حيـث لا يؤدي الهدف المقصود منه، بل لا بد من إعطاء الفرصة للطرف الآخر ليدلي بدلوه، وإلا كان الحوار مجرد تلقـين من جهة واحدة، ولا شك أن المتحدث البارع مستمع بارع أيضاً، كما قال بعض المفكرين عن الحوار: إن شأنه شأن رياضة التنس، فلا تكتمل شروطه ولا يتمّ الاستمتاع به إلا بوجود لاعب آخر يرد الكرة!.

الحوار عدل:

يعـوّل الكثير من الأخصائيـين في العلاقات الزوجية على الحوار البنّاء المثمر، الذي يتيح الفرصة لكلا الزوجين في إبداء رأيه ووجهة نظره بكل رحابة صدر، فهـو قادر بفعاليته على حسم الكثير من الاختلافات في وجهات النظر، وتغذية نبتة الحب بينهما، وارتوائها بالتواصل والمشاركة الوجدانية، وهو مفتاح التفاهـم والانسجـام وأداة التعبير عن الخـبرة الحياتية وجوهـر الشخصية وتوضيح الملابسات السلوكية للطرف الآخر كي يتفهمها ويتقبلها، ومتى ما خلا عش الزوجية منه أضحى الخلاف والشقاق ضيفاً ثقيل الظلّ فيه.

العربة الفارغة أكثر ضجيجا:

ينـزع بعضـ الأزواج أثناء الحوار وعند عدم الثقـة بموقفه وضعف حجته إلى رفـع الصوت وإحداث الجلبـة والعمل على تدني لغة الحـوار، ظناً منه أن ذلـك سيسعفه، وما علم المسكين أن العربة الفارغة أكـثر ضجيجاً وجلَبَة من العربـةالممتلئـة،كمـاقـالالمفكـربرنـاردشـو.

وقـد قيل: لو كانـت الغلبة في المجادلـة بالصياح، لكان أهـل الجهل أولى بالغلبة فيها من غيرهم.

كما قيل: قبيح الكلام سلاح اللئام.

وقيل: ما تسابّ اثنان إلا غلب ألأمهما.

وقال شاعر:

وإنـــك قـــد ســابـتـنـي فـغـلـبـتـنـي

هـنـيـئـاً مـريـئـاً أنــت بـالـسـب أحــذق

وفي مأثـور قصصـ الحكمة عبرة، حيث تبدو الحكمة مـرآة تعكس صوراً

من معاني الحياة، كما تعكس من جهة عمق نظرة قائلها، ومن جهة أخرى مدى استعداد مستقبلها لفهم مغزاها، فجاء عند ابن المقفع أن دمنة قال: زعموا أن ثعلباً جائعاً أتى أجمة فيها طبل معلق على شجرة، وكلما هبت الريح على أغصان تلك الشجرة حرّكتها، فضربت الطبل، فسُمع له صوتٌ عظيم باهر، فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته؛ فلما أتاه وجده ضخماً، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم، فعالجه حتى شقه، فلما رآه أجوف، لا شيء فيه !، قال: لا أدري لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتاً وأعظمها جثة !.

ولو تأملنا في أنفسنا لوجدنا كم يملأ العقل تجويف الرأس، في الوقت الذي لا نجد للعقول المفكرة ضجيجاً، بينما يملأ الهواء تجويف الطبل، وما أعظم ضجيج الهواء !!.

✍ التهديد: قول من لا فعل له !

قد يعمد بعض الأزواج إلى استخدام لغة التهديد والتخويف أثناء الحوار، أو الاندفاع مباشرة نحو الاتهامات المسبقة، فيخرج الكلام منه كالقذيفة ويلقي كل ما يعتلج في صدره ويدور في خاطره دفعة واحدة، وهذا ما يعمل على إشعال فتيل النزاع بينهما، فيزيد الطين بلة!.

جاء عن علي رضي الله عنه: إن الرفق يقلّ حد المخالفة.

ومما أُثر عن الرئيس الأمريكي الثامن والعشرين ودرو ولسون قوله: إذا جئتني وقبضتك منكمشة، أعدك أن قبضتي ستكون أشدّ من قبضتك، وإذا جئت إليّ وقلت: دعنا نتبادل الرأي ونتحاور، حينها سأتقبلك، وحتى إذا اختلفنا، فلن نلبث أن نجد أننا نتفق في الكثير.

وليكن في خلد الزوج اللائم المنتقد: أنه متى كانت القلوب مليئة بالضغينة والكراهية، فلن تتمكن من إقناع الطرف الأخر، ولو ملكت كل ما في الكون من

حقائـق، وصدق ربنا جل وعـلا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فيروسات الحوار:

متـى ما أردت وسيلـة سريعة لتدمير الحوار بين الزوجـين، فلا تزعج نفسك بكثرة التفكير!!، إن الأمر جد يسير!، ما عليك سوى اتباع إحدى الوسائل الآتية:

- تظاهر بمعرفتك بما سيقوله الطرف الآخر أو ما يفكر فيه قبل إجابته عليك.
- تمحـور حـول ذاتك، وعانـد مـا استطعت إلى ذلـك سبيلاً، كمـا لا تنس استحضار خلافات سابقة معلقة لم تحلّ.
- اعمل على غياب منطق الودّ ولغة التقارب بينكما.
- تجنب لغة الجسـد الإيجابية، واجعل من حركاتك وقسمات وجهك ساعي بريـد حاذق يوصـل رسائل التخويـف ويكرس الهواجـس، ويحث الطرف الآخر على الحذر من مدّ أي جسور للتلاقي والتواصل.
- احذر من تقديم أي تنازلات، وابذل كل جهد ممكن لتعزيز فوقيتك ودونية الطرف الآخر.

وقد حذر الإمام الغزالي رحمه الله من أمثال هذه الفيروسات، فقال: اعلم وتحقّـق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدّق...وقصد المباهـاة والمماراة...هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدوّ الله إبليس.

إضاءة:

متى مـا توليت دفتـي الحـوار وقمت بالإيجـاب والقبـول فيه...فعفـواً...لا تخدعك نفسك بأنك حينئذ تحاور!...بل أنت في الحقيقة تفرض رأيك فحسب!!.

القاعدة الثانية

الاختيار لا يتحقق في موضع الاضطرار

هـذه قاعدة فقهية في غايـة المنطقية، حيث تفيد أنه في بعض الحالات قد تنعـدم أو تقلّ فرص حرية الموازنة بين الخيارات المتاحة أمام الإنسان، فحرية التصرف لا تتحقق في موضع يُجبر فيه على فعل ما لا بدّ منه.

وعليـه فقـد يقـع أحد الزوجـين في موطن اضطـرار، فتوصد في وجهه كافـة أبواب الاختيار، وحينئذ لا مناص من مراعاة إمكاناته وقدراته وخياراته المتاحة.

موجة غضب:

لا يخلو أي منزل من مشكلات وخلافات، وليس هناك إنسان لا يغضب ولا يثور، لكن الطرف الذكي من يعرف كيف يتصرف ليمتصّ موجة الغضب بحنكة ودراية وهدوء، فغضب أحد الزوجين ليس دليلاً على نهاية المودة والحب بينهما، ولله درّ الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه حينما قال لزوجه: إذا غضبت فاسترضيني، وإذا غضبت أسترضيك، وإلا لم نجتمع !.

وفي عصر يتسم بالإثارة والسرعة والضغوط النفسية والاقتصادية والاجتماعية أضحى من اليسير أن يستثير الإنسان أبسط الأشياء...وأحياناً يفقد السيطرة على نفسه، ويخرج عن طوره، ويصبح من العسير عليه التحكم في انفعالاته مهما كانت ضئيلة، والاختيار لا يتحقق في موضع الاضطرار، ولذا ذهب بعض المحققين من أهل العلم إلى عدم وقوع الطلاق من الغضبان إذا غلب الغضب على عقله، فأصبح حينئذ في حكم المجنون، لا يعي ما يقول !!.

وإذا نظرنا في بيت النبوة لمسنا مثلاً رائعاً في مراعاة الزوج لغضب طارئ من قبل زوجه، لم يتح لها مجال التأني والتفكير، فقد كان النبي ﷺ يوماً عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصفحة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «**غارت أمكم**»، ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت

التي كسرت، فهنا نلحظ كيف تغاضى النبي الكريم عن الغضب الطارئ من قبل زوجه بكل رفق وأريحية.

وقد قال رجل لامرأته في لحظة غضب: أمرك بيدك، فقالت بحكمة وروية: قد كان عشرين سنة بيدك، فأحسنتَ حفظه، فلن أضيعه إذ صار بيدي ساعة واحدة، وقد صرفته إليك، فأعجبه ذلك منها، وأمسكها.

وقيل في الحكمة: ستتعلم الكثير من دروس الحياه إذا لاحظت أن رجال الإطفاء لا يكافحون النار بالنار!.

وفي قصص العرب أن رجلاً دفعه الغضب أن يطلق نساءه الأربع ويزيد عليهن خامسة !!، حيث دخل على نسائه يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات، وكان سيء الخلق غضوباً، فقال:إلى متى هذا التنازع ؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قبلك، يقول ذلك لامرأة منهن، اذهبي فأنت طالق، فقالت له صاحبتها (ولم تراع غضبه!): عجلت عليها الطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً، فقال لها: وأنت أيضاً طالق، فقالت الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، وعليك مفضلتين، فقال: وأنت أيتها المعدّدة أياديهما طالق أيضاً، فقالت له الرابعة: ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق، فقال لها:وأنت طالق أيضاً، وكان ذلك بمسمع جارة له، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه، فقالت:والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة، قال: وأنت أيضاً أيتها المؤنبة المتكلفة طالق، إن أجاز زوجك، فأجابه الجار من داخل بيته: قد أجزت، قد أجزت !!.

التعدد والضرورة:

يظلّ لكل قرار بالتعدد ظروفه التي تحدد مساره، فقد يتزوج الرجل بأخرى تطلعاً منه في الإنجاب، أو تعويضاً لأشياء يفتقدها لدى زوجته الأولى نتيجة حرمان عاطفي، أو غياب التوافق والانسجام، أو فقد الزوجة لجاذبية التواصل الطبيعي وزهدها وانصرافها عن هذه العلاقة، وهنا يضطر الزوج الى البحث عن بديل مناسب.

ولا شك أن نسبة قليلة من الزوجات من تتقبل وتتفهم وتستسلم، أما الغالبية العظمى منهن فيتخذن موقفاً مبدئياً شديد الرفض متباين الحدة سواء تجاه الزوج أو الزوجة الجديدة، أو كلاهما معاً، ونحن لا نطالب هذه الزوجة ألا تغار على زوجها، وترضى بمشاركة امرأة أخرى فيه، فذاك أمر طبيعي وفطري لا يمكن سلامة النفوس منه، إلا أن الزوجة الحصيفة متى ما رأت من زوجها ضرورة داعية إلى التعدد، عذرته حيال أمر قد اضطر إليه ولم يملك من نفسه صبراً، وقد قيل: إن تواتر الجوع مَلهَبة...وتنغيص النوم مَغضبة، كما أن من المقرر فقهاً أن الاختيار لا يتحقق في موضع الاضطرار !.

قضية معاكسة:

مما ينبغي أن يتفطن له شركاء التعدد الجدد ألا ينساقوا خلف كثير من الكلام العاطفي الانفعالي الذي تبوح به الزوجة الجديدة في البدايات، كأن توافقه في البداية على أن «يكفيها منه أن يبيت لديها يوما في الأسبوع»، أو «لا ضرورة للإنجاب»، أو «لا داعي للنفقة»...إلخ إلى غير ذلك من الوعود

الحالمة، فكل هذا غالباً ما تنساه الزوجة الجديدة تماماً بمجرد الدخول عليها، ولا تتذكر حينئـذ سوى أنها زوجة كاملة الحقوق، مثلها كسائر الزوجات، فمن حقها أن يبيت زوجها عندها أياماً بالتساوي مع الزوجة الأخرى، ومن حقها أن تنجـب ويكون لها أولاد، ومـن حقها أن يحرص الزوج على النفقة عليها وتوفير كافـة الاحتياجات، وأما ما قالته قبل ذلك فكان منهـا لموضع الاضطرار، وقد قرر الفقهاء أن الاختيار لا يتحقق في موضع الاضطرار!!.

طلبات لا تنتهي:

نعيش في عصر الاستهلاك المحموم بلا شك، ووجودُ طلبات متعددة وذات مستويـات متفاوتة للأسرة في الملبس والدراسة والمسكن والرحلات لا يعدّ أمراً شـاذاً، لكن الإشـكال في تتابع الطلبات، مـع قلة حيلة اليد، ممـا يرهق كاهل الـزوج، فلا بد في هذا الصدد من مراعاة الزوجة لميزانيته المالية والتعامل مع الاحتياجـات الأساسية بمنطق واقعي، فالتطلع إلى تسلق هرم التطلعات دائماً ما يحتاج إلى مراجعة الإمكانيات المتاحة !!.

وفي وصيــة أمامة بنـت الحارث التغلبيــة - وهي من فضليـات النساء في العرب، ولها حكم مشهورة في الأخلاق والمواعظ - لابنتها حين تزوجت: عليك بالاحتراسـ بمالـه، والإرعاء على حشمه وعياله، ومـلاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

وقد تعمد بعض الزوجات إلى طرح خيارات متعددة لزوجها والإلحاح عليه في ذلـك، والـزوج في الأصل عاجز عـن تحقيقها، أو أن لديـه التزامات أخرى

أكثر أهمية، مما يجعل تلك الطلبات من وجهة نظره غير مهمة مقارنة بدرجة أهميــة التزاماته السابقة، فتضحي حالته تجاهها حالة اضطرار، والاختيار لا يتحقق في موضع الاضطرار.

إضاءة:

الأحمـق وحده مـن يقف أمام القذيفـــة راجياً منهــا أن تتفهم وضعـه وتبتعد عن طريقه !!.

القاعدة الثالثة

إذا ضاق الأمر اتسع وإذا اتسع ضاق

هذه قاعدة فقهية لطيفة، شقُّها الأول مأثور عن الإمام الشافعي رحمه الله، ويفيد أنه متى ما سُدّت المنافذ في وجه المكلف وضاق عليه الأمر، فإنه يرخص له ويوسع عليه، وأصله في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٦)، بينما يفيد شقها الثاني: أنه متى ما زال الحرج عاد الأمر إلى ما كان عليه، ولا حاجة إلى التوسيع حينئذ.

إن هذه القاعدة يمكن أن تساعد في تأسيس مبدأ الموازنات في الحياة الزوجية، فمتى ضاق الأمر على شريك الحياة في أمر مادي أو معنوي، كان مراعاة حاله وظروفه وتوسيع الأمر عليه من حسن الأدب ولطف المعاشرة، ومتى ما تنفس الصعداء وزالت الكربة أمكن للطرف الآخر السعي في المطالبة بحقوقه أو تنفيذ رغباته.

الحياة الزوجية وفن الممكن:

إذا كان خبراء السياسة يرددون دوماً أنها فنّ الممكن، فهكذا الشأن في كثير من متقلبات الحياة الزوجية، حيث لا بد من تحرك الزوجين في نطاق الإمكانات المتاحة لكلا الطرفين، سواء المادية منها أو المعنوية، الجسدية أو النفسية، والعجب أن كثيراً من الأزواج يأبى إلا أن يجعل حياته فنّ المستحيل !.

قاعدتنا الفقهية الرائعة تكشف بجلاء أن الأمر متى ما ضاق اتسع، فمتى ما سُدّت المنافذ والسبل في وجه أحد الزوجين وضاق عليه الأمر، فليس من الحكمة في شيء التضييق عليه أكثر، والضغط عليه أكثر، وتحميله ما لا طاقة له به، ذلك أن الضغط المتزايد سيعمل قطعاً على توليد الانفجار !.

إن الحياة بطبيعتها سريعة التغير، فهي كما قيل: تتقلب تقلّب المِرجل إذا استجمع غليانه، ومن ظنّ أنه دوماً في مأمن من نكباتها فإما حالم أو جاهل بها، فيوم لك ويوم عليك !، ولن تصفو لأحد على الدوام.

وكما قال أبو البقاء الرندي رحمه الله:

وهذه الدار لا تُبقي على أحد

ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

فمتى ما رأيت الدنيا قد أخذت مأخذها من شريك الحياة وتقلبت به كما تتقلب بغيره من البشر، وتناوشته المصائب وأحاطت به النكبات من كل اتجاه، فإياك وممارسة الضغط عليه أكثر، بل كن على الدوام عوناً له على تجاوز المحن والملمات.

✍ شعرة معاوية رضي الله عنه:

الصحابـي الجليل وخـال المؤمنين وأميرهم معاوية بـن أبي سفيان رضي الله عنـه يعـدّ رمـزاً لحسـن التقديـر والحكمـة والسياسـة وتدبـير الرعية، وكان المؤرخـون يضربـون بـه المثل في ذلـك، واشتهر عندهـم مصطلح شعرة معاويـة، الـذي هو كناية عن حسن السياسة، أو ما يعـبّر عنه بالدبلوماسية في المصطلحات المعاصرة.

هـذا الصحابـي الفطن تمكن مـن أن يقـود سفينة الأمـة في وقت الفتن وتلاطمهـا إلى برّ الأمان بشعرة قدّرها بينه وبين الناس، التي هي في حقيقتها حكمـة ومنهـج حياة، حيث يقـول: إنّي لا أضع سيفي حيـث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيـث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.

إنـه متى ما اتخـذ الزوجان هذا المبـدأ شعاراً، وسارا علـى هديه بحكمة وحصافـة في حياتهما وتعاملهما مع بعضهما البعـض، وجعلا جسور الاتصال قائمة دوماً، وعملا بجدّ وإخلاص من أجل المحافظة على الشعرة بينهما سالمة قدر الإمـكان، وأحكما مهـارة التعامل بمبدأ الشدّ والجـذب فيها، فلا تجذب بشـدة وقـت الأزمات، ولا ترخـى بتهاون وقت الانفراجـات، متى ما فعلا ذلك نَعِم كل منهما بحياة هانئة سعيدة، وامتلك قلب الآخر وروحه قبل عقله وفكره.

أليس بإمكان كل زوج حصيف بناء حياته الزوجية على التوازن والاعتدال

مـن خلال استصحـاب شعرة معاوية رضـي الله عنه، ومن ثـم العيش في جو هانئ وظلّ وريف وأسرة ناجحة؟.

إضاءة:

إذا كان المنطق الفيزيائي يفيدنا أن الضغط يولد الانفجار، فإن التجارب تفيدنا أن تراكم الضغط في الحياة الزوجية يسلك بها طريق الانتحار!.

القاعدة الرابعة

إشارة الناطق كعبارته

تفيد هذه القاعدة الفقهية أن الإشارة من الناطق مقبولة معتبرة متى ما كانت مفهومة وتؤدي الغرض المقصود منها، والمقصود من الإشارة: التلويح بشيء يفهم منه ما يفهم من النطق.

وفي الحياة الزوجية يمكن أن تؤدي الإشارة دورها بفعالية منقطعة النظير بين الزوجين، فيتفاهم من خلالها الزوجان، ويتحاور عبرها الحبيبان، متى أحسنا استخدام أدواتها ورموزها.

لغة الإشارة بين الزوجين:

في الحياة الزوجية لغات متنوعة يحيط الزوجان بها علماً وتنعش حياتهما، يتفاهمان من خلالها، ويبنيان بواسطتها جسور الحب والمودة بينهما، وهي فضاء واسع رحب يمارس فيه الزوجان شتى ضروب التلميحات وكافة أنواع اللغات، ولكل لغة أثرها وسحرها، كما أن لكل مقام لغته الخاصة به التي لا يصلح فيه غيرها.

ولعلنا نجد كثيراً من هذه المعاني فيما يلفت إليه قول الله تعالى عن الزوجين: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٢١)، فنلمس ههنا كما ذكر سيد قطب رحمه الله لمسة وجدانية عميقة وظل من ظلال الحياة الزوجية في تعبير موحٍ عجيب، فترك الفعل «أفضى» بلا مفعول محدد، يدع اللفظ مطلقاً، يشعّ كل معانيه، ويسكب كل إيحاءاته، ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانيات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب، يدع اللفظ يرسم عشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتهما فترة من الزمن... ففي كل اختلاجة حبٍّ إفضاءٌ، وفي كل نظرة ودٍّ إفضاءٌ، وفي كل لمسة جسمٍ إفضاءٌ، وفي كل اشتراك في ألمٍ أو أملٍ إفضاءٌ، وفي كل تفكرٍ في الحاضر أو المستقبل إفضاءٌ.

وإنني ههنا أدعو بشدة إلى أن يعمد الزوجان دوماً إلى قراءة ملامح شريك الحياة وحركاته وإيماءاته؛ والحرص على التقاط الإشارات غير الشفهية وفكّ رموزها، حيث تساعد كثيراً على فهم انفعالاته الداخلية بشكل أفضل من الألفاظ الصريحة، التي قد يتجنب فيها إيصال مراده خوفاً من

الإيلام أو التجريح أو مراعاة منه للمشاعر، أو حتى خشية من ردة فعل الطرف الآخر عبر ألفاظ جارحة أو أفعال مؤذية.

ولذلك ينبه الخبراء إلى ضرورة إصغاء الزوجين إلى هذه اللغة، التي دوماً ما تكون أكثر تعبيراً وتأثيراً من الكلام، كما أنها تحمل للطرف الآخر الرسائل الحقيقية التي لا يمكن تزييفها، وهي بحق ساعي بريد حاذق يعمل على إيصال الرسائل كما هي، ويمكن من خلال لحظها مدّ جسور التواصل والانفتاح على شريك الحياة برغبة صادقة وإرادة مخلصة.

ولو تأملنا على سبيل المثال أبرز إشارة بين الزوجين يمكن أن تتمثل في لغة النظرات، وهي لغة صامتة لا صوت فيها، حيث يتاح للعيون أن تعبر عما يختلج في القلب من شوق ومحبة وأنس، وتتنوع مفرداتها حسب بواعثها وغاياتها، من نظرة حانية صامتة، وأخرى دافئة ناعسة، وثالثة معجبة متألقة، إلى لغات كثيرة متجددة تحرّك المشاعر وتطربها، لا تقف عند العدّ والإحصاء.

وتعطّلت لغة الكلام وخاطبت
عيني في لغة الهوى عيناك

لغة الجسد:

إن الكلمات والعبارات جزء من الرسالة الكاملة التي يتم إرسالها من قبل المتحدث، بينما نجد حركة الجسد والبسمات واللمسات الحانية وارتفاع الحواجب كلها تعمل بشكل تلقائي على إكمال تلك الرسالة التي يراد إيصالها إلى الطرف الآخر.

وعندما يتجاذب الزوجان أطراف الحديث أو يتناقشان أو يتجادلان فإن

الألفاظ والكلمات تقوم بنقل العديد من الرسائل إلى الطرف الآخر، لكن في ذات الوقت هناك وسيلة أخرى لا تقلّ أهمية تقوم بنقل قدر كبير من الرسائل غير اللفظية إليه، وذلك عبر المظهر وطريقة التحدث والسلوك الحركي، ولعل الإنسان يلحظ آثاراً واضحة وعميقة تبعثها رسائل من نحو: زمّ الشفتين، وتقليب العينين، وتقطيب الحاجبين.

وفي الحقيقة كثيراً ما نلمح تطلّع الأزواج إلى فورة التواصل العاطفي الذي كان قوياً متدفقاً في مطلع الحياة الزوجية مع ما يتبعه من دفء وحميمية صادقة، وشكواهم من أنه ما لبث أن بدأ ذلك كله في التراجع تدريجياً حتى لا يكاد يُشعر به، والسبب حسب خبراء العلاقات الزوجية أنه يحصل في مطلع الحياة الزوجية كثير من التواصل غير اللفظي، من مسّ الكف، ومسح الشعر، وتربيت الظهر، فكل هذه التصرفات مهما بدت صغيرة ويسيرة ينظر لها الطرف الآخر في أول الحياة بصورة إيجابية جداً، ويعتبرها تعبيراً صادقا ومفعماً بالحب من شريك الحياة.

إضاءة:

كثيراً ما تمنحنا الإشارة آلاف الكلمات...فمتى كنت جيداً في الملاحظة يمكنك أن تستمتع بالإنصات إليها.

القاعدة الخامسة

الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود

هــذه القاعدة الفقهية يقرر فيها الفقهاء أن الأصل في الإنسان اشتغاله بما هو مقصود له أساساً، فإذا انصرف عنه واشتغل بغيره كان ذلك إعراضاً منه عن المقصود وإهداراً له.

وعليه فمن الممكن الاستفادة من هذه القاعدة في الحياة الزوجية؛ فإن الأصـل في كل واحـد من الزوجين أن يشتغل بما هو مقصود أصلاً وأكثر أهمية في علاقاتـه مع الطـرف الآخر، فإذا انصرف عنه واشتغـل بغيره مما هو أقل أهمية كان ذلك إهداراً منه لما هو أهمّ.

احذر بُنيات الطريق:

لو همسنا في أذنك أيها الزوج الكريم...وأيتها الزوجة الفاضلة: ما ظنك بطبيب يأتيه مريض يئن تحت وطأة زائدة دودية تكاد تنفجر في جوفه، فيشتغل حينئذ بضرورة تبييض المريض لأسنانه التي علتها الصفرة !!.

هؤلاء هم الأزواج الفاشلون، يُغفلون الضروري والمهم، وينشغلون فيما هو أقل أهمية، وفي أمثال العرب: دع عنك بُنيات الطريق، والمقصود بها الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الكبيرة، فكأنها بنات لها من حيث إنها نشأت عنها وخرجت منها، فأطلقوا بنيات الطريق على الترّهات وسفاسف الأمور، أي: اقصد الأمر العظيم الشأن واترك صغار الأمور.

يقول أحد أكبر خبراء الإنجاز نيدو كوبين: ما من شيء يمكن أن يضيف قوة أكبر إلى حياتك من تركيز طاقاتك على مجموعة محددة من المهمات.

فلا تستبدل أخي الكريم الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا تكن ممن ينبش فيما لا يسمن ولا يغني من جوع، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم :

سلكوا بنيات الطريق فأصبحوا

متنكبين عن الطريق الأكبر

اقصد البحر وخلّ عنك السواقي:

تتضمن الحياة الزوجية حقوقاً وواجبات تكفل تحقيق مصالح الزوجين ودفع المفاسد عنهما، إلا أنها ليست على درجة واحدة من الأهمية، بل على درجات ونسب متفاوتة، فمنها ما يتعلق أصالة بوظائف أساسية، ومنها ما يتعلق بوظائف ثانوية، وهي في ذلك على درجات تفتقر في معالجتها إلى كثير

من الموازنة وتقديم الأهم على المهم، وهذا التوازن في كثير من تمظهراته وتجلياته لا يتطلب من الإنسان علماً غزيراً، بل يدرك العقل الواعي المنضبط بداهة هذا التفاوت بينها، كما يدرك متى ما خلا عن هوى مصاحب رجحان بعضها على بعض.

والناظر في حال كثير من الأُسر يدرك أن من أعظم الآفات التي منيت بها غياب فقه تقديم الأهم على المهم، فما أكثر ما حصل من تقديم للأمور المهمة على ما هو أهم منها، وتقديم ما يلزم تأخيره، أو تأخير ما يلزم تقديمه، وكم نزّلت الأمور في غير مواضعها !!.

ولقد أفضى هذا إلى الانكباب على معالجة القضايا الثانوية، وتشتيت الجهود واستنزاف الطاقات، واستهلاك الأوقات في مجرد ردود الأفعال المتفرقة وغير الممنهجة، والتي حتماً ستقود إلى لا شيء !.

وكم صوّر الإمام أبو عبيدة رحمه الله حال كثير من هؤلاء بقوله: من شغل نفسه بغير المهم أَضَرَّ بالمهم.

ويذكر الخبير ستفين آر. كوفي - صاحب كتاب العادات السبع للناس الأكثر فعالية- أن شخصية الإنسان تتكون من العادات التي التزم بها، وأن هناك سبع عادات يؤدي اكتسابها خطوة بخطوة إلى نمو الشخصية نمواً فعالاً متوافقاً مع قانون النمو، وجعل عنوان العادة الثالثة منها (ابدأ بالأهم قبل المهم)، ومهّد الكاتب لهذه العادة بالمقولة المأثورة عن الأديب الألماني جوته: الأشياء المهمة ينبغي ألا تخضع لرحمة الأشياء الأقلّ أهمية، وبرهن على أن العامل المشترك للنجاح بين جميع الناجحين ليس الكدّ أو حسن الحظ أو العلاقات الإنسانية

علـى الرغم من أهميتها، بـل ما يفوق ذلك أهمية، وهو البـدء بالأهم فالمهم، فهنـاك الكثـير من الأشياء غير المهمـة تحتاج من الإنسان لقـوة إرادة ليقول: كلمـة «لا» في وجههـا، وهذا ما يتطلب قوة إرادة مستقلـة، ووعياً ذاتياً، والعمل وفق القيم، لا الرغبات والاحتياجات المحمومة اللحظية.

ابدأ بالأهم ولو كان صعباً:

هـذه الفقرة عنوان كتـاب لخبير الأعمال/ برايان تريسـي، وقد دعا فيه إلى ضرورة اتباع قانون الكفاءة المفروضة، ومفاده: أنه لا يوجد وقت كافٍ أبداً لفعل كل شيء، لكن هناك دائماً وقت كافٍ لفعل الشيء المهم.

إن كثـيرا من الناس يعمل علـى السهل في حياته ولو كان أقل أهمية، ويدع الصعـب الأهم؛ لكون ذلك الصعب مملاً وثقيلاً، ويخـادع نفسه ويمنيها بأنه مـازال يعمل، ولذلك يقول وينس وتيلـي: الفاشلون يفعلون ما يريح أعصابهم، بينما يقوم الناجحون بإنجاز أهدافهم.

والمؤسسات الزوجية الناجحة هي التي تقوم على نظام الأولويات المدروسة دراسة وافية، فلا يتمّ فيها تأجيل عمل اليوم إلى الغد، فإذا أخذنا في الاعتبار أولويـات الأسـرة المسلمـة ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ (الـروم: ٢١)، فعندها لن يأسر تلك الأسرة متابعة الموضة، ولـن تبذل أوقاتها النفيسة في تحصيـل المظاهر الخادعة، ولن يحتدم النقاش داخلها ويزداد التوتر لحد الأزمة حيال موضوعات ثانوية.

إن الزوجـين اللذين يعيشـان وفق تفهم الأولويات والمبادئ والمثل حسب أهميتهـا يستمتعـون أكثر بالحياة، وهـم - كما يذكر الخبـير ستيفن كوفي في

كتابه إدارة الأولويات - أكثر مرونة وتلقائية، وعلاقتهم بالغير أغنى وأكثر نفعاً، ونتائج أعمالهم مبهرة، حيث يضعون الحدود لأنفسهم، فينفقون باتزان، ويدخرون ويستثمرون للمستقبل، ولديهم نظام نفسي سليم، يمكنهم من مواجهة المشكلات، وهم قادرون على تنفيذ ما يقولون، فلا نفاق ولا ازدواجية بين القول والعمل، وهم يعلمون أن العيش وفق المبادئ ليس بالأمر السهل دائماً، ولكنه يحقق جودة أفضل للحياة.

وحين يراعي كل من الزوجين أولويات حياتهما الزوجية يكون ذلك كالحارس المنيع على باب عش الزوجية، فلا تستطيع أعظم المشكلات حينئذ أن تلج فيه وتعبث باستقراره، أما حين يغيب هذا الموقف فسوف يقف أهل البيت حيارى كيف استطاعت صغار المشاكل اختراقه والعبث فيه فساداً !!.

إضاءة:

معاناة الأزواج كثيراً ما تنبع من الإخلال بفقه الأولويات، والاشتغال بالجزئيات وإهمال الكليات، والعمل على تكثيف الشعور بالكمّ دون الكيف.

القاعدة السادسة

الأصل بقاء ما كان على ما كان

المقصود بهذه القاعدة الفقهية الأصولية أن ما ثبت حكمه واستقرّ في زمن سابق فإن الأصل بقاؤه واستمراره على حاله المعهودة التي كان عليها، ولا يُحكم بزواله حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك.

والحياة الزوجية متى ما ثبتت واستقرّ حكمها بسريان العقد، فإن الأصل بقاؤها واستمرارها والمحافظة عليها، حتى إن الفقهاء قرروا أن من شك في طلاق امرأته فهو باقٍ على نكاحه؛ لأن النكاح قد ثبت واستقر بعقد صحيح، بينما الطلاق مشكوك فيه، وكل هذا حرص من الفقهاء على ديمومة عقد الزوجية واستمراره.

مقصد أصيل:

بقـاء الحيـاة الزوجيـة واستمرارها وثباتهـا مقصد أصيل مـن مقاصد الشريعـة الإسلاميـة، ولذلك نجد في الحديث أن النبـي ﷺ أوصى الخاطب أن ينظـر إلى مخطوبتـه، وعلّل ذلك بقوله: «**انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»، بمعنى أن ذلك أجدى أن تدوم المودة والعشرة بينكما.

بـل إن النبـي صلـوات الله وسلامه عليـه أخبر أن التفريـق بين الزوجين والتحريش بينهمـا هدف أساس للشيطـان، وأن الأقرب إليه مـن أعوانه هو مـن يفلح في زعزعة استقرار الأسرة، ويسعى جاهـداً في انقطاع وصلها، ففي الحديـث: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلـة أعظمهـم فتنة، يجيء أحدهـم فيقول: فعلت كذا وكـذا، فيقول: ما صنعت شيئـا، قال: ثم يجيء أحدهم، فيقول: مـا تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيقول: نعم أنت أنت، فيدنيه منه**».

وهمسـة في أذن كل امـرأة عاقلـة حصيفـة: احرصـي على بقـاء حياتك الزوجيـة واستمرارهـا، مهما كانت العقبـات والمنغصات والعـثرات، فالزواج نعمـة لا تقدر بثمن، وحظك منهـا أكبر من حظ الرجل؛ لأنك أضعف منه على تحمـل تكاليف الحياة، وتمّني دوماً قيادة زوجك وتحملـه المشاق في إدارة دفة الأسـرة، ولا يخطـر في بالك يوماً ما أن مواجهة صعوبـات الحياة من السهولة بمـكان، بل ضريبة ذلك غالية جداً، تأخذ من الراحة والصحة والهناء الشيء الكثـير، كما نبـه إلى ذلك أحد الحكماء بقوله لابنه: لاتكـن رأساً، فإن الرأس كثير الأوجاع.

صيانة جسور التواصل:

مهما كان منحى الحياة الزوجية، لا بدّ لكل زوجين من البحث عن الحياة الأفضل، حيث يسود روح التفاهم والاحترام المتبادل، وتستمر تلك الحياة الهانئة في مجملها في تصاعد جميل، وإن تخللها ما يكدرها أحياناً من مرور بعثرات متعددة وصعوبات مختلفة، إلا أنه في كل الأحوال لا بد من الحرص على صيانة جسور التواصل مع بعضهما والمحافظة عليها، مع الاعتماد على مبدأ الصدق والصراحة وتوخي الوضوح، والحذر في الوقت نفسه من الكذب والتلاعب تحت حجة التخفيف من وقع الحقيقة مهما كانت قاسية ومؤلمة.

أشعل كل فترة شمعة حب:

توصل مجموعة من خبراء العلاقات الزوجية إلى أن مما يفسر بقاء الأزواج معا لمدة طويلة قد تستمر إلى نهاية العمر: وصول الحب الصادق بين الزوجين إلى حالة من الإدمان لبعضهما البعض، وفي هذه الحالة لا بد من العمل على تغذية الحب، والحرص على إشعال شمعاته بين الفينة وأختها.

العطاء سرّ استمرار الحياة الزوجية:

أثبتت التجارب أن مجرد النوايا الحسنة والمشاعر الجميلة لا تكفي في بناء العلاقات الزوجية على حال جيدة ومستقرة، ما لم يتم العمل بصدق واهتمام على ترجمة ذلك إلى واقع عملي، يتمثل في عطاء متجدد ومتدفق ومتنوع، على كافة المستويات، المادية منها والمعنوية، عطاء يكشفه ويزيح الستار عنه الكثير من الأفعال والتصرفات الجميلة، ذلك العطاء الذي يعدّ طاقة هائلة لا نظير لها، تكمن في قلب كل من الزوجين تجاه بعضهما البعض، وتظهر آثاره في صور

لا يمكن حصرها، وهو عامل مهم في بقاء الحياة الزوجية واستمرارها، على نحو يحمل معه المحبة والسعادة والهناء، وقد أحسن من قال:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وكن على الدهر معْوانا لذي أملٍ

يرجو نَداك فإن الحرَّ مِعْوانُ

قال ابن القيم رحمه الله: وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير.

ويؤيد ذلك ما ذكره الدكتور جاري تشابمان في كتابه (لغات الحب الخمس)، حينما جعل اللغة الرابعة من لغات الحب: لغة الأفعال الخدمية، ومعناها الإقدام على الأفعال التي تعرف أن شريك الحياة يحب أن تفعلها من أجله بالخصوص...هي التعبير عن الحب بفعل الأشياء من أجله...بغضّ النظر عن حجمها ومقدارها، حتى لو بدت بسيطة وصغيرة في نظرك، فهي في كل الأحوال تحتاج منك تفكيراً وتخطيطاً ووقتاً ومجهوداً وطاقة، ومتى تم فعلها بروح إيجابية فإنها تصل لشريك الحياة على أنها تعبير حقيقي صادق عن الحب، وحينها سوف تسعد بمشاهدة خزان الحب بينكما وهو يمتلئ!.

إن السعيد من الناس من يعطي بسخاء، إنه إنسان لا تجد صناديقه فارغة أبداً، وخزائنه دوماً مِلاءٌ، فهو يعشق البذل والعطاء، ويحب النظر إلى نفسه كنهر متدفق ومعين متجدد ونبع فياض، وهو لا ينظر إلى قيمة ما يعطي...

وإنما محبة في رسم الابتسامة على الشفاه، ورغبة في رؤية مدى تأثير عطائه الآخّاذ على القلوب...وإذا تأملت حاله وجدته في الواقع لا يعطي بقدر ما يأخذ، حيث يأخذ تلك المشاعر الصادقة الممتنة...التي تسقي عطش القلوب.

وقد ذكر باحثون من كندا أن جني المبالغ الطائلة في حد ذاته لا يجلب السعادة للإنسان، بل الذي يعزّز شعوره بالسعادة هو إنفاقُ المال على الآخرين، وتقول البروفيسورة إليزابيث دان: بغضّ النظر عن حجم الدخل الذي يحصل عليه الفرد، فإن أولئك الذين أنفقوا أموالاً على آخرين كانوا أكثر سعادة من أولئك الذين أنفقوا أكثر على أنفسهم.

روح الدعابة والملاطفة:

إن من الضروري لاستمرار الحياة الزوجية أن تخيّم على حوارات الزوجين وتصرفاتهما كثير من روح الدعابة والملاطفة والمزاح المقبول، والحرص على تعبيرات الوجه البشوشة والتضاحك وإشعار الطرف الاخر بأنه سعيد برفقته، وذلك يعدّ شكلاً من أشكال الصحة النفسية التي تساعد على الاستمتاع بالحياة، كما ينصح به المتخصصون من علماء النفس، بل إن بعض الأخصائيين في علم النفس يؤكد على أن دقيقة واحدة من الضحك توفر ٤٥ دقيقة من الاسترخاء !.

وفي الحقيقة كم يخطئ كثير من الرجال حينما يظنون أن التبسط مع الزوجة والتلطف معها وملاعبتها وممازحتها يعدّ نوع ضعف في الشخصية لا يليق به، وأن ذلك ليس من القوة أو الرجولة في شيء، فهذا منطق بعيد عن العقل والحكمة، وأين أمثال هؤلاء من قول النبي ﷺ لجابر رضي الله عنه: «**هلّا بكراً تلاعبها وتلاعبك**»، وفي رواية: «**تضاحكها وتضاحكك**».

إن مثل هذه التصرفات الجميلة من قبل الزوجين تغرس الحب في القلوب، وتحدث الألفة، وكثيراً ما تعمل على محو ما يحدث من قصور، وتسديد ما يحصل من نقص، وعلى الرغم من الحزم المشهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ورد عنه قوله: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلاً، ومقصوده أن يكون مع أهله في الأنس والبشر والملاطفة كحال الصبي، لكن متى ما طُلب منه أمر غير جائز لم يدفعه مزاحه وتبسطه إلى الاستسلام، بل تجده صلباً كالطود الشامخ فيما يخص تجاوز أمور الدين والمبادئ والأخلاق والقيم.

كما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه كان من أفكه الناس في أهله.

وقال الحكيم الترمذي رحمه الله: كان السلف الصالح ينبسطون إلى أهاليهم وأولادهم وإخوانهم.

وقد أوصى الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه (إحياء علوم الدين) الزوج بأن يحتمل الأذى من الزوجة ترحماً عليها، ثم قال: وكذلك أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة، فهي التي تطيّب قلوب النساء.

ومدحت أعرابية زوجها بعد أن مات، بقولها: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج، سكيتاً اذا خرج، آكلاً ما وجد، غير سائل عما فقد.

إضاءة:

الحياة الزوجية علاقة مستمرة دائمة...لذا تتطلب الصيانة الفاعلة باستمرار.

القاعدة السابعة

الأصل في الصفات العارضة العدم

تعدّ هذه القاعدة الفقهية من القواعد المهمة التي يبني عليها كثير من المسائل، وتهدف إلى بيان أن الصفات التي يكون وجودها في الشيء طارئاً وعارضاً، بمعنى أن الشيء بطبيعته لا يتصف بها ويكون خالياً عنها غالباً، فإن الأصل فيها العدم.

وهنا قد يطرأ على الحياة الزوجية عارض صحي لشريك الحياة، يعمل على إحداث خلل نفسي أو تقصير غير مقصود في أداء الواجبات، فيكون حينئذ من الحصافة والحكمة عدم الالتفات إلى مثل ذلك، والتغاضي عنه وتجاوزه باعتباره أمراً مؤقتاً، ولم يكن صفة أصلية مقصودة ومصاحبة له.

الدورة الشهرية واضطراب المزاج:

الغالب من حال الإنسان السوي الاتزان والتوافق الشخصي والانفعالي، إلا أن المرأة بطبيعتها وتكوينها تمرّ بحالات وتوترات نفسية مضطربة وأحياناً غير مفهومة جراء حصول الدورة الشهرية (الطمث)، وهي أعراض وقتية قد تسبقها أو ترافقها، وتتفاوت شدة وضعفاً من امرأة إلى أخرى.

والمرأة في الحقيقة قد عايشت المعاناة المصاحبة للدورة الشهرية عبر التاريخ، إلا أن القليل من الرجال من يدرك طبيعة هذه المعاناة ويتفهمها، نظراً إلى تعدد الأعراض وتنوعها وتعقدها، بل إن دراسة حديثة كشفت عن وجود أكثر من ١٥٠ نوعاً من الأعراض المرضية المصاحبة لهذه الدورة، وفي معظم الحالات تكون تلك الأعراض خفيفة الحدة أو متوسطة، إلا أننا لا ننسى أنها في بعض الأحيان تكون شديدة وعميقة.

إن تقلب المزاج لدى المرأة من أكثر الأعراض التي يلاحظها الأزواج بعد فترة من ممارسة الحياة الزوجية، وكثيراً ما يكون ذلك طبيعياً نتيجة التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الزوجية بسبب الطمث، وتتجلى الأعراض النفسية عند معظم النساء بالمزاج المكتئب، والشعور باليأس والإحباط والتفكير بخذلان النفس، وضيق الصدر، والإحساس بالقلق مع التوتر وعدم الراحة، والهبوط العام في القوى، والثقل في الحركة، وظهور اضطراب في المزاج، وزيادة في الحساسية النفسية، والتأرجح بين كافة الانفعالات، وسرعة الانتقال من موقف إلى آخر دون تبصر أو روية.

بل بلغ الأمر بالجمعية الأمريكية للطب النفسي أن عمدت إلى تصنيف

الاضطرابـات النفسية المصاحبـة للدورة الشهرية لدى المـرأة تحت مجموعة «اضطرابات المـزاج»، أو «الاضطرابات الوجدانية أو العاطفية»، وشرحت تلك الحالـة بأنهـا: تشكيلة من الأعراض الجسمية والنفسيـة في أوقات تتكرر في الأسبـوع الأخـير قبل الطمث التي تختفـي أو تنخفض كثـيراً في اليوم الأول أو الثاني من بدئه.

وإذا كان مـا مضـى أمراً ثابتـاً واقعاً وطباً، فمن إنصـاف الزوج وحنكته وحسـن عشرته وكريم خلقه مراعاة زوجه في هذه الحالة، والتغاضي عن كثير من الهفوات والزلات التي تصاحبها، والتي مردّها يعود إلى حالة وقتية طارئة عرضـت لها، الأصـل فيها العدم وسرعان ما تزول بـزوال مسببها، وإن لنا في رسـول الله ﷺ أسـوة حسنة في تعامله مـع نسائه في مثل هـذه الأوقات، ففي الحديـث الصحيـح عن عائشـة رضي الله عنهـا أنها قالت: كنـت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فِيَّ فيشرب، وأتعرق العَرْقَ وأنا حائض ثم أناوله النبي، فيضع فاه على موضع فِيَّ، وتعني أنها تأخذ العظم الـذي يكون عليه بقية من اللحم فتـأكل منه وتعطيه النبي ﷺ، فلا يتقذر من وضع فمه مكان فم عائشة رضى الله عنها في المشرب أو المأكل، وقد أشار بعض أهل العلم إلى أن هذا الفعل من قبل النبي ﷺ لم يكن بداعي الشهوة، بقدر ما هو إظهار المودة والمحبة والمواساة.

الحمل والولادة:

كذلـك من الحالات التـي يطالب الزوج فيها بمراعـاة زوجه حالة الحمل والولادة، ذلك أن حالة الحمل تعدّ إحدى التجارب العاطفية المليئة بالتحديات

والتغيرات المختلفة، وخاصة في الحمل الأول للمرأة، بل إن التغيرات الفيسيولوجية المرافقة للحمل كتغير ملامح الجسم وانتفاخه وما يتبعها من اضطرابات هرمونية تجعل من حالة الحمل حدثاً نفسياً تواجه فيه المرأة حالة من الخوف والتوقعات التي تتعلق بحدث الولادة وما يتبعها من مسؤوليات الأمومة.

ومن الثابت في الدراسات الطبية وجود ثلاثة مراحل لهذه الاضطرابات النفسية، تبدأ أولاها في الثلث الأول من الحمل، حيث تشعر بتغيرات عاطفية وانفعالية مفاجئة وإصابتها بالاكتئاب أو الغضب المُفرط والمؤثر تجاه من حولها، نتيجة الخشية من فقدان جنينها الذي يعمل على زيادة قلقها وتوترها، وفي الثلث الثاني من الحمل يتلاشى الخوف من الاجهاض بالتلاشي نسبياً، وبالتالي تشعر بنوع من الراحة والرفاهية، وتُمثل هذه المرحلة قمة الأحداث العاطفية لها، وأما في الثلث الأخير من الحمل فإنها تبدأ بالتحضير لولادة طفلها عاطفياً وفيزيولوجياً كما يزداد قلقها وخوفها من المخاض والولادة، فتحتاج في هذه المرحلة الى المزيد من الاهتمام من شريكها وعائلتها كما يلزمها المزيد من التشجيع.

أما عن الاضطرابات التي تحصل بعد الولادة، فتظهر مع أول ٢٤ ساعة عقبها، وتتمثل بتقلب المزاج، والشعور بفرط النشاط، وبدء الاضطرابات المُتعلقة بالنوم، وقد يتطور الأمر إلى حصول ما يسمى باكتئاب ما بعد الولادة، كما أنه في فترة لاحقة وبعد مرور ما يُقارب أسبوعين على الولادة تعاني ما يقارب ٨٠٪ من النساء من عدة أعراض تُصنف على أنها متوسطة، وتزول

بشكل تلقائي في غالب الحالات كالإعياء العام، وصعوبة النوم، والبكاء المُتكرر دون وجود سبب فعلي.

ويشير كثير من المتخصصين إلى أن المرأة عادة في هذه المرحلة لا تحتاج إلى علاج طبي، بقدر حاجتها إلى الالتفاف حولها، والتفهم الصادق من أسرتها وزوجها، وإحاطتها بالحب والعناية والاهتمام، والاطمئنان عليها وتفقد أحوالها بشكل منتظم، وتفهم أن تقلبات المزاج التي تمر بها وقتية طارئة، ومساعدتها على رعاية طفلها.

إضاءة:

الاهتمام الصادق النابع من إحساس بالمسؤولية كفيل بالعمل على تجاوز أي عقبات طارئة.

القاعدة الثامنة

الأمور بمقاصدها

هذه إحدى القواعد الفقهية الكبرى، وهي على وجازة صيغتها وقلة كلماتها تعدّ من جوامع الكلم، وتستند إلى قول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وتقرر أن الأحكام المترتبة على تصرفات المكلف يُنظر فيها إلى مقصده، حيث تختلف باختلاف إرادته ونيته.

وهكذا في الحياة الزوجية التي لا تخلو من تصرفات قولية وفعلية من قبل شريكي الحياة، لا بد أن يُلحظ فيها مراعاة المقصود منها، وعدم التسرع في إصدار الأحكام تجاهها قبل تفهم وجهتها والتحقق من المراد بها.

افهم رسالته:

يذكّرنا الفقهاء في قاعدة جميلة أن (الكلام مبني على غرض المتكلم)، وإذا كانت الحياة الزوجية تتضمن تلاقٍ بين إنسانين، فلا بد من وجود كثير من المحاورة والنقاش والجدال والرسائل الكلامية بينهما، وذلك ما يوقفنا على ضرورة فهم كل طرف للآخر، وما يهدف الوصول إليه من خلال شتى الكلمات وأنواع العبارات.

ولو تأملنا الحياة المشتركة لكثير من الأزواج، للحظنا أنه كثيراً ما يحصل من قبل أحد الزوجين تفسير رسائل شريك حياته بناء على الخبرات الشخصية المتراكمة لديه، وهذا ما يعطي تشويشاً أو نقصاً في التواصل بينهما، بحيث لا يفهمها الفهم المراد، ومن ثم لا يتصرف وفق توقعات صاحب الرسالة، وهنا كلما زادت مهارات التواصل بينهما كلما أعطت النتائج المرجوة؛ ولذا من الممكن التنبيه إلى أمور ذات أهمية قصوى:

- العمل على تشكيل فاعل للوعي الخاص بالأفكار والمقاصد والمشاعر.
- التأكد من فهم المراد، والتساؤل بأريحية عن النقاط الغامضة، أو ذات التفسيرات المختلفة، أو بغرض الحصول على مزيد من المعلومات.
- تطوير المهارات التي تساعد على التواصل بفعالية وفهم ما يريد المتكلم.
- الحرص على التكريس الذهني من خلال حسن الإصغاء وإظهار التعاطف لتشجيع الطرف الآخر على التعبير بصدق عن أحاسيسه ومشاعره.
- إتاحة الفرصة لشريك الحياة للتعبير بشجاعة عن آرائه ومواقفه.

أظهر مقصدك:

إن الإنسان لا يعلم الغيب، وهو لا يتعامل إلا بما ظهر له من الآخرين ، إما عبر ألفاظهم أو تصرفاتهم، فلا تنتظر منهم أن يفهموك وهم لم يشقّوا عن صدرك!، فكثيرًا ما يحاول الإنسان إيصال أشياء تتخطى مجرد الكلمات التي يقولها.

ولذلك يؤكد كل من الباحثين الدكتور/ ريك برينكمان والدكتور/ ريك كيرشنير في كتابهما (التعامل مع من لا تطيقهم) على أن الرسائل الكلامية المختلطة والمشوشة قد تسبب مشاكل كبيرة في العلاقات، وعندما تشعر أن أحداً لا يفهم قصدك الإيجابي، أو أن قصدك يحتوي ضمناً على غير ما تريده بوضوح، يحدث سوء الفهم، ومن المحتمل أن تنطبق هذه الحالة على المثل القائل بأن الطريق إلى الجحيم معبد بالنوايا الحسنة، ولكي تتجنب سوء الفهم عليك أن تتعلم كيف تبدأ الحديث بنوايا إيجابية.

وفي هذا الصدد يذكر الكتاب قصة عن امرأة طلبت من زوجها بعد جلسة استشارة أسرية الذهاب إلى حديقة للورود لقضاء فترة من الراحة، لكن زوجها بدا غير راغب في ذلك، وهنا خاب أمل الزوجة جداً جراء إجابته السلبية، وحين سألها مستشار الأسرة عن مقصدها من هذا الاقتراح تحديداً، قالت: أحسست بعد الجلسة بتقاربنا قد ازداد عما كان عليه من قبل، وما زال لدينا ساعة من الوقت قبل إحضار الأطفال، وفكرت أن من المستحسن أن نقضي وقتاً ممتعاً معاً، وفجأة انفرجت أسارير الزوج، وقال: هذه فكرة عظيمة!، لكني لا أحبذ الجلوس في الخارج، فالطقس حار جداً ومشوّش، وأنا أعرف مقهى صغيراً وجميلاً على الطريق، فهل هذا معقول؟، فقالت الزوجة: نعم يا عزيزي، هذه فكرة عظيمة.

فهنـا يلحظ أن الذهـاب إلى حديقة الورود لم يكن أمـراً ذا أهمية بالنسبة إلى الزوجة، بل كان اهتمامها يتركز على قضاء وقت ممتع مع زوجها، وكان ذلك هو مقصدها الحقيقي الذي لم ينكشف للزوج !!، ومن السخرية ههنا أن القصد أهم جزء في الكلام، والغاية من براعة الحديث أن تسأل نفسك دوماً هذا السؤال قبـل أن تتكلـم: ما هو هدفي من قول ما أود أن أقوله ؟ مـا هي النتائج التي أرمي إليها؟، وهنا يمكن أن نستنتج أن الإعلان عن النوايا قبل الحديث، يجعل الآخرين يقفون على مرادك بالضبط، ويحول دون حدوث الكثير من سوء التفاهم.

احذر الجرح:

إننا وإن اتفقنا على أن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني، كما تقرر القاعدة الفقهية، إلا أن ذلك يراد به ما يتعلق بالحكم القضائي والفصل بـين الخصوم، وليس معنى ذلك ألا ينتقي الإنسان الألفاظ المناسبة والجميلة، وأن تتـاح له مطلـق الحرية في التلفظ بما شاء من عبـارات مهما كانت قاسية وجارحة ومخيبة للآمال، ما دام أنه لا يقصدها بحرفيتها.

ويعجبني في هذا الصدد المقولة الرائعة: الألفاظ هي الثياب التي ترتديها أفكارنا...فيجب ألا تظهر أفكارنا في ثياب رثّة بالية !! .

وقـد قيل: اخـتر ما تقول، بـدل أن تقول مـا تختار...هذا هـو الفرق بين الحكمة والحماقة !!.

إضاءة:

من الصعوبة بمكان بناء زواج قوي في ظل فقدان التواصل الفاعل المنتظم المتدفق في الاتجاهين.

القاعدة التاسعة

البقاء أيسر من الابتداء

ويعبر عنها الفقهاء أيضا بقولهم: بقاء الشيء أهون من ابتدائه، وفي لفظ: حالة البقاء أسهل من حالة الابتداء، ومرادهم بهذه القاعدة بيان أن الأمور التي يجب توافرها في ابتداء التصرف وبناء الحكم عليها يمكن أن يُتجاوز عن بعضها في حال البقاء والاستمرار، ويُغَضّ الطرف عنها حينئذ، نظراً إلى أن البقاء على أمر من الأمور والاستمرار عليه أيسر من حالة ابتدائه من جديد.

وبناء على هذا يمكن أن يقال: قد يطمح أحد الزوجين في بناء علاقة زوجية جديدة، وهدم العلاقة السابقة، بدون دراسة وافية ووقوف على الإمكانات النفسية والمادية، ظناً منه أن ذلك سيكون سهلاً ويسيراً، لكننا في هذا الصدد نحذره أن البقاء أيسر من الابتداء، وأن بناء علاقة جديدة سيكون أعسر من السعي إلى إصلاح العلاقة السابقة، فالعاقل الحكيم من يعمل على الإصلاح، ويَغُضّ الطرف عن كثير من السلبيات التي يمكن تجاوزها، ويتفهم ظروف الحياة ومتطلباتها.

التجديد وواقعية الزواج:

كثيراً ما يعكر صفو الحياة الزوجية ما جُبلت عليه النفوس البشرية من نقص وملل، ومما طُبعت عليه هذه الحياة من المنغصات والمكدرات، وقد يحنّ أحد الزوجين إلى علاقة جديدة، يستعيد فيها ما افتقده من فورة مشاعر وأحاسيس وقت الخطبة وفي سنوات الزواج الأولى، وقد توصلت دراسة فرنسية حديثة في علم الأعصاب إلى أن الشعور الموفور بالحب بين الأزواج لا يدوم أكثر من ثلاث سنوات، وكأنه بطارية أفرغت من طاقتها تماماً، وأشارت إلى أن الأمور المتعلقة بهذا الشعور، كتسارع دقات القلب وفورة الخيال، ليست سوى أعراض جسدية ونفسية ناتجة عن زيادة إفراز هرمونات بالمخ، وهي تقلّ مع الزمن حتى تصل إلى درجة الفتور.

وثار جدل حول هذه الدراسة ما بين مؤيد ورافض، ويمكن تشبيه هذا الجدل بخلاف ذكره ابن القيم رحمه الله في (روضة المحبين) من أن تواصل المحبين بالمعاشرة الزوجية الحميمية هل يوجب تأكدّ الحب وقوّته به، خصوصاً أن الواقع خلافه، مما يُرى من انطفاء نار المحبة وبرودة حرارتها وسكون نفس المحب، وكَشَف أن الناس مختلفون في هذا، فمنهم من رأى أن الوصال يزيد الحب قوة وثباتاً، ورأت طائفة أنه يفسد العشق ويبطله أو يضعفه، وقد ساق حجج الطرفين في ذلك وشواهدهم من أحوال الناس، فيمكنك الرجوع إليه.

والذي أميل إليه تحريراً للنزاع في المسألة أن نشوة الحب وسكرته تخفّ مع الوقت ولا بدّ، وهو طبع كامن في الإنسان، لكن هذا لا ينافي بقاء الحب واستمراره بين الطرفين، ذلك أن الزواج في حد ذاته تحمل مسؤولية، فلا بد أن

يكـون للواقعية فيه حجم أكبر، ولا بد من قبول الحياة كما هي بحلوها ومرها، بينما تغلب في فترة الخطوبة وسـنوات الزواج الأولى نشوة الحب، خصوصاً في ظلّ قلة المسؤوليات وقتها، ولا أعني أن الزواج يخلو من هذه النشوة مطلقاً، بل تلقـي بظلالها الوارفة بين الحين والآخر، وإنما تغلب عليه الواقعية، وتتضـاءل فيه المثالية، وبالتالي يصـح أن يقال: إن في السـنوات الأولى من الزواج كثيراً من النشـوة وقليلاً مـن الواقعية...لكن في النهاية لابد أن تتسـلل الواقعية إلى حياة المحبين !!.

ولذلـك متى مـا كان الحامل على النشـوة بـين الطرفين مجرد الشـهوة فحسـب، زال كثير من التعلق بمجرد التواصل بينهما، ويعجبني ههنا أن أسوق مـا ذُكـر من أن رجلاً عشـق امرأة، وكانـت في نهاية الحسـن والجمال، وكان يخاطـر بنفسـه ليجتمـع بها، وبلغ به الأمـر أن قال: والله لـو اجتمعت بها، ثم قُدمت فُضـربت عنقي ما باليت، ثم إنه تزوجها، فمضى عليه قليل، ثم طلقها، فمرّ يوماً هو وصـاحب له في بعض الطريق بحمأة منتنة، فقال لصـاحبه:والله إن فلانة اليوم أقبح عندي حالاً من هذه الحمأة !!، والله المستعان !.

✍ ارض بـ (قردك):

هذا جزء من مثل شعبي دارج : (ارض بقردك لا يجيك أقرد منه !).

كثيرا ما تتصـل علي في برنامج هاتفي بعض الزوجات شاكيات متذمرات مـن سـلوك أزواجهـن، وكنـت دائماً مـا أعمد إلى امتصـاص حالة الغضـب والاحتقـان لديهـن، وأسـائلهن ما هـو البديـل في نظركن ! ، هـل تثقين بزوج جديد يكون أفضـل حالاً من زوجك ! ، لماذا تفكريـن في الطلاق الآن وإمكانية

الارتباط بزوج آخر ؟، في ظل قلة الرجال المستعدين للزواج من مطلقة !، أبعد أن وقـع الفأس على الرأس كما يقال !!، أليـس من الأجدر بك أن تتأملي كثيراً في قاعدة:حالة البقاء أسهل من حالة الابتداء؟.

إنـه من الأجدر أن تتنبه الزوجات العفيفات الفاضلات إلى أن ما يذكرنه مـن عيوب في أزواجهن قد تكون عظيمة وصادمة، ونحن لا نخالف في هذا، ولا نماري فيه، لكن الزوج ما دام لم يخلع ربقة الإسلام ولم يرغمها على مشاركته في تلـك النقائص، فالبقاء عليـه ونصحه بالمعروف والدعـاء له خير لها وله، ولـو كان السـؤال عن تلك النقائص قبل الزواج لأمكننـا أن نطلب منها الحذر مـن الاقـتران به، أما وقـد حصل الزواج فـإن قاعدتنا الفقهية تقـرر أننا قد نتجـاوز ونتساهل في بعض الأمور التي كنا سنطالب بها ونشدد عليها في ابتداء التصرف وقبل الدخول في حالة البقاء.

إضاءة:

قيل: تكمن السعادة في بيتك، فلا تبحث عنها في حديقة الغرباء.

القاعدة العاشرة

تأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع

هــذه قاعــدة أصولية فقهية، وقد حُكي اتفاق أهــل العلم عليها، وهي تنبه إلى أنــه لا يجــوز تأخير البيــان في الشريعة عن وقت الحاجــة، وإلا لزم تكليف المكلف بما لا سبيل إلى العلم به، وهو ممتنع.

وفي الحيــاة الزوجية التي شأنها شأن أي علاقة إنسانية طويلة المدى لا بد أن تكون قائمة على البيان من الطرفين وروح التفاهم والشراكة الواعية ودفء المشاعــر والحوار الفاعــل، فكثيراً ما يحتــاج الزوجان من بعضهمــا المساندة بالكلمــات الساحرة المشجعة التي تفتح الآفاق في الحياة وتنير الدروب، وتبعث الأمــل المشرق في النفوس، فهنــا لا بد من البيان الصــادق المثمر، أما تأخير البيان عن وقت الحاجة من قبل أحد الزوجين فأمر يُفقد الحياة بينهما الكثير من طعمها ولذتها، والكثير من أُنسها ورونقها ومعناها.

مرض الخرس الزوجي:

هذه ظاهرة مرضية خطيرة، تضاف إلى قائمة المشاكل التي تعتري الحياة الزوجية وتهدد كيانها بالانهيار، وقد أطلق عليها علماء الاجتماع وخبراء الصحة النفسية اسم (مرض الخرس الزوجي)، أو (الطلاق النفسي).

وتتلخص هذه الظاهرة بغياب لغة التخاطب وانتفاء التواصل الفعال داخل عش الزوجية، فتسود لغة الصمت بين الزوجين، ويتخذ كل منهما حيزاً خاصاً به يحتجب من خلاله عن الآخر، ومتى ما سادت لغة الصمت فهو مؤشر خطير على سيطرة لغة الموت البطيء للمشاعر وذوبان الأحاسيس، ما يجعل الحياة الزوجية أكثر خطورة وتعقيداً.

وتثبت الدراسات والحقائق أن المرأة تتمتع بحسّ ظاهر إلى المشاركة في الحديث بدرجة تفوق الرجل، إذ هي عبارة عن كتلة متنقلة من المشاعر والأحاسيس، فكلامها عن المشاكل مع شخص يشاركها الحياة ويصغي إليها بانتباه وتفرغ فيه مخزونها يعدّ مسألة حيوية بالنسبة لها، فإذا لم تروّح عن نفسها معه فإن غضبها يتفاقم، وقد تصبّه في النهاية عليه هو! ؛ لا باعتباره منبع العقبات التي واجهتها، بل لأنه نأى بنفسه أن يكون البحر الذي يمكن أن تدفن فيه ما ألمّ بها من مشاعر وأحاسيس.

إنني أهمس في أذن الرجل الحصيف بأنه متى ما كفّت زوجتك عن الإفصاح لك بكل ما يزعجها، فلا تفرح وتهلل طرباً بتخلصك منها فيما تحسب، بل في الحقيقة عليك أن تقلق حينئذ؛ لأن ثمة ما يقلقها قطعاً، فهي متى ما توقفت عن اطلاعك على كل ما يعتمل في نفسها، فليس لأنها ترغب في

إراحتك، بل لأنها لم تعد ترى فيك ملجأ لها، ولا ملاذاً آمناً يمكنها أن تفرغ فيه بعض الضغوط التي تتعرض لها بين الحين والآخر.

ولذلك يحذر الخبيـر كارينجي من أنك متى ما أردت أن يتجنبك الناس- طبعـا علـى رأسهم شريـك الحيـاة - فإليك هـذه الوصفة: لا تصغـي طويلاً إليـه، ولا تشاركه الحديث، وإن كان لديك فكـرة تريد أن تذكرها أثناء حديث الشخصـ الآخر، لا تنتظر ريثما ينتهي، فـذكاؤه لا يعادل ذكاءك !، فلم تضيع الوقـت بالاستمـاع إلى ثرثرته السخيفة!، قاطعه فـوراً، واعترضه في منتصف الطريق !!.

✍ درس عملي:

يـروي أحد المدربين درساً عمليـاً قامت بها إحدى الزوجات الحكيمات في محاولة منها لتنبيه زوجها حيال خرسه الزوجي وعدم إصغائه لها، فبعد عشر سنـوات من تقصـير الزوج في حواره مـع زوجته، قامت تلـك الزوجة بإعطاء زوجهـا شريـط تسجيـل، من أجـل أن يستمع لـه في السيارة، فأخـذ الشريط ووضعـه في المسجل... لكنه انتظر وانتظـر ولم يبدأ الشريط في عرض محتواه، فقـدم الشريط قليلاً لعله يبدأ، فلم تحصـل أي استجابة، وبعدها اتصل على زوجتـه يخبرها أن الشريط فارغ!، فأخبرته أن ينتظر، فانتظر... ولكن ما زال ذلـك الشريـط صامتاً دون جـدوى، وعندما وصل إلى عمله اتصـل بها ليؤكد كـون ذلك الشريط فارغاً، فأخبرته أن يقلبه عند العودة وسوف يستمع، فقلبه عنـد عودته ولم يحصل شيء !، فاستفزّه ذلك جـداً، وحينما وصل المنزل كان غاضباً من تصرفها حياله، فسكنت غضبه بحكمتها، وقالت: زوجي العزيز...

لقد ضقت ذرعاً تجاه شريط صامت لنصف ساعة فقط!!، بينما زوجتك قد صبرت عليك عشر سنوات وأنت صامت!، ففهم حينها الزوج الرسالة، واعتذر منها، وأصلح شأنه معها.

طلقات في جسد حواء:

ليس هناك ما هو أجمل عند حواء من التواصل مع شريك الحياة وشعورها أنه يسمعها ويشاركها ويتأثر بكلامها، وقتها تنطلق مشاعرها الحبيسة وعواطفها الجياشة، أما إذا ما تحطمت جدران التواصل، وتكاثرت الحواجز والسدود، وتثاقلت الكلمات في فم الزوج، فإن ذلك سيفضي إلى تراكم الهوة النفسية بين الزوجين، وتفاقم الإحساس بالفتور والملل، ونشوء الكراهية الصامتة بين الطرفين، فيتحول عشّ الزوجية إلى ما هو أشبه بصحراء قاحلة تسود فيها الكآبة، وإذا لم يلتفت الزوج إلى إسعاف موقفه ومعالجة الخلل، فإن النتيجة جفاف عاطفي وتباعد وجداني.

وفي بيت النبوة الكريم نجد المثال الرائع على التحدث بين الزوجين، وحسن إنصات الزوج لزوجه، من نبي مرسل وقائد ملهم، لم يمنعه حمل همّ الرسالة وتحمل مسؤولية أمة بأسْرها من أن يكون خير مؤنس لأهل بيته، ولعل أبرز ما يشهد لذلك حديث أم زرع، الذي تضمن قصة حكتها عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ، وكان حديثاً طويلاً ذا شعب، ومع ذلك لم يمنعه مقامه أن يستمع إلى زوجه بكل إنصات، وأن يتفاعل مع تفاصيل كلامها، ويطرح تعليقاته المناسبة التي تعمل على التودد إليها، حيث قال لها في آخر المطاف: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع، غير أنه طلقها، وأنا لا أطلقك**».

أزمة عالمية:

لقد أضحت ظاهرة صمت الأزواج شبه عالمية، ففي تقرير لمجلة (بونته) الألمانية كشفت الإحصائيات أن تسعاً من كل عشر سيدات يعانين من صمت الأزواج، كما تشير الأرقام إلى أن ٧٩٪ من حالات الانفصال تكون بسبب معاناة المرأة من انعدام المشاعر، وعدم تعبير الزوج عن عواطفه لها، وعدم وجود حوار يربط بينهما.

وحتى لا أُتهم بمتابعة ما عند غيرنا وإسقاطه على مجتمعاتنا، ففي دراسة أخرى لباحث اجتماعي بالرياض أكد فيها: أن أهم أسباب الطلاق المبكر تعود إلى عدم النضج، وعدم التفاهم، وصمت الزوج، وأشار أيضاً إلى أن مشكلة انطواء الأزواج وصمتهم في المنزل أصبحت من القضايا التي تُخصّص لها نقاشات مفردة في الندوات العالمية، وذلك لما لها من تأثير سلبي في نفسية الزوجة والحياة الزوجية.

وفي شكوى من إحدى الزوجات نجدها تقول بحرقة وأسى: كان إحساسي بالملل يتفاقم يوماً بعد يوم، أعترف أن زوجي شخص جيد وهادئ ولكنه تقليدي، ساد الصمت حياتنا الزوجية، وحاولت جاهدة أن أطلب منه أن يحتويني ويشعرني بكياني، أخفق وأخفقت حياتنا، والآن نعيش حالة ملل صامتة، ولا أعلم ما هي النهاية، ولكن لا تسألوني عن بذل مزيد من المحاولات لتجديد الحياة الزوجية؛ لأن الخلاصة هي أن من يبذل هذه المساعي لتجديد الحياة الزوجية هما زوجان يرغبان معاً في الاستمرار بسعادة، وليس طرفاً دون آخر، وليس الاستمرار لمجرد الاستمرار!!.

وتقـول أخـرى: زوجي دائم الصمت، عينه مثبتـة في صحيفته، يحملق في التليفزيـون بانتبـاه شديد كأن الحرب العالميـة الثالثة اندلعـت، وكأنني لست موجودة، ويتكلم باقتضاب شديد !.

وقـد كشف خبـير المشكلات الزوجيـة د.كارل جيك أن شكـوى المرأة من صمت الرجـل وانعدام الحوار هو نتيجة مترتبة على تغير التوقعات في العلاقة الزوجيـة؛ فقبـل جيل أو جيلين كانـت المرأة تشعر بالرضـا في زواجها إذا وفّر الـزوج دخلاً معقـولاً ولم يُسئ معاملتهـا أو لم يُدخل في حياتهـا امرأة أخرى، والمسألـة تختلـف اليوم، فتوقعـات السعادة غير محـددة، وملخصها أنه ما لم تسعدني وترضِني من جميع الجوانب فإنك تكون شريكاً سيئاً وفاشلاً !.

✍ خطوات في سبيل الحل:

التركيـز الواعـي لما يقول شريـك الحياة والإنصات العميـق والاستماع الجيـد إليـه ومشاركتـه الحديث، كلّ ذلـك يعدّ سحـراً أبيض يعمـل مفعوله الجميل، وإليك بعض الوصايا التي وضعها أحد الخبراء:

- احرص عند الاستماع على قراءة ما خلف الكلمات، وفهم موقف المتحدث ولغة الجسد التي يبديها، وتقمّص اللهجة العاطفية التي ترسمها كلماته.
- حـدّد إذا مـا كان الحديث عـن حقائق أو عـن انطباعات أو عـن مشاعر شخصية.
- استثر شريك الحيـاة لكي يتحدث عن نفسه وما يهمه، وقم بتوجيه أسئلة مفتوحـة إليه: كيف يمكن أن نقـوم بذلك...ما رأيـك بكذا...كيف تشعر تجاه هـذه المسألة...مـاذا لو...ماذا تنصح بالقيام به لفعـل ذلك...ما

الطريقــة التي تفضلها أنــت، وهكذا من العبــارات التشجيعية التي توحي بالتفاعل والمشاركة.

- اجعــل مــن وجهك وعينيــك رسائــل تظهــر حســن الاهتمــام والإعجاب والدهشــة، فالاستمــاع الصادق قــد يكون هو كل ما يحتــاج إليه المتحدث منك.
- راقــب لغة الجســد لديك حتى لا تخسر حماس الطــرف الآخر، فالجلوس باسترخــاء، أو إسنــاد الذقــن على اليــد، أو كــثرة الحركــة والتململ، أو النظــر إلى الساعــة، أو التثاؤب، كلها علامات محبطــة له عن الاستمرار في الحديث.

إضاءة:

علمتنــا تجــارب الحياة أن الكثير مــن التوتر بين الزوجين قــد يكون نتاج كلمات فشل أحد الزوجين في إيصالها في وقتها المناسب إلى الطرف الآخر.

القاعدة الحادية عشرة

التابع تابع

هــذه قاعدة فقهية كليــة، والمراد بها أن مــا كان مرتبطاً بغـيره وتابعاً له حقيقــة أو حكماً فإنه لا ينفك حكمه عن حكــم متبوعه، عملاً بتبعيته، ويندرج تحتهــا قول بعض الفقهاء: التابع لا يتقدم علــى المتبوع، وقولهم: التابع لا يفرد بالحكم.

ومســيرة الحيــاة الزوجية لا بد لها من قيادة تديــر دفتها، وتعمل جاهدة على توجيههــا وصيانتها ورعايتها، وتتحمل المشــاق والأعباء من أجلها، وذلك أمــر كلفت بــه الشريعة الإسلامية الرجــل، وجعلته المســؤول الأول عن الأسرة وشؤونها، فكانت الزوجة تابعة ومطيعة له بالمعروف، والتابع تابع.

قوامة قيادة ومسؤولية:

الأسـرة بطبيعتهـا مجتمـع صغير، وأي مجتمـع لا يمكـن صـلاح أموره وانضباطها بلا قائد، ذلك أن الفوضى ستكون سمته البارزة، كما لا يمكن من جهة أخرى وجود أكثر من قائد ومدبّر، فذلك يعني استمرار النزاع والصراع، وقـد جعل الإسلام قيادة الأسـرة بيد الأكفأ والأقدر على تدبـير شؤونها، وهو الرجـل الذي تتوافق خصائصه ومؤهلاته مع طبيعة المهمة الملقاة على عاتقه، فقال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٣٤).

وبذلك أضحى الرجل المسؤول الأول عن كيان الأسرة، وقوامته فيها قوامة تكليف والتزامات وتبعـات، لا مجرد رفعة وتشريف، ولا تسلط وتعنت واستعباد واستقواء، وفي تفسير الآية السابقة نجد الإمام الشوكاني رحمه الله يقول: إنّهم يقومون بالذبّ (أي الدفع والمنع) عنهن، كما تقوم الحكام والأمراء بالذبّ عن الرعية، وهم أيضاً يقومون بما يحتجن إليه من النفقة والكسوة والمسكن، وجاء بصيغة المبالغـة في قوله ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ ليدل على أصالتهم في هذا الأمر.

وممـا يروقني نقله هنا مـا ذكره بعض الحكماء من أن المرأة لم تخلق من رأس الرجل لئلا تتعالى عليه، ولم تخلق من قدمه لئلا يحتقرهـا، بل خلقت من ضلعه، لتكون تحت جناحه...يحنو عليها ويهتم بها.

قوامة تقيّد الرجل و تحرر المرأة:

إن قوامـة الرجـل على المـرأة في حقيقتها حقٌّ مقابل تكليـف والتزام من قبله، وهي وظيفة داخل كيان الأسرة لتولي زمام القيادة فيها وإدارة مؤسستها وتعاهدهـا وحمايتها، وذلك من جهـة أخرى يتضمن تشريفـاً للمرأة وتكريماً

لها، بجعلها تحت قيّم يرعى أحوالها وشؤونها وينظر في مصالحها، ويبذل كافة الأسباب التي تكفل سعادتها وراحتها وطمأنينتها.

ولذلك تذكر الدكتورة/ فاطمة نصيف في كتابها (الأسرة المسلمة في زمن العولمة) أن الرجل أجدر برعاية الأسرة وإدارتها والقيام بشؤونها، ذلك أنّ علماء الإدارة يقولون: الرئيس رجل، وهذه الإدارة ليست رئاسة تسلط أو تجبر أو انتقاص، وإنّما هي إدارة إشراف ومتابعة، ثم إنّ تحميل المرأة مسؤولية نفقتها على نفسها، وتحميلها تأمين دخل لها، يشكل قيداً قاسياً عليها، يأخذ من طاقتها وجهدها، ويأخذ من وقتها وعمرها، كما أنّ حرمانها من الحماية يحرمها من الأمن، وحرمانها من الأمن ينشئ عليها قيوداً من الخوف والقلق وعدم الاستقرار.

إن شريعة الإسلام لما قررت قوامة الرجل في بيته، لم تنس من جهة أخرى التأكيد على أن وظيفة المرأة القيام على شؤون المنزل من تنظيم وترتيب ورعاية وتربية أولاد، كما قال النبي ﷺ: «**والمرأة راعية على بيت زوجها وولده**»، وهذه مسؤولية وقيادة أيضاً في حدود خصائصها وقدراتها.

ولو تأملنا حال نساء الغرب بإنصاف لرأينا تأسف الحصيفات منهن على فقد وظيفة المرأة الأساسية، واشتغالها بكسب القوت والعمل خارج المنزل، الذي طالما كبدها أعظم الأعباء والمشاق، ولعل أبرز شاهد على ذلك ما ذكرته الروائية أجاثا كريستي بقولها: إن المرأة مغفلة؛ لأن مركزها في المجتمع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم؛ لأننا بذلنا الجهد الكبير للحصول على حق العمل والمساواة مع الرجل، ومن المحزن أننا أثبتنا- نحن النساء- أننا الجنس اللطيف الضعيف، ثم نعود لنتساوى اليوم في الجهد والعرق اللذين كانا من نصيب الرجل وحده.

كما قالت قرينة الرئيس الأمريكي ايزنهاور: إن وظيفة زوجة هي أجمل ما تمنحه الحياة للمرأة من وظائف.

وكتبت الممثلة الشهيرة مارلين مونرو قبيل انتحارها نصيحة مؤثرة لفتاة أرادت أن تلتحق بالتمثيل: احذري المجد، احذري من يخدعك بالأضواء، إني أتعس امرأة على هذه الأرض، لم أستطع أن أكون أُمّا، إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة، وهذه الحياة العائلية رمز سعادة المرأة بل الإنسانية.

قوامة حماية و احتواء :

تؤكد الدراسات النفسية أن المرأة بفطرتها تبذل وسعها من أجل لفت انتباه الرجل إليها بكونها موضع رعاية له، كما أنها تستمتع بالرجل الذي يفرض إرادته بقوة شخصيته – وليس بالقهر والعنف-، وتتفانى في إسعاده وخدمته، وتشعر معه بأنوثتها وبالأمان.

كما خلصت أكثر من دراسة حديثة إلى أن النساء يفضلن الرجال الذين يبدون فخورين وأقوياء، وأن من الرجال الذين لا تستطيع المرأة أن تقاومهم وتضعف أمامهم لتعلن حبها وتملكه على قلبها: الرجل القيادي المسيطر على الوضع، صاحب النفوذ والشخصية القوية...الشخصية الرجولية المتكاملة... القادرة على مواجهة التحديات وشقّ طريق الحياة، والقادرة في الوقت نفسه على الحب والبذل والتضحية والحنان.

ولذلك فإن قوامة الرجل في أسرته يعدّ نوعاً من الرعاية والحماية الذي تحتاجه المرأة، وتشعر معه بالأمان والسعادة والاستقرار الأسري، حيث تجد فيه ظلالاً وارفة تقيها لهيب الحياة، وملاذاً آمناً من تقلّبات الزمن، وهذا ما يؤكده

الباحث الدكتور أوجست فوريل بقوله: يؤثّر شعور المرأة بأنها في حاجة إلى حماية زوجها على العواطف المشعّة من الحبّ فيها تأثيراً كبيراً ، ولا يمكن للمرأة أن تعرف السعادة إلاّ إذا شعرت باحترام زوجها، وإلاّ إذا عاملته بشيء من التمجيد والإكرام، ويجب - أيضاً- أن ترى فيه مثَلَها الأعلى في ناحية من النواحي.

كما تؤيد ذلك أيضا الكاتبة الألمانيّة إسترفيلار – التي تمتاز كتاباتها بالتحليلات النفسية المعمقة للعلاقة بين الرجل والمرأة - حينما تقرر هذه الحقيقة على ألسنة النساء، فتقول: المعروف في النساء قولهنّ إنّ الرجل الذي أبتغيه هو ذاك الذي باستطاعته أن يكون قادراً على حمايتي، وهو لن يقدر على ذلك إلاّ إذا كان أطول قامة، وأقوى بنية، وأشدّ ذكاء منّي...إنّ الرجل الذي أبتغيه هو ذاك الذي أستظلّ بقامته، وأرفع عيني لمشاهدة وجهه.

ويقول الدكتور نور الدين العتر: لا يمكن أن تؤدّي سيادة المرأة إلى السعادة المنزليّة؛ لأنّ في ذلك مخالفة للحالة الطبيعية، التي تقضي أن يسود الرجل المرأة بعقله وذكائه وإرادته، لتسود هي بقلبها وعاطفتها.

ولا ينتهي العجب من قوم يقفون ضد القوامة بمعناها التكليفي الواعي، ويحملون شعارات براقة، ويرددن المساواة الجوفاء والدعوة إلى الندّية من غير وقوف على ملابساتها ونتائجها، على أن القانون الفرنسي ذاته يقرر في مادتين منه – كما ذكر عالم الاجتماع الدكتور علي عبد الواحد وافي- أن الزوج يجب عليه صيانة زوجته، وأن يقدّم لها كل ما هو ضروري لحاجات الحياة، في حدود مقدرته وحالته، وأن المرأة في مقابل ذلك ملزمة بطاعة زوجها، وأن تسكن معه حيث يسكن، وتنتقل معه إلى أي مكان يرى صلاحيته لإقامتها !!.

من وحي الحكم والأمثال:

أخيراً أودّ أن أضع بين يدي كل زوج وزوجة مقولات وحكم وأمثال رائعة في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، علّها تنير الدروب، وتخاطب القلوب، وتفتح الآفاق:

- الزوجة الذكية هي التي تستعبد الرجل بخضوعها له.
- المرأة صنفان: صنف يصنع للرجل بيتاً، وآخر أعظم...يصنع للبيت رجلاً.
- تقبلي أن تكوني ظلّاً للرجل، أو كوني متمردة...واصنعي حياتك بنفسك.
- رجل دون امرأة حصان بلا لجام، وامرأة دون رجل سفينة بلا دفة (مثل إيطالي).
- المرأة ظلُّ الرجل، عليها أن تتبعه لا أن تقوده (برنادشو).
- البيت الذي تمارس فيه الدجاجة عمل الديك يصير الى الخراب (مثل صيني).
- الذي يدع امرأته تحكمه، لا هو رجل ولا هو امرأة، إنه لا شيء (نابليون).
- إن الضعفاء هم الذين يعرفون كيف يستغلون ضعفَهم ليكونوا أقوياء... وهذا هو سرُّ النساء...وكذا الدول النامية.
- عندما تبدو المرأةُ أمامَك ضعيفة فهي في أوج قوتِها.
- قد يكون استسلامُ المرأة لغلبة الرجل عليها باعثاً من أكبر بواعث سرورها.
- المرأةُ المطيعةُ لزوجها: تملكُ عقلَه ودمه وحياته.
- المرأةُ تعرف جيداً أنها كلما أطاعت الرجلَ جيداً تأكّد حُكمُها.

إضاءة:

عندما تعمل المرأة جاهدة على إزاحة زوجها عن دفة القيادة، فلا بد أن تكون حينئذ على استعداد تام لتتحمل وحدها تبعات كافة المسؤوليات المناطة بالقائد ومساعده !!.

القاعدة الثانية عشرة

الثابت ثابت

هــذه القاعدة الفقهية يُـراد بها تقرير أن ما كان ثابتــاً ومستقراً فالأصل بقــاؤه ودوامه علــى حالــه، ولا ينبغي أن يسقطه ويخــلّ بثباته وجود أمر طارئ عليه.

وهكــذا الشــأن في الحياة الزوجية التي تتطلب كثير من مواقفها الثبات مــن الطرفــين على المبادئ والقيــم التي يؤمنان بها، فهــذا الثبات في حدّ ذاته لياقة إيجابية في عصر كثيراً ما تعصف به المتغيرات.

مبادئ راسخة:

كلما قوي إيمانك بقيمك وجدتَ ثباتك على المبادئ أشدّ، وتشبثك بقيمك أهمّ، ولما كانت الحياة الزوجية مشروع حياة كاملة، كان من الصعوبة أن تنجح هذه العلاقة ما لم تتوفر مجموعة من المبادئ التي تنبني عليها :

- زوجان من مبادئهما : الالتزام بالمؤسسة الزوجية، والعمل على الحفاظ على عشها أمام كل الأعاصير التي قد تعصف به.
- زوجان من مبادئهما : الواقعية، فالحياة الزوجية ليست مجرد أحلام ونزهات في حدائق غناء، بقدر ماهي مسؤوليات وحقوق وواجبات.
- زوجان من مبادئهما : العمل على تحقيق الأفضل، بلا كلل أو ملل، والفهم العميق لما يسعد كلا منهما.
- زوجان من مبادئهما : الحرص على بقاء مقومات الحياة الزوجية الناجحة من مودة وتفاهم واحترام متبادل.
- زوجان من مبادئهما : تقبل شريك الحياة، وإغضاء الطرف عن العيوب، وعدم الإسراف في التوقعات الحالمة.

ثبات في وجه التحديات:

الحياة الزوجية لا تخلو من مدّ وجزر، ومتى سعى الإنسان إلى أن يعيش وفق مبادئه وقيمه، وأراد إلى جانب ذلك تحقيق كامل مصالحه إلى الحد الأقصى، فإنه بذلك يعمل على ما هو أشبه بالمستحيل من حيث لا يشعر!!؛ ذلك أن مواجهة عقبات الحياة وتحدياتها تدفعه في كثير من الأحيان إلى أن يضحي بشيء من أحدهما حتى يستقيم له أمر الآخر، وقد أثبتت المبادئ عبر

التاريخ أنها قادرة على الانتصار المرة تلو الأخرى، وأن الإيمان بالمبادئ طريق تطوير الذات، وأنه متى تم التنازل عنها خسر الإنسان ذاته، وإذا خسر ذاته فلا يمكن أن يقال عنه إنه كسب بعد ذلك أي شيء.

إن الالتزام بالمبادئ حجر الأساس المكون لأي شخصية ثابتة، والحجر المتصدع لا يمكن أن يثبت عليه بنيان، وإذا رأيت العواصف مقبلة باتجاهك، فاعمد إلى العضّ على مبادئك وقيمك بالنواجذ، واثبت عليها ثبوت الرواسي، وتذكر مقولة تيمورلنك: إن النملة علمتني الثبات، وذلك عندما رأى نملة تحمل ما يفوق وزنها وتعمل على تسلق جدارٍ المرة تلو الأخرى، لا تتزحزح عن هدفها ومبتغاها، إلى أن نجحت بعد نيف وعشرين محاولة !.

وقد تبتلى فتاة صالحة بالزواج من رجل لا يميل إلى التدين كثيراً أو ممن يضعف أمام الفتن والمغريات، فيعمل جاهداً أن يثنيها عن شيء من ثوابت دينها وقيمها، مجاراة للعصر ومتطلباته، وقد تضطر إلى السفر معه إلى بلاد عهر ومجون، فتأبى إلا الالتزام بحشمتها وحجابها، غير آبهة بالغمزات والنظرات، ولا تتردد أن تصارحه: عفوا زوجي وقرة عيني، ديني ومبادئي وقيمي لا مجال للمساومة عليها والأخذ والرد، فهذه خطوط حمراء لا أسمح لنفسي بتجاوزها، ذلك أنها على يقين بأن التنازل عن المبادئ خسران للذات قبل كل شيء.

وقد قيل: كن حامل حقيقة لا تهاب الآخرين، فحامل الحقيقة لا يخشى إلا الله، وكن حراً في أفكارك وتوجيهاتك، واعمل بما تقول، ولا تكن عبداً إلا لخالقك.

ولعلي أكحل العيون وأشنف الأسماع بقصة رائعة ذكرها أحد الدعاة،

حيث كان في رحلة دعوية إلى إحدى البلدان مع فريق طبي، ولما أقاموا مخيماً لعلاج أمراض العيون تقدم إلى الطبيب شيخ كبير ومعه امرأته في تردد وارتباك، فأراد الطبيب أن يقترب مها لرؤية عينيها، فإذا هي تبكي وترتجف، فظن أنها تتألم من المرض، فسأل زوجها، فقال - وهو يغالب دموعه -: إنها لا تبكي من الألم...بل تبكي لأنها ستضطر إلى كشف وجهها لرجل أجنبي...وما قبلت العلاج إلا بعد أن أقسمتُ لها أن الله تعالى أباح لها ذلك، ولما أجريت لها العملية بنجاح، قالت لزوجها: إني قادرة على الصبر على العمى، ولكني عالجتُ لأمرين فقط هما : قراءة القران الكريم والاعتناء بك وأبنائي!.

كن كالسفينة الراسية:

يعجبني ههنا ما قاله الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: ألا ما أشبه الإنسان في الحياة بالسفينة في أمواج هذا البحر!، إن ارتفعت السفينة أو انخفضت أو مالت، فليس ذلك منها وحدها، بل ما حولها، ولن تستطيع هذه السفينة أن تملك من قانون ما حولها شيئاً، ولكن قانونها هي الثبات والتوازن والاهتداء إلى قصدها، ونجاتها في قانونها، فلا يعْتِبَنَّ الإنسان على الدنيا وأحكامها، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه.

إضاءة:

قد يكون من العسير عليك الثبات على مبادئك...لكن ثق أنه دوماً جدير بالجهد، وحينما تلتزم ذلك ستجني ثماراً يانعة.

القاعدة الثالثة عشرة

الحادث يضاف إلى أقرب أوقاته

هذه قاعدة فقهية معقولة المعنى، ذلك أن الأصل في كل حادث أضافته إلى سبب، فمتى وجد أمر طارئ، وأمكن أن يكون سببه عائداً إلى وقت قريب أو بعيد، فإن وقته المعتبر هو الوقت القريب، ومن ألفاظ القاعدة أيضاً: الأصل في كل حادث تقديره بأقرب زمن، وأيضاً: إنما يحال بالحادث على أقرب الأوقات.

وفي الحياة الزوجية متى ما لاحظ أحد الزوجين تغيراً من شريك الحياة تجاهه، فإن القاعدة ترشده أن يبادر أولاً إلى نسبة ذلك إلى أقرب سبب أو تقصير أو خطأ حصل منه، بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في نسبته إلى أسباب بعيدة.

لكل فعل ردة فعل:

الإنسان في هذه الحياة لا يخلو من الحرث والهمّ، أي: العمل والإرادة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتصرفاته إما خير أو شر، سواء كانت تجاه أوامر الخالق عز وجل ونواهيه، أو تجاه خلقه وعباده.

فأما تصرفات الإنسان مع شريعة الخالق: فمتى كنتَ على هدي دين خالقك سعدتَ في الدنيا قبل الآخرة، ومتى عصيتَ ربك وأوقعتَ نفسك في وحل الآثام والمعاصي، ولوثت حياتك بدنسها، فلا تنتظر أن تكون بمنأى عن مغبتها وآثارها السيئة، ومتى رأيتَ تعسر أمورك وتغير من حولك تجاهك، فالأصل إضافة ذلك التغيّر إلى أقرب حادث، وهو ما حصل من تقصيرك وجنايتك في حق دينك، وهذا ديدن صاحب القلب الحي، كما قال ذلك العالم الجليل: إني لأجد أثر معصيتي في خُلق دابتي وزوجتي، فانظر كيف أحال بنور قلبه ما يحصل من مشاكل زوجه إلى أقرب سبب، وهو عصيانه لربه تعالى، وهذا ما يحمل في طياته البحث الحقيقي عن سبب المشاكل الزوجية والعلاج الناجع لها، بدلاً من الضياع في متاهات الأسباب البعيدة.

وفي (صيد الخاطر) لابن الجوزي رحمه الله أن رجلاً شكا إليه ما يجده من بغضٍ تجاه تصرفات زوجه، وأنه لا يكاد يسلم من فلتات لسانه في الشكوى!!، فذكر له الشيخ أن هذا لا ينفعه، وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، وأنه ينبغي أن يخلو بنفسه، فيعلم أنها إنما سُلِّطت عليه بسبب ذنوبه ومعاصيه، فيبالغ في الاعتذار والتوبة، فأما الضجر والأذى لها فليس بذي نفع، كما قال بعض السلف: عقوبة من الله لكم، فلا تقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار، وجاء عن آخر أن رجلاً شتمه، فوضع خده على الأرض، وقال: اللهم اغفر لي الذنب الذي سلّطت هذا به عليّ.

ومن جهة أخرى فإن الحياة الزوجية بطبيعتها تتضمن مجموعة من التصرفات الصادرة من كلا الزوجين، وهذه التصرفات سواء كانت حسنة أو سيئة سوف تحدث أثراً في الطرف الآخر، فلكل فعل ردة فعل، كما هو ثابت في الفيزياء، وعلى نسق ذلك يقول علماء النفس: لكل مثير استجابة تتناسب معه كماً وكيفاً، وهناك مسافة تفصل بين المثير والاستجابة، حيث يحدث فيها تفاعل عناصر متعددة، تحدد طريقة الاستجابة أو شكل ردّ الفعل تجاه المثير، فمتى أحسن أحد الزوجين إلى الآخر لمس ذلك مباشرة في مشاعره وتصرفاته، ومتى أساء فسوف يجد مغبة إساءته، وحينها لا بد من المبادرة الصادقة إلى إصلاح ما خلّفته الأخطاء والهفوات، وإلا فإن الحوادث ستتوالى تباعاً، ولا تسأل حينها من أين أتت، ذلك أنها بطبيعتها تضاف إلى أقرب أوقاتها التي تسببت فيها.

بادر وانتظر النتيجة فقط :

كثيرا ما يشتكي بعض الأزواج من أمور تزعجه من قبل شريك الحياة، ويظلّ يبكي على أطلال حياته ويندب حظه، من غير أن يحرك ساكناً.

إن إصلاح الحياة الزوجية لن يقع من السماء فجأة، بل هو أمر مرتبط بتصرفات غالباً ما تبقى ساكنة في داخل النفس وأعماق الفؤاد، وشعور الإنسان بأهميتها يقوم بدور الموقظ لها من حالة السبات، وإذا لم تواتيه الظروف فهو بحاجة إلى ممارسة الإيقاظ الفاعل لذلك الشعور، بالتعوّد على إظهاره، وبالتكلّف في ترديده، كما هو شأن الصفات الفاضلة في النفس الإنسانية، إن لم تظهر بنفسها، فعليه أن يتكلّفها ويتمرن عليها.

ومتى تصرف الإنسان وفق ذلك بصدق وفعالية، فسرعان ما سينعكس إشعاعه إيجاباً على حياته، ولا تسأل حينها عن مدى راحته وهنائه وسروره، وإذا لمستَ حينها تحسّن تصرفات شريك الحياة تجاهك فأضفه إلى ما حصل منك أنت...فهو أقرب حادث !!.

يحكى أن زوجة أتت حكيماً تظنه ساحرا، وطلبت منه أن يعمل لها من السحر ما يجلب حب زوجها، فقال لها: إنك تطلبين أمراً عظيماً، ولا يمكنكِ ذلك إلا بإحضار شعرة من رقبة الأسد، لأعمل منها السحر، وهنا بلعت الزوجة ريقها، وقالت: وأنى لي الحصول على شعرة من أسد مفترس !، ابحث لي عن طريقة أيسر وأكثر أمناً، فذكر لها الحكيم أن الأمر متوقف على ذلك ولا بد، ومتى كنتِ مهتمة لحياتك الزوجية فستجدين طريقة مناسبة لتحقيق الهدف.

وبالفعل ذهبت المرأة وهي تفكر في كيفية الحصول على تلك الشعرة المطلوبة، فاستشارت من تثق بحكمته، فقال لها: إن الأسد لا يفترس إلا إذا جاع، وعليها أن تشبعه، فأخذت بالنصيحة وذهبت إلى الغابة، وبدأت ترمي للأسد قطع اللحم وتبتعد، واستمرت في إلقاء اللحم إلى أن ألفت الأسد وألفها مع الوقت، وفي كل مرة كانت تقترب منه قليلاً، إلى أن جاء اليوم الذي تمدد الأسد بجانبها، فوضعت يدها على رأسه، وأخذت تمسح بها على شعره ورقبته بكل حنان، وبينما الأسد في هذا الاستمتاع والاسترخاء لم يكن من الصعب أن تسحب المرأة الشعرة بكل هدوء، وما إن أحست بتملك الشعرة حتى أسرعت نحو الحكيم، لتعطيه إياها والفرحة تملأها، بأنها ستكون الملاك الذي سيتربع على قلب زوجها إلى الأبد.

فلما رأى الحكيم الشعرة سألها: ماذا فعلت حتى استطعت أن تحصلي على هذه الشعرة؟، فشرحت له خطة ترويض الأسد وصبرها إلى أن حان وقت قطف الثمرة، وهنا قال لها الحكيم: يا أمة الله، زوجك لن يكون أكثر شراسة من الأسد، افعلي مع زوجك مثل ما فعلتِ مع الأسد تملكيه !.

إضاءة:

الاعتراف بنتائج الأخطاء وآثارها على مسيرة الحياة يعدّ أول خطوة صحيحة في طريق نجاح العلاقات.

القاعدة الرابعة عشرة

للحالة من الدلالة كما للمقالة

هـذه القاعـدة الفقهيـة تفيـد أن لغـير اللفظ من علامـات أو أحـوال أو ملابسـات تحيـط بالإنسان إفادة كما هـو الشأن في إفـادة الألفاظ، وقد عبّر عنها بعض الفقهاء بقولهم: دلالة الحال تغني عن اللفظ.

وهـذا ما يمكـن الاستفادة منـه في الحيـاة الزوجية، فكثـيراً ما يحصل التواصـل بين الزوجين بغير الألفـاظ، مما يختص بالإنسان من أموره المتغيرة في نفسـه وجسمه وصفاته، وما يحيط بألفاظه وأفعاله من صفات معهودة لـه، أو عـادات، أو مقاصد، أو هيئات وتصرفات، فـلا بد من ملاحظة هذه الأمور وأخذها في الحسبان، ومعرفة أن لها دلالة وإفادة تبلغ الطرف الآخر، وتؤثر في الرسالة التي وصلت إليه.

ما وراء الكلمات:

يميل خبراء مهارات الاتصال والعلاقات الإنسانية إلى الكشف عن أن الكثير من التواصل بين الناس يحدث عبر الأفعال والتصرفات، وليس عبر الألفاظ والكلمات، وهو أمر تفطن إليه علماء المسلمين قديماً، خصوصاً أهل التقعيد الفقهي والأصولي منهم، وعلى سبيل المثال نجد العالم الفذّ أبا بكر الباقلاني رحمه الله -وهو ممكن عاش في القرن الرابع الهجري- يقول: وقد يقع العلم بمراد المتكلم ضرورة عند أحوال وأسباب تظهر في وجهة وحركاته وإشارته ورمزه وإيمائه، ليست من الكلام والأصوات في شيء، وهكذا نرى إمام الحرمين الجويني رحمه الله يقرر أن هذه الأحوال قد تكون ضرباً من الرموز والإشارات، واختلاجاً في محاجر العينين والحاجبين، وقد تكون حالاً من الأحوال، وأيضاً يكشف حجة الإسلام الغزالي رحمه الله أن أحوال الإنسان في تصريفاته، وإشاراته، وهيئة وجهه في الفرح والكراهية، يجوز أن تكون معرِّفة جارية في إفادة التعريف مجرى القول.

إن هذا الأمر يكشف لنا بوضوح إدراك أهل العلم أن للحالة أثراً ظاهراً في الدلالة على مراد المتكلم أو الفاعل، فالألفاظ والأفعال لا يمكن أن تفهم فهماً سليماً إذا أُخذت بمعزل عما يكتنفها من الأحوال العامة المؤثرة؛ نظراً إلى أنها إنما تأتي بعد أسباب، ويحيط بها عادات ومقاصد عامة تؤثر في دلالتها تأثيراً ظاهراً، ويختلّ الفهم عند صرف النظر عنها.

وفي بيت النبوة الطاهر مَثَل واضح على ملاحظة الرسائل غير اللفظية التي يبعثها أحد الزوجين إلى الآخر، حيث نلحظ أن عائشة رضي الله عنها كانت تعمد أحياناً إلى إرسال إشارات غير مباشرة إلى زوجها النبي ﷺ لتلفت

نظـره إلى تضايقها من أمر أو غضبها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسـول الله ﷺ: «**إني لأعلـم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبى، قالـت: فقلـت: من أيـن تعرف ذلـك؟ فقال: أمـا إذا كنت عنـي راضية فإنك تقولـين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم، قالت: قلت أجل والله يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك**».

فنلحظ في هذا الحديث أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت تلفت نظـر النبي ﷺ إلى عتبهـا أو غضبها، بعدولها أثناء الحلف عن لفظ إلى آخر يشابهـه، والمؤدى لا يختلف، وقد لحظ النبي ﷺ منها ذلك، وراعى مشاعرها ورضاها وغضبها، وقد جاء في شرح الحديث أن حصر الهجر في الاسم فقط، يعـدّ غاية اللطـف في الجواب؛ لأنها أخـبرت أنها متى كانـت في غاية الغضب الذي يسلب العاقل اختياره لا يغيّرها ذلك عن كمال المحبة المستغرقة ظاهرها وباطنهـا، الممتزجة بروحها، وإنما عبرت عن الـترك بالهجران؛ لتدلّ به على أنها تتألم من هذا الترك الذي لا اختيار فيه.

وقد قيل:

إني لأمـنـحـك الـصـدود وإنـنـي
قـسـمـاً إلـيـك مـع الـصـدود أمـيـل

✍ نغمة الصوت:

يعتقـد كثـير مـن النـاس أن التركيز علـى الكلمـات والعبـارات المؤثرة، والحرص على ترتيبها وفق نظام محدد يكفي في التواصل مع الآخرين، والواقع أن الدراسات المتخصصة تخبره بوضوح أنه بذلك قد تحصّل على نسبة ضئيلة من عملية الاتصـال، إذ تؤكد تلك الدراسات على أن تأثير الكلمات والعبارات

على الآخرين يمثل ٧٪ فحسب، بينما تأخذ نبرات الصوت ٣٨٪ من التأثير، وتعبيرات الجسم الأخرى ٥٥٪ من التأثير !.

وبناء عليه فمتى ما أراد الزوجان تواصلاً أفضل، وحرصا على تفهّم أعمق لما يريده كل طرف، فإنه ينبغي الالتفات إلى نبرات الصوت وما تحملها من دلالات وإيماءات، فهي تقدم فرصة كبيرة من أجل تطوير العلاقات والسير بها في اتجاه أفضل.

وقد دعا الباحثان / د. ريك برينكمان و د.ريك كيرشنير في كتابهما (التعامل مع من لا تطيقهم) إلى أهمية مراقبة نغمة الصوت أثناء التخاطب، فالرسائل المختلطة الناتجة عن نغمات الصوت غير المتفقة مع الكلمات المستخدمة تخلق مشاكل كبيرة في التواصل والعلاقات، وعند استلام رسالة مشوشة يتأثر الناس بالنغمة ويتجاهلون حرفية الكلام، ولذلك فإن من السخرية أن الناس يحاولون إلغاء عواطفهم من أجل تجنب النزاع عبر توجيه كلماتهم نحو الوجهة التي يرغبون أن تسير الأحداث باتجاهها، لكن عواطفهم تتسرب من خلال نغمة الصوت، والمستمع يتجاهل الكلمات ويتجاوب مع نغماتها، لذا على المتكلم أن يلفت النظر ويوضح ما تعنيه نغمة صوته ، كأن يقول: آسف إن كان حديثي متسرعاً، ذلك لأني...، أو يقول: أعرف أني كنت غاضباً، لكن ذلك بسبب أهمية المسألة بالنسبة لي...، ونحو ذلك من العبارات التوضيحية.

إضاءة:

قال عثمان رضي الله عنه: ما أسرّ أحد سريرة إلا أظهرها الله عز وجل على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

القاعدة الخامسة عشرة

الحالّ لا يتأجل

هــذه القاعدة الفقهية يذكرهــا الفقهاء في أبواب العقود، فالأصل في ثمن المبيـع في العقد أنــه حالّ عاجل ولا يقبل التأجيل، بـل يجب دفعه بمجرد تسلم المبيع أو بتمام العقد.

وفي الحياة الزوجية هناك أمور من شأنها الحلول دوماً، فلا تقبل التأجيل والتسويـف والتأخير، الذي قد يفضي إلى إلحـاق أشدّ الضرر بأحد الزوجين، سواء كان ذلك الضرر مادياً أو معنوياً.

صراع مع الآن:

إن الصراع الحقيقي للإنسان يحتدم مع الآن، فهو وقت اتخاذ القرار، إن تنفيذك لأي عمل يفتقر دوماً إلى ثلاث ركائز: أنت، وذات العمل، والوقت... فأنت ما زلت على قيد الحياة سالماً معافى... والعمل بين يديك، ينتظر إشارة منك... ينتظر قرارك، وإن أمكنك تأجيل العمل، فلا مجال بحال من الأحوال لتأخير الوقت وتأجيله، وهذا ما سيتمخض عنه انتصارك أو تراجعك وهزيمتك، فالآن وقت تملكه... وما بعده من الأوقات في علم الغيب... قد لا تدركه... وقد تدركه فلا تملكه..

قال الحسن البصري رحمه الله: إياك والتسويف، فإنك بيومك، ولست بغَدِك، فإن يكن غدٌ لك، فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غدٌ: لم تندم على ما فرّطت في اليوم.

إياك وسوف !:

إن إشباع الحاجات الأساسية سواء المادية منها أو المعنوية لطرفي العلاقة الزوجية أمر ضروري مؤكد، لا يقبل التأجيل بحال، والتسويف فيها داء خطير يعمل على تأخير وتأجيل تلك الأعمال الضرورية والمهام الملحة إلى موعد لاحق، وربما أفضى إلى إهمال القيام بها كلياً.

إن هناك أموراً ملحة قد تطرأ على حياة الزوجين، كذهاب إلى موعد طبي أو زيارة ضرورية أو شراء مستلزمات عيد ودراسة ونحو ذلك، فهذه الأمور متى ما حلّ وقتها، لا يمكن التأجيل فيها والتأخير، بل ذلك يعمل في الحقيقة على إحداث انحراف عن المخططات المحددة سلفاً وتراكمها، أو فشل

تـام لفاعليـة إدارة الوقت في الحياة الزوجية، الأمـر الذي يترتب عليه عواقب مادية ومعنوية جسيمة، من انهيار جدار الثقة بـين الزوجين، وإعطاء انطباع بعـدم الاحترام والتقدير، وتضاؤل دافع الإيجابية في الإنجاز للأعمال المقابلة عنـد الطرف المتضرر، وتوقفه عن المشاركة والمبادرة، فما دمت تسوّف فسوف أسوّف أيضاً، جزاء وفاقاً، كمـا يعكس أيضاً صورة لعدم الإحساس بالمسؤولية أو تحمّلها.

يقـول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من القوة ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد.

ومـن كلمات الشاعر الإنجليزي روبرت لويـس: كل إنسان يستطيع القيام بعمله مهما كان شاقـاً في يوم واحد...وكل إنسان يستطيع العيش بسعادة حتى تغيب الشمس...وهذا ما تعنيه الحياة.

ويقـول الأديب الفرنسي جان دي لابرويـير: إن الذين يضيّعون وقتهم هم السبّاقون إلى التذمر من قصر الوقت.

لا مجال للتأجيل !:

لا يمكـن أن نجادل في أن الهدف الرئيس مـن الزواج تلبية نداء الفطرة، وإرواء عطش المشاعر الملتهبة، وكلنا كبشر نحتاج إلى إشباع الأحاسيس بالحب والتقديـر والإعجـاب، وهذه الحاجات متى مـا تمّ إهمالهـا أو تأجيل إشباعها تفضي إلى إحباط وتوتـر حاد قد يسبب كثيراً من الآلام النفسية والانتكاسات العاطفية والانفعالات العصبية.

إن هـذه المشاعـر والعواطف تعـدّ أنهـاراً متدفقة بالحيـاة تغسل الهموم

والاضطرابات الوجدانية، وتجرف في طريقها كافة التراكمات المؤذية والشوائب العالقة في النفوس، فالرجل دوما يرى في زوجته معيناً متجدداً ونبعاً فياضاً بالحياة والحنان والحب، والمرأة في المقابل ترى في زوجها ظلالاً وارفة من العواطف الجياشة والمشاعر المتأججة، وأيّ إخلال بهذه المعادلة سوف يعمل قطعاً على إرباك الحياة الزوجية الهانئة، ويخلق مناخاً مناسباً لخطر الانحراف والضياع، خصوصاً في ظلّ تتابع الفتن والمغريات في هذا العصر.

ومن هذا الباب نجد الشريعة الإسلامية قد وقفت موقفاً صارماً تجاه أي تأجيل أو تهاون في هذا الأمر، وكشفت بكل جلاء أن مِن واجبات العشرة المؤكدة بين الزوجين تلبية كل منهما لرغبات الآخر الغريزية، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلتجب، وإن كانت على ظهر قَتَب**»، وقد قال ابن الأثير رحمه الله: القَتَب للجَمل كالإِكاف لغيره، ومعناه الحثُّ لهن على مطاوعة أزواجِهن، وأنه لا يَسعُهُنّ الامتناع في هذه الحال، فكيف في غيرها !.

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: «**إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته، وإن كانت على التنور**»، أي: حتى وإن كانت منشغلة بإعداد الطعام، ولا شك أن هذه صورة بليغة لحالٍ قد ترى المرأة فيه صعوبة ترك عملها من أجل تلبية حاجة زوجها.

ومما يعجب له في حسن فطنة النساء ومعرفتهن بالرجال: ما جاء عن عائشة بنت طلحة التيمية رحمها الله - وكانت أجمل نساء زمانها وأرأسهن، وهي بنت أخت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - أنها كانت في منزلها

ذات يوم، فقيل لها: قد جاء زوجك، ودخل مخدعه، فقضى حاجته منها، وجاءت بالعجائب له، ثم خرج، فقالت لها امرأة: أنتِ في نفسكِ وموضعكِ وشرفكِ تفعلين هذا ! ، فقالت: إنا نتشهى لهذه الفحول بكل ما حرّكها وكل ما قدرنا عليه.

ومن جهة أخرى فإن هذا الأمر لا يقتصر على الزوجة فقط، بل يجب على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف، وأن يلبي أيضاً حاجتها، وإنما جاءت الأحاديث موجهة إلى المرأة باعتبار الغلبة؛ حيث يغلب صدور الامتناع والتعلل بالأشغال من المرأة، ولهذا جاء في الأثر أن امرأة أتت إلى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة اللّه عز وجل، فقال لها: نِعْم الزوج زوجك، فجعلت تكرر هذا القول، ويكرر عليها الجواب، فقال له كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه، فقال عمر: كما فهمت كلامها، فاقضِ بينهما، فأُحضر زوجها، فاعترف بذلك وأنه أشغله قيام الليل عن زوجه، فقال له كعب: إن اللّه عز وجل قد أحلّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك، ولها يوم وليلة، فقال عمر: واللّه ما أدري من أي أمْرَيك أعجب؛ أَمِن فهمك أمرهما أم من حكمك بينهما !.

وأخيراً أودّ أن أهمس في أذن كل زوجة حصيفة قد تتردد أو تتشاغل أو تتكاسل عن تلبية رغبات زوجها الحميمية بما ذكرته الكاتبة كارول بوتين في كتابها المشهور (رجال ليس بوسعهم أن يكونوا مخلصين) من ضرورة جعل

العلاقـة الحميمية مفعمة بالحيوية، ذلـك أن الأزواج يعلقون أهمية كبرى على هذه العلاقة، فإذا ما وجد زوجك القناعة في هذه الناحية...فمن غير المحتمل أن يبحث عن امرأة أخرى !.

إضاءة:

الخطـورة في تأجيل قضايا الحياة الزوجية الملحة أن التنفيذ قد يأتي بعد فوات الأوان...وحينها لاتَ ساعة مَنْدَم !!.

القاعدة السادسة عشرة

الحكم على الشيء فرع عن تصوره

هذه قاعدة فقهية معقولة غزيرة المعنى، وجاءت بصيغة: الحكم على الشيء فرعُ تصوره، تقرر أن أحكام الإنسان على الأشخاص والمواقف والتصرفات ينبغي أن يسبقها تصور صحيح تجاه حقيقتها وكنهها، وبقدر صحة ذلك التصور تصح الأحكام أو تقرب إلى الصواب، وبقدر القصور أو الخطأ فيها تحصل أخطاء الأحكام وحيفها.

إن الحياة الزوجية لا تخلو بطبيعتها من مواقف وتصرفات متعددة صادرة من قبل شريكي الحياة، وهما جنسان وعالمان مختلفان، ولا تصح المبادرة إلى إطلاق الأحكام تجاهها قبل فهم دوافعها واستيعابها بدرجة تمكن من أخذ فكرة متكاملة عنها، حتى نضمن مطابقتها لما تحمله تلك التصرفات من المعاني والمقاصد.

عالمان مختلفان:

إن من يتأمل واقع الحياة الزوجية لدى كثير من الناس يكتشف أن الأزواج يظنـون بأن الحب والعاطفة الجياشة التي بينهـم في مستهل حياتهم الزوجية ستستمر إلى الأبد، ولكن مع مرور الوقت وتجدد الأحداث والوقائع التي تحتاج إلى قرارات تبدأ ظهور المشاكل بين الزوجين، واختلاف وجهات النظر والمواقف حيالهـا، وههنـا قد تصل الأمور إلى حدّ المفاصلـة، نتيجة عدم فهم كل منهما للآخـر، وأن هناك فروقاً نفسية عاطفية بينهمـا جديرة بالاهتمام والملاحظة أكثر عمقاً من مجرد الفروق الجسدية، وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦).

وكثـير من الأزواج قـد يعترفون نظرياً بوجود فروق بـين الجنسين، إلا أن المعرفـة وحدها غير كافية، بل يجـب العمل على تفهم هذه الفروق ومراعاتها، حتـى ترفرف السعادة أرجاء حياتهما، كمـا أن طبيعة هذه الفروق قد لا تكون عميقـة وواضحـة لديهم بالقدر الـكافي لتجاوز العقبات التـي تعترض مسيرة الحياة الزوجية، بينما يعمل الفهم العميق والواعي على تفهم مواقف الأطراف، وزيادة القدرة على التعايش، وإدارة الحياة الزوجية بشكل أفضل وأكثر كفاءة.

وإذا كانـت قاعدتنا (الحكـم على الشيء فرع عن تصـوره) تقرر أن من متطلبـات إصدار الأحكام على الأشياء والتصرفات كونها مسكونة بانطباعات صحيحة ورؤى مناسبـة ومعرفة حقيقية ابتداءً، فإن الإشكال كثيراً ما يحصل مـن الإخـلال بها على مستوى التطبيـق والممارسة، فنجـد في الحياة الزوجية انتظـار كل طـرف من الآخر ردّ فعل معين يتناسب مـع طبيعته وعالمه، ثم يأتي

التصرف بخلاف توقعاته وما كان ينشده، فالرجل يتوقع خطأ أن تفكر زوجته وتتواصل معه وتستجيب بالأسلوب الذي ينهجه الرجال، والمرأة تنتظر من زوجها أن يشعر بها ويتواصل معها ويستجيب لندائها بالأسلوب الذي تنهجه النساء، ويتناسى الطرفان في زحمة الحياة ومشاغلها وتحت ضغط الوقائع والأحداث اختلاف العالمين الذي ينتمي إليه كل منهما، ونتيجة لذلك تمتلأ العلاقة الزوجية باحتكاكات وصراعات لا داعي لها أساساً!.

شهادات حية:

لقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦)، فعالم الذكر يختلف عن عالم الأنثى، ولو تتبعنا الأبحاث العلمية والطبية لوجدنا أنها تكشف لنا كل فترة عن فروق جديدة بين هذين العالمين، ما بين دراسات تكشف عبر الصور والأشعة الفروق الشاسعة في بنيةِ الدماغ وعمله بين الجنسين، ودراسات توضِّح تأثير الهرمونات المختلفة التي تعمل على إحداث التباين في وظائف التفكير والمشاعر لدى كل منهما.

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ المودودي رحمه الله: هذا علم الأحياء، قد أثبتت بحوثه وتحقيقاته أن المرأة تختلف عن الرجل في كل شيء من الصورة والسمت، والأعضاء الخارجية، إلى ذرات الجسم والجواهر الهيولينية (البروتينية) لخلاياه النسيجية، فمن لدن حصول التكوين الجنسي في الجنين يرتقي التركيب في الصنفين في صورة مختلفة.

وهنا شهادة من أحد مفكري الغرب ومنظريه، حيث يقول كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة

عـن اختلاف الأعضاء الجنسية، وعن وجـود الرحم والحمل، أو عن اختلاف في طريقة التربية، وإنما تنشأ عن سبب جد عميق، هو تأثير العضوية بكاملها بالمواد الكيماويـة، ومفـرزات الغـدد التناسلية...والحقيقـة أن المرأة مختلفـة اختلافاً عميقـاً عن الرجل، فـكل خُجَيرة في جسمها تحمل طابـع جنسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية، ولا سيما الجهاز العصبي، وإن القوانين العضوية (الفيزيولوجيـة) كقوانين العالم الفلكي، ولا سبيل إلى خرقها، ومن المستحيل أن نستبدل بها الرغبات الإنسانية، ونحن مضطرون لقبولها كما هي في النسـاء.

ولـو أخذنا علـى سبيل المثال اختـلاف بنية الدماغ وعملـه بين الجنسين، لوجدنـا أن العلماء في القرن الحـادي والعشرين قد توصلـوا إلى مدى الخطأ والوهـم الذي حصل من الكتب والأبحاث التي كانـت تقرر في السبعينيات من القـرن الماضي تماثل الدمـاغ لدى الجنسين، ذلك أن الأبحـاث الجديدة التي تمـت بواسطة أجهـزة المسح بالرنـين المغناطيسـي الوظيفي كشفـت بصورة واضحة عن اختلافات جذرية بين دماغ الجنسين.

وفي دراسـة حديثة قـام مجموعة من الباحثـين بملاحظة حالات مختلفة للدماغ البشري عند التفكير والغضب والحزن وغيرها من الانفعالات النفسية، واكتشفوا أن الدماغ لدى الجنسين يعمل بطريقة مختلفة، ثم أردوا أن يكتشفوا إن كان ثمـة تشابـه في عمـل الخلايـا بينهما أثنـاء الراحة وعـدم القيام بأي تفكـير، والعجب أن النتائج كانت غريبة وغـير متوقعة بحسب كلام الباحثين، حيـث وجدوا أن دمـاغ المرأة يتصرف بشكل مختلف عـن دماغ الرجل حتى في هذه الحالة !!، حيث أظهر التصوير بالرنين المغناطيسي أن النشاط في مناطق

دماغ الرجل يختلف عن دماغ المرأة بشكل واضح.! وقال أحد الباحثين: العجيب أن تصميم دماغ الرجل ودماغ المرأة جاء كل منهما متناغماً مع العمل الذي سيقوم به، فتصميم دماغ المرأة جاء مناسباً لتحمل الألم واجهادات الولادة أكثر من الرجل، حيث إن دماغ الرجل لا يوجد فيه مثل هذه الميزة.

عالم الأفعال:

في هذا العالم تجد كائناً حياً يمجد دوماً القوة والكفاءة والفاعلية والإنجاز، ويتجه إلى الأعمال ذات الجهد والبذل والطاقة لإثبات ذاته وتطوير مهاراته، ولا تعجب إن رأيته متابعاً القنوات الإخبارية، وغارقاً خلف التحليلات السياسية وكأن بيده تحرير العالم، بينما هو في الواقع عاجز عن حل كثير من مشاكل منزله، ومتابعة شؤون عائلته !.

وهنا كثيراً ما تخطئ حواء، حينما تغفل الفوارق بينها كأنثى وبين زوجها كذكر، فتفترض جدلاً أنه إن كان يحبها ويقدرها فسوف يسلك طريقتها وينهج على منوالها، والإشكال أن هذا الافتراض يعمل على تكريس خيبات أمل متكررة لديها، ويضع الحواجز الكثيرة بينهما، لذا فإن من اللازم ابتداء التعرف على معالم الفروق بينها وبين شريك الحياة لتلافى كثير من العقبات والمشكلات ولخلق جو من التفاهم المتبادل الذي يثمر حياة زوجية هادئة وسعيدة.

ويذكر خبراء العلوم الإنسانية والنفسية - وعلى رأسهم الطبيب النفسي الشهير جون غراي - معالم وملامح عن نظرة الرجل إلى نفسه والحياة وتعامله مع مواقفها، يمكن الوقوف على أبرزها من خلال الآتي:

- لما كان الرجل يميل بطبعه إلى القوة والكفاءة والفاعلية والإنجاز، فإنه يتسم بنوع كبرياء يجعله في الغالب يواجه بشدة كافة محاولات التصحيح

من قبل زوجه أو إخباره ماذا عليه أن يفعل، فهو يحب أن ينظر إليه باعتباره حـلّال المشاكل والمُلمّ بكافة التفاصيل، وهـو حساس تجاه هذا الأمر، وقد ينفعـل في وجه زوجه بشكل مفاجئ حين توجه لـه اقتراحاً في وقت لا يراه مناسباً؛ لأن مسألة المقدرة مهمة جداً بالنسبة إليه.

- الرجل يميـل إلى تقديم الحلول والبرهنة على المشاعـر، فهو بصورة آلية يضـع قبعة الخبير ويستمع إلى زوجه، ثم يبادر إلى تقديم درر من النصح علـى طبق من ذهب، وهذا هـو أسلوبه في إظهار حبه ومحاولته المساعدة، حيث يفهـم بطبيعته الرجولية أن الحديث عن العقبـات والمشكلات يعني الدعـوة إلى تقديم الحلـول المناسبة، فعندما تبوح المـرأة ببراءة بمشاعر الضيـق، يفترض خطأ أنهـا تبحث عن حلول...وهو يريـد مساعدتها وأن يكـون ذا نفع بالنسبـة إليها، لكن ليس لديه فكرة عن أنه بمجرد استماعه بتعاطف واهتمام يمكنه أن يكون نافعاً جداً، ولذا فمن المهم بالنسبة للمرأة حينمـا ينتابها أمر أو تلمّ بها قضيــة، أن تكشف لزوجها أنها لا تبحث عن حلول بقدر رغبتها في الاستماع إليها وإحاطتها بالحب والرعاية وتقدير ما تقوم به من جهد في الحياة الزوجية.

- الرجـل عندما يواجـه مشكلة أو مواقف وقضايا بصـدد حلها ومعالجتها، فإنــه ينظر إلى نفســه باعتباره حل المشكلـة وليس المشكلـة ذاتها، ويميل بطبعه إلى الانعـزال بنفسه والتفكير بهدوء في مخرج مناسب...ولا يحبذ في الأصـل إشـراك الآخريـن، كما أنـه يحرص علـى لملمة أمـوره بنفسه ومـداواة جروحـه في عزله، محاولاً إخفاء آثارها مـن أجل حماية رجولته وكبريائـه، وههنا أهمس في أذن حواء بأن الرجل في مثل هذه الحالة ليس

محتاجاً إلى العطف والمواساة، كما هو معهود في عالم النساء، بل الوصول به إلى هذه المرحلة قد يحمله على الدخول في مزاج كئيب أكثر، نظراً إلى أن ذلك يعد دليلاً على أن حزنه وكآبته وضعفه باتت ظاهرة بوضوح تام للآخرين، وتذكري بأن هذا الإنسان متى ما جُرح فإن آخر شيء يفكر فيه هو استعمال القطن، لذلك كوني قريبة منه ودعيه يخرج من أزمته لوحده.

- يحب الرجل القيام بالعمل والعطاء عندما يشعر أن هناك من يحتاج إليه، ويقدر في سبيل ذلك الحب الذي يعبر عن تقدير جهوده وما يقدمه من تضحيات.
- يحتاج الرجل إلى الحب الذي يحمل معه الثقة به وقبوله كما هو، ويميل إلى التصرف دوماً وكأنه على حق.

عالم العواطف:

عالم النساء يبدو عالماً غريباً يصعب فهمه ويتسم بالتعقيد بالنسبة إلى الرجال، فالمرأة قد تتلفظ بأمور بينما تقصد أشياء أخرى، وقد تطلب ابتعاد الرجل عنها في الوقت الذي ترغب فيه أن يكون معها.

وههنا معالم وملامح عن نظرة المرأة إلى الحياة وتعاملها مع مواقفها يذكرها خبراء العلوم الإنسانية والنفسية، يمكن الوقوف على أبرزها من خلال الآتي:

- تقدّر المرأة الحب والعواطف والجمال والعلاقات، وتقضي وقتاً طويلاً في مساندة ومساعدة الأخريات، ففكرتها عن نفسها تتحدد عن طريق مشاعرها وعلاقاتها، وتشعر بالإشباع من خلال المشاركة والتواصل.
- التواصل له أهمية بالغة في عالم المرأة، لذلك يكتسب البوح بمشاعرها أهمية تفوق تحقيق الأهداف والنجاح، والحديث والتواصل مع الآخرين

يعتبر مصدراً هائلاً للإشباع.

- تميل المـرأة إلى التعبير عن مشاعرها بمختلف صيـغ التفضيل والتعميم، بينمـا يستعمل الرجل اللغة كوسيلـة لنقل حقائق ومعلومات فحسب، ومتى فهـم الرجل فحوى الرسالة التي تريـد زوجته إيصالها إليه فإنه سيجادل أقل، وسيستجيب بطريقة أكثر فعالية وإيجابية.
- تتفاخـر المرأة بمراعـاة حاجات الآخرين ومشاعرهـم، وهي لا تنظر إلى احتيـاج المساعدة باعتباره علامة ضعف، وهذا مـا لا يفهمه الرجل الذي يجد نوعاً من الضيق أو الحرج حين تقدم له المرأة النصح والمساعدة، لأن ذلـك يشعره بأنها لا تثق في قدرته على القيام به بنفسه، بينما المرأة ليس لديهـا أي تصـور عن حساسية الرجل هذه، حيث مـن المفخرة عندها إذا هبّ أحد إلى مساعدتها، الذي يدل على كونها محبوبة ومعززة.
- تؤمن المرأة بعمق بأن الأمر مهما كان يسير بصورة حسنة فبالإمكان دوماً جعل سـيره أفضل؛ إذ من طبيعتها الرغبة في تحسـين الأشياء وتجميلها، لذلـك لا تتحرج مطلقاً عـن تقديم النصح والاقتراحـات، التي تعد دليلاً على الاهتمام والرعاية.

إضاءة:

الإنسان أكثر تعقيداً مـن الآلة...وأنت لا يمكنك شراء جهاز الكتروني... بلا قراءة لكيفية تشغيله وطرق العناية به...ثم تشتكي من كفاءة عمله !!!..

القاعدة السابعة عشرة

الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً

المراد بهذه القاعدة الفقهية الأصولية أن أي حكم لا بد أن يثبت بعلة وسبب، فمتى ما وُجِدت هذه العلة ثبت الحكم المترتب عليها، ومتى زالت زال الحكم بزوالها وانتهى بانتهائها، ويعبر عن ذلك بالاطراد والانعكاس.

وقال الناظم في هذا:

وكل حكم فلعلةٍ تبِع

إنْ وجدت يوجد وإلا يمتنع

وبناء على هذا فإننا على يقين بأن المشاكل الزوجية لا بد لها من أسباب دفعت إليها، ينبغي للزوجين أن يتفطنا لها، ويعملا على تلافيها؛ إذ الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، أما نسبة هذه المشاكل ابتداء إلى أمور خفية من عين وسحر، والمبالغة في ذلك، فهو تهرب في حد ذاته من المسؤولية وتبعاتها.

فوبيا العين والسحر:

لا يمكـن أن ندعي مطلقا إنكار العين أو السحر، فهما حقيقتان ثابتتان في الكتاب والسنة، بل لا يكاد يوجد مجتمع لا يؤمن بهما، وإن اختلفت مسمياتهما، وطـرق اعتقاد الناس بهما، أو تجنبهـم سهامهما المؤذية، ولكننا نلحظ مؤخراً مبالغة ظاهرة في المجتمعات الإسلامية تنحى إلى نسبة كل حدث أو عارض إلى العين والسحر، حتى بات الكثير يعانون من فوبيا العين أكثر من العين نفسها!!.

وهكـذا انتقلت هـذه الظاهرة إلى العلاقات الزوجيـة، فأضحى كثير من الأزواج يعمـد مباشـرة إلى نسبـة مشاكلهـم ومعاناتهـم إلى العـين والسحر، وهـذا إفراط في تطبيق مفهوم العـين والسحر، وتأثيرهما على مختلف مناحي الحيـاة الاجتماعية والنفسية، وهـو أمر يحمل في طياته اتجاهـاً نحو التهرب عـن الواقع، والجنـوح إلى الاستسلام، والفهم السقيـم للأسباب والمشكلات، والقعود والتكريس لثقافة الكسل وضعف الإحساس بالمسؤولية تجاه التصرفات والأخطاء، مما يفاقم من تعقيد المشاكل واستفحالها.

ولو تأملنا قليلاً في سيرة النبي ﷺ لوجدناه يدعو دوماً إلى البدء بالبحث عـن أساس المشكلـة، ومن ثم العمل علـى حلها، بعيداً عن التوهـم والتخرّص فيمـا لا طائل وراءه، فقد جاء رسول الله ﷺ ذات يوم بيت ابنته فاطمة رضي الله عنهـا فلم يجد علياً رضي الله عنه، فقـال: «**أين ابن عمك؟**» فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فسأل عنه، فقيل له: هو في المسجد راقد، فجاءه وهـو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقّـه، فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحـه عنه، ويقول: «**قم يا أبا تـراب، قم يا أبا تراب**»، حتى أصلح

بينهمـا، ونسـي علي رضي الله عنـه المشكلة بهذه اللمسـات الحانية والكلمات الرقيقـة التـي انسابت من فم الرسول ﷺ، حتى جـاء عنه أنه ما كان له اسم أحب إليه من أبي تراب، وكان يفرح إذا دعي به.

وكذلك جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بنسائكم في الجنة، كل ودود ولـود عؤود على زوجها، التي إذا آذت أو أوذيت، جاءت حتى تأخذ بيد زوجها، ثم تقول: والله لا أذوق غمضاً حتى ترضى**»...فهذا هو الحل الناجع لكثير من لمشاكل الزوجية، بأن تبذل الزوجة من نفسها، وتتنازل لزوجها وقرة عينها، بدلاً من الدوران في حلقة مفرغة بحثاً عن عين أو سحر !!.

وهـذا التنازل ليس نقصاً ولا عيباً ولا تقليلاً مـن شأن المتنازل، بل هو في حقيقتـه قوة إرادة ورباطة جأش وحكمة وروية، تجعل الإنسان يتنازل عن شيء يسـير في مقابل الوصول إلى برّ الأمان وتحقيـق نتائج إيجابية أعظم؛ ذلك أن العنـاد والتصلب في الرأي كثيراً ما يعمل على خنق الأسرة وتدميرها، واعتقاد تحقيـق الانتصارات الزائفة مع شريك الحيـاة، والتي في الحقيقة لا مكان لها إلا في عقل صاحبها !!.

والعجـب أن كثيراً ممن يدّعي العـين لا يحمل مؤهلات تدفع الآخرين إلى إصابتـه بالعين، وقـد يكون الحامل على توهـم العين جلب الانتبـاه والافتخار المبطـن؛ إذ النـاس متعارفـون علـى أن كل ذي نعمة محسـود، فالزوجة بهذه الطريقـة ترغب أحياناً إيصال رسالة إلى الآخريـن مفادها أني زوجة مثابرة حريصـة على بيتـي، لكن العين لم تتركنـي في حالي!!، وقد يصـدق في أمثال هـؤلاء ما قاله الأديـب جوته: إن الدجاجـة حينما تقول قيق..قيـق، وتريد أن تبيض، تظن أنها سوف تبيض قمراً سيّاراً !!.

شماعة الفشل:

لعل المشكلة في كثرة ادعاء العين والسحر تكمن في أن كثيراً ممن رأى رواج قضايا العين والسحر في المجتمع، قد أعجبته الفكرة واستحسنها، فأصبح يُسقط عن قصد كل إخفاقاته عليهما، من فشل وتقصير وإهمال وضعف ولا مبالاة وعقد نفسية، وهذا جنوح إلى مجرد انتكاسات وإسقاطات نفسية وتهرب من استحقاقات الفشل الذي مُني به في حياته، فبدلاً من نسبة التقصير إلى ذاته والخلل في تصرفاته، تهرب من ذلك إلى مثل هذا الادعاء، علّه يخفف شيئاً من وطأة الفشل والإحباط.

وفي الحقيقة لا يعدو هذا التصرف كونه تهرباً من المسؤولية تجاه الوصول إلى اكتشاف حالته وعلّته وشكواه، والإنسان حينما لا يملك شجاعة كافية في مواجهة أخطائه ومشكلاته يحيلها بكل يسر وسهولة إلى سبب خارجي خفي غير محسوس، حتى يسلم من وصمه بمعرة الفشل والإخفاق ويكتسب التعاطف الاجتماعي المنشود.

إن مثل هذا الادعاء على سهولته ويسره على النفوس يعمل بخفاء على تسويغ الفشل والإخفاق في الحياة الزوجية بمسوغ مقبول عند الناس، وإلقاء اللوم على من تسبب بالعين أو السحر، وتزكية النفس من الأسباب الحقيقية للإخفاق، ومن جهة أخرى فإن المبالغة في الخوف من العين أو السحر تحمل تأثيراً سلبياً خطيراً، فهي تحصر العقول في مجال محدود ودائرة ضيقة من الحلول، فلا تتحرى حينئذ الأسباب الفعلية للمشكلة، مما يعمل على إهمال علاج المشكلة الرئيسة، التي قد تستفحل وتزداد يوماً بعد آخر، ويصعب حينها

العـلاج، كمـا أن هـذه المبالغة من جهة ثالثـة تفضي إلى مشـكلات اجتماعية وخلافات داخـل الأسر والأقارب والأصدقاء، وذلك لمـا يترتب على الاتهامات المتبادلة من بغضاء ومشاحنات.

وأخـيراً أودّ أن أبـين ههنـا أن الفشل والإخفاق في بعض جوانب الحياة الزوجيـة في حـدّ ذاته ليس وصمة عار، بل الخطأ في إنـكار ذلك وعدم السعي إلى إصـلاح ما ترتب عليـه، فالفشل جوهر النجاح وروحه، ولن تجد ناجحاً في الحيـاة لم يسقط يوماً، والفشل إصلاح لمنحنى الحياة ولبنة في صرح النجاح، حيـث يبدو الإنسان بعده أكثر وعيـاً في المحطات القادمة من حياته، وما أجمل أن يجعل الإنسان شعاره عبارة رائعة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه حيث يقول: العبرة بكمال النهايات...لا بنقص البدايات.

هاجس لا يطاق:

في قصة حقيقية دُعي أحد الرقاة في منتصف الليل من قبل والد قد فجع بولـده، حيث وصل الابن إلى البيت متأخراً وهـو يهذي كمن به مسّ، وهنا جُنّ جنـون الأم المكلومة: لقد سحر ابني العزيز أو أصابته عين!، وأصرت على أبيه بجلب الراقـي في أسرع وقت قبل فوات الأوان، وحضر الشيخ وأخذ في القراءة علـى الابن، ولمـا اقترب منه جفل فجـأة وتغير وجهـه!!، ثم عـاد إلى القراءة وأنهاها بسرعة، وأخبر أهله أن ابنهم على ما يرام، ولا بد أن يستغرق في نومه، وسـوف يستيقظ بإذن اللّه بخير وعافيـة، ولما خرج الشيخ من المنزل تبعه الأخ الأكبر، وقال له: لقد رأيتك لما جفلت وتغير وجهك ! فما الشأن ؟ ، فقال الشيخ: لا تخـبر والـدك، أخوكم لا عين به ولا سحر، إنما كان يهـذي ؛ لأنه سكران !!،

وقد شممت رائحته، فعرفت السبب !!، فانظر يارعاك الله كيف بلغ الشأن بنا في المبالغة في نسبة الأمور إلى العين والسحر !!، وإهمال العمل على تلافي الأسباب الحقيقية، والله المستعان.

قارب النجاة :

ذكر ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد أن التوكل على الله تعالى من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم؛ فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه.

وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

إضاءة:

لو كان كل صاحب ثروة سيصاب بعين أو سحر لأفلس بيل غيتس منذ زمن!!.

القاعدة الثامنة عشرة

الخطأ لا يستدام

وفي لفظ آخر: الخطأ لا يستدام ولكن يرجع عنه، ومقصود القاعدة أن الخطأ إذا اكتُشف يجب الرجوع عنه ولا يجوز البقاء والاستمرار عليه.

وهكذا الشأن في الحياة الزوجية لا تخلو من أخطاء يقترفها أحد الزوجين تجاه الآخر، فلا بد حينئذ من الرجوع إلى الحق والاعتراف بالخطأ والاعتذار من الطرف الآخر، أما حينما يتعالى عن ذلك وينكر ما اقترفه ويحرص على إلقاء اللوم والعبء على الآخرين وتحميلهم المسؤولية تخليصاً لنفسه من مغبة أخطائه، فهذا يعني أنه يعاني من مشكلة حقيقية، وأنه يجب عليه مواجهتها وعلاجها، وتعلم مهارة تحمل مسؤولية تصرفاته وشجاعة الاعتراف بالخطأ ومحاولة تعديله، وقد قال الحكماء: ليس هناك خطأ أكبر من عدم الاعتراف بالخطأ.

سحر المشاعر الصادقة:

في الحقيقة ينظر إلى رباط الزوجية باعتباره أقوى العلاقات البشرية وأسماها، إلا أن الخلاف بين طرفي هذه العلاقة أمر لا مفرّ منه عادة، وذلك نتيجة الاحتكاك شبه الدائم بينهما، وما يلازمه من هفوات وأخطاء، ولذلك يحتاج الزوجان إلى اكتساب مهارة ثقافة الاعتذار وفهم الآلية المناسبة الراقية لحلّ الخلافات بينهما.

وإنه في ظل زحمة الحياة وتعقيداتها، وزخم الانفعالات والتراكمات النفسية تبدر من أحد الزوجين زلات وهفوات من شأنها التأثير على العلاقة الزوجية، فطبيعة الإنسان تجعله معرضاً للخطأ في كثير من الأحيان، حيث ستختلط عليه بعض الأمور من وقت لآخر، وينسى أشياء مهمة، ويفقد أعصابه ويتلفظ بكلمات ما كان ينبغي عليه قولها ولكن الزوج الحصيف يتقن مهارة التعامل مع الأخطاء بواقعية، ويعمل على تحويل أخطائه إلى وقود لعملية الإصلاح والخروج من مأزق الخطأ بأقل التكاليف.

إن الأسوأ دوماً ما يحدث بين الزوجين حينما يغفلان ترك الجروح نازفة من غير اعتذار، لذا من المهم أن يبادر الطرف المخطئ إلى إبداء روح التأسف وتطييب الخاطر وإذابة الجليد المتراكم، أو يعمد إلى أسلوب اعتذار غير مباشر، كبذل هدية أو دعوة لمطعم أو سياحة رائعة، ومن المهم أن يقبل الطرف الآخر مثل هذه الرسائل التطمينية، دون عناد أو إصرار على الاعتذار المباشر، وكل تأخير في الاعتذار يترك آثاراً سلبية، ويزيد من عمق الجرح الذي قد ينفجر في أي لحظة، مسبباً مشاكل عاصفة قد تدمر الحياة الزوجية برمتها.

وإذا أحسستَ من نفسك رفض فكرة الاعتراف بالخطأ في الظاهر، فلا أقل من مواجهة النفس والاعتراف بالخطأ في الباطن، والعمل على تلافي نتائجه وتحسين الوضع، لا السير سلباً بعكس التيار، فلا يوجد إنسان معصوم من الخطأ، ولذا لا تفكر كثيراً لمَ اقترفتُ الخطأ، وهل هو خطأ أو لا؟، فهذا سيأخذ منك وقتاً وجهداً أنت في أمسّ الحاجة إليه، بل فكر جيداً في مدى سرعة استجابتك وخروجك من المأزق، وبيت القصيد هنا يكمن في الحرص على واقعية التفكير وتفهم الطبيعة البشرية، واستجلاب الخبرة المتراكمة، وذلك ما يسهم في الاقتراب من الواقعية والخروج من أَسْر المثالية المفرطة التي تجعل الإنسان عاجزاً عن مواجهة أخطائه.

وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل في حق من أخطأ على الخالق: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨) ، وكتب في هذا أحد الشعراء:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفْ
ثُمَّ انتهى عَمّا أتاهُ واقتَرَفْ
لِقَوْلِهِ سبحانَهُ في المعترِفْ
إنْ ينْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفْ

وقال النبي ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»، ولو تأملنا الحديث لوجدنا الفضل فيه لمن اعترف بخطئه وتاب، لا من تمادى وأخذته العزة بالإثم!.

وقد ذكر الخبير ستيفن كوفي في كتابه العادات السبع أن الاعتذار حينما يحصل لابد أن يكون صادقاً ونابعاً من الأعماق، فأعظم التأثير يأتي من

الكلمات الصادقة، والاعتذار الفوري النابع من القلب وليس بدافع التخلص أو الشفقة يتطلب شخصية قوية، ولابد أن يمتلك الإنسان زمام نفسه ويكون لديه حسّ عميق بالأمن فيما يتعلق بالمبادئ والقيم حتى تستطيع تقديم اعتذار صادق، أما الناس الذين لا يشعرون بالأمن الداخلي فلا يستطيعون تقديم الاعتذار، فهو يجعلهم عرضه للتأذي، وهم يشعرون أن الاعتذار يُظهرهم بمظهر الشخص الليّن والضعيف، فينتابهم الخوف من استغلال الآخرين لضعفهم.

إياك وتبرير الخطأ:

إن من اليسير على الإنسان متى ما وقع في خطأ البحث عن عذر؛ تبرئة لذاته من الانتقاص والعيب، وتغطية لآثار خطئه وتجاوزه نحو من يتعامل معه، لكنه حتماً سوف يستمر فيه، مما يؤدي إلى الإصرار عليه مع كل ما يتضمنه من آثار سلبية، وفي النهاية لن يتعلم كيف يمكنه التخلص من خطئه؛ وهذا ما يعمل على مفاقمته وتضخمه وتحوله إلى أزمة مستفحلة، لأنه لم يعترف به أولاً، ولم يكشف أسبابه التي تتحملها ذاته، وقبل ذلك لم يدرك أن تبرير الخطأ سيحول بينه وبين تفقد عيوبه، ويعمل على ترويض النفس على العزة بالخطأ وانتصار الذات.

والإنسان قد يسيء إلى نفسه من حيث لا يشعر حينما يعمد إلى تبرير خطئه بعذر واهٍ، والذي يراه الآخرون في حد ذاته خطأً آخر لا يقلّ خطورة عن الخطأ ذاته، ويصبح حاله حينئذ كما يقال في المثل : (عذرٌ أقبح من ذنب)، فهو يخادع نفسه حينما يجعل الأحداث أو الأشخاص مبرراً سخيفاً وشماعةً

جاهزة لأخطائه، وحينها لا يبذل جهداً تجاه الحلول المناسبة ومحاسبة الذات، وتصبح تلك المبررات وسيلة نفسية مخجلة للهروب من تحمل مسؤولية الإخفاق والفشل في مواجهة الموقف.

وأخيراً أود أن أذكّر المخطئ بعبارة جميلة للفيلسوف اليوناني إبيكتيتوس حينما قال: يجب الاهتمام بإزالة الأفكار الخاطئة من تفكيرنا، أكثر من الاهتمام بإزالة الورم والمرض من أجسادنا.

إضاءة:

لا تولد المشكلات الكبار دفعة واحدة، بل كثيراً ما تنشأ النار من مستصغر الشرر.

القاعدة التاسعة عشرة

خير الأمور أوسطها

هذه قاعدة فقهية جميلة مفادها أن الخير يكمن في الاعتدال في كل شيء، حيث لا إفراط ولا تفريط، وينبه إلى أن هذه العبارة لا تصح نسبتها إلى النبي ﷺ كما يتداوله بعض العامة، بل هي من قول التابعي مطرف بن عبدالله رحمه الله، وقيل في الشعر:

حبُّ التناهي غلط

خيرُ الأمورِ الوسط

ولا شك أن الحياة الزوجية لا تخلو من تصرفات وأحوال تحتاج من الزوجين الميل إلى الاعتدال والوسطية فيها، حتى يتهادى مركبها وسط أمواج الحياة المتلاطمة بكل ثبات وتوازن واستقرار.

مبدأ الوسطية:

إن أهم ما يميز المنهج الإسلامي في الحفاظ على الحياة الأسرية هو الأمر بالتوسط والاعتدال في كافة شؤونها، كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقد تتابعت كلمة المفسرين على أن معنى الوسط يعود إلى كون أفراد الأمة عدولاً خياراً، وذلك ما يوحي بالدلالة على الاعتدال بين الإفراط والتفريط؛ لأن الوسط هو المتخلل بين الطرفين، من خلال الوقوف على نقطة التوازن التي ترجع بقية الأطراف إليها.

ولا شك أن تصرفات الإنسان وأفعاله في ضوء الوسطية والتوازن تبدو عملية قاصدة ورشيدة، حيث تتجاوز كل معاني العبثية والسطحية في الحياة، وحينما يخرج سلوكه عن تلك المعاني وضوابطها فلا بد أن يختلّ عنده التوازن والانسجام والانضباط، وتضطرب حينها موازين الحياة.

وقد قال بعض أهل العلم: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين الجبلين، والهدى بين الضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين.

وقال التابعي الجليل وهب بن منبه رحمه الله: إن لكل شيء طرفين ووسطاً، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء.

وقد أحسن من قال:

عليك بأوساط الأمور فإنها

نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

ومن قال :

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد

كلا طرفي قصد الأمور ذميمُ

الوسطية في القيادة:

إذا كانت سعادة الأسرة مطلباً ينشده الجميع، فلا شك أن قائدها تقع على كاهله المهمة العظمى التي يضطلع بها من أجل نجاحها وتحقيق مصلحتها وتماسكها، ومن الضروري ألا يحصل انحراف في هذه القيادة عن مسار الاعتدال والتوازن.

إنه يلحظ من كثير من الأزواج الوقوف على طرفي نقيض تجاه هذه القضية، ما بين إفراط في تضييق الخناق وشدّ الحبل وفرض السلطة والهيمنة والتحكم بصورة قاسية تتضمن تهميشاً كاملاً لدور الزوجة، وفرض وصاية تامة عليها، والعمل على مصادرة شخصيتها واستلاب حقوقها المشروعة، وبين تفريط من جهة أخرى في إضاعة القيادة، وإطلاق الحبل على الغارب، وإعطاء الزوجة حجماً أكبر، وحرية تامة في اتخاذ القرارات، وحقوقاً مفتوحة الأبواب على مصراعيها، كثيراً ما تعود على كيان الأسرة بالتفكك والانحلال، وبين هذين الطرفين توجد منطقة التوازن والاعتدال.

والحكيم في الحقيقة من يعمل على وضع الأمور في نصابها ومواضعها،

ومهما اختلفت التجارب الإنسانيـة وتباينت نجد عنواناً بارزاً للقيادة السليمة والناجحـة يتمثـل في رأس الأسـرة وربّانهـا، الـذي يستطيـع بحنكته تحقيق مصالحها بما يملكه من قدرات شخصية وملكات نفسية تعكس موهبة القيادة لديـه، من خلال التعامل مـع أفراد عائلته وفق أسلـوب يتفق مع الحكمة التي تقول: لا تَكُن يابساً فتُكسر، ولا ليّناً فتُعصر.

التدبير نصف المعيشة:

هـذه حكمة معقولـة المعنى، تتلقاهـا النفوس السليمة بالقبـول، إلا أننا للأسـف نلحظ مؤخـراً سباقاً محموماً بين الأسـر في الإسراف، وشيوع أنماط مـن الاستهلاك الترّفي والإنفاق غير المنضبط، الذي يعدّ مجرد حرق للأموال والطاقات والجهود دون مقابل يذكر.

وقد بلغ الأمـر في بعض المجتمعات إلى حد تداخـل الكماليات التحسينية مـع الحاجـات الضرورية، ممـا أفضى إلى فقـدان كثير من الأشيـاء لقيمتها وأهميتها، وأضحى الكثير يشتكي من القروض وقلة ذات اليد، الذي يعود كثير مـن تمظهراته إلى سوء تخطيط وتنظيم واستخفاف بالمستقبل وما يحمله من مفاجـآت!، وقـد يفضي الأمر في النهايـة إلى شتات الأسـرة وفقدانها لكيانها ووجودها الاجتماعي.

وفي الحقيقـة إن الاعتـدال والوسطيـة والتوازن في النفقـة وتدبير شؤون الحياة الأسرية مطلب مؤكد تدعو إليه الفطر المستقيمة، كما دعت إليه وأكدته شريعة الإسـلام، ويؤيد ذلك قول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ (الفرقـان: ٦٧)،

وقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩).

إلا أننا نلمح أن فقه الوسطية والاعتدال في الإنفاق يكاد يخفى على كثير من الأزواج؛ حيث لا يُفرقون بين السخاء والإسراف، وبين الاقتصاد والبخل، فيعيشون في دوامة من المشاكل لا تنتهي، وقد ذكر المفسرون أن المقصود من الآية التوسط في الإنفاق، فلا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، فتقعد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد إن فعلت ذلك بلا شيء تنفقه ذليلاً محسوراً، بل يتعين الوسط بين الأمرين.

وقد جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: إن من فقه الرجل رفقه في معيشته.

وصدق ميمون بن مهران رحمه الله حيث يقول: رفقك في معيشتك تكفي عنك نصف المؤونة.

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن عبد الله بن شبيب رحمه الله، كان يقال: حسنُ التدبير مع العفاف خيرٌ من الغنى مع الإسراف.

وجاء عن شيخ من قريش، كان يقال: حسنُ التدبير مفتاحُ الرشد، وبابُ السلامة الاقتصادُ.

وذكر ابن الجوزي رحمه الله في (صيد الخاطر) أن العاقل يدبر بعقله عيشته في الدنيا، فإن كان فقيراً؛ اجتهد في كسبٍ وصناعةٍ تكفُّه عن الذّل للخلق، وقلّل العلائق، واستعمل القناعة، فعاش سليماً من مِنَن الناس عزيزاً

بينهـم، وإن كان غنيـاً، فينبغي له أن يدبر في نفقته، خـوف أن يفتقر، فيحتاج إلى الـذّل للخلق، ومن البلية أن يبـذّر في النفقة، ويباهي بها ليكمد الأعداء... وينبغـي التوسـط في الأحوال، وكتمان مـا يصلح كتمانه، وإنمـا التدبير حفظ المال، والتوسط في الإنفاق.

✍ توازن المشاعر والذكاء العاطفي:

تشبه المبالغة في العاطفة والحب إلى حد كبير المبالغة في البغض والكره، إذ كلاهما يفضي غالباً إلى إفساد العلاقات وحصول كثير من الأزمات، وإذا كان كل من العقل والعاطفة ضدين متكاملين، فإن نجاح الإنسان وسعادته النفسية في وقوفـه على نقطة التوازن بينهمـا في غالب منعطفات الحياة ومواقفها، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر.

إنه ليس من الخطأ أن يصبّ أحد الزوجين اهتمامه ومشاعر قلبه الدافئة تجـاه شريك حياته، ما دام ذلك في حدود المعقول، إلا أن الخطورة تكمن فيما إذا حصلـت مبالغـة تصل إلى حد الخنـق العاطفي إن صـح التعبير، وحينئذ يضجر الطرف الآخر من الاهتمام المبالغ فيه والمشاعر الفائضة عن مستواها الطبيعي، التي قد تحاصره ولا تفسح له مجالاً.

وقـد نوجه الـكلام ههنا إلى حـواء، باعتبار سيطرة المشاعـر والعواطف عليهـا، إلا أن الـذكاء العاطفي الواعـي يعدّ في الحقيقة نافذتهـا على التوازن النفسـي والنجاح في الحياة الزوجية، وفي هـذا الصدد يذكر الطبيب النفسي جون غراي في كتابه (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) أن المرأة تحتاج الى أن تحافـظ علـى التعادل في عواطفهـا ومشاعرها، بـأن تضبط مقدار ما

تمنح حتى تتيح للطرف الآخر أن يأخذ دوره في العطاء، فالنساء ليس عليهن أن يعطين أكثر للحصول على علاقة أفضل، ذلك أن شركاءهن سيعطونهن فعلاً أكثر إذا أعطين أقل.

وفي هذا الصدد أشارت دراسة حديثة إلى أن معظم مشاكل العلاقة الزوجية تعود إلى نوع من المبالغة في المشاعر وما يتبعها من أفعال وتصرفات تستوجب عدم القدرة على التحكم بها في منعطفات الحياة، فالمرأة تطلق لمشاعرها العنان...حيث تجد نفسها في عاطفة جياشة...وتتفاني في الاهتمام على حساب نفسها، وتبالغ في العطاء بلا حدود...والخطورة تكمن في أن توقعاتها حينئذ تصبح عالية جداً من الطرف الاخر...حيث تنتظر أن يبادلها الحب والعطاء والاهتمام بنفس الطريقة ونفس المستوى، إلا أنها تصاب بخيبة أمل قاسية ومرارة كبيرة !!.

وقد تأتي الخطورة من المبالغة في المشاعر جراء حصول نكسة في الحياة الزوجية، وحينها يشعر الطرف المغدور بخنجر مسموم داخل قلبه، وقد تنقلب بوصلة المشاعر إلى اتجاه آخر مغاير تماماً لما كانت عليه، ولذلك جاء عن علي رضي الله عنه دعوته إلى التوازن والاعتدال في المشاعر، حينما قال: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

وأنشده بعضهم شعرا:

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا

فإنك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا

فإنك لا تدري متى أنت راجع

إضاءة:

العلاقة الزوجية تعتمد فقه التوازن وتستدعي فن الوسطية.

القاعدة العشـــرون

دفع المفاسد أولى من جلب المصالح

هـذه قاعدة فقهيـة ذات مكانـة عظيمة، وفوائـد جليلة، تلقاهـا العلماء بالشـرح والتفريع، وذكر بعض العلماء أنها تكاد تتضمـن نصف الفقه، وهي أصل عظيم من أصول الشريعة الإسلامية القائمة على جلب المصالح وتكميلها، ودرء المفاسـد وتقليلهـا، ومعناها يعود إلى أنه إذا تسـاوت عند المكلف مفسدة ومصلحة وتعارضتا أو غلبت المفسدة، فإن الأصل في حقه دفع المفسدة ودرؤها، وذلك مقدم على طلب تحصيل المصلحة، سواء كان ذلك في أمر من أمور دينه أو دنياه؛ لعناية الشرع بترك المفاسد، لما يترتب عليها من الأضرار والشرور.

ويجـدر التنبيـه إلى أن هذه القاعدة تمثل مبـدأ الوقاية خير من العلاج، مـن حيث إن المصالح والمفاسد المحكوم عليهما فيها لم تقع بعد لمن أراد العمل بها، ولهذا جاء التأكيد فيها على دفع المفاسد لا رفعها إشارةً إلى توقعها، وكذا بالنسبة إلى جلب المصالح لا المحافظة عليها.

وبناء عيه فـإن الحياة الزوجية لا تخلو من مصالح ومفاسد تتعارض في حق كثير من الخطوات التي قد يزمع الزوجان القيام بها، فتقع تلك الخطوات حينئذ في قلـب المعركة الدائرة بين المصالح والمفاسد، وحينها يضطر أحد الزوجين بحنكته إلى تغليـب لغة المنطق، والنأي عـن المفاسد المترتبة على تلـك الخطوة المنشودة، التي قد تجرّ شروراً جساماً تتجاوز المصالح المقابلة لها أضعافاً مضاعفة.

الحمو الموت:

وهكذا نجد الشريعة منعت من الاختلاط بالحمو، وهو قريب الزوج غير المحرم كالأخ والعم والخال ونحوهم، مع أن ذلك الاختلاط قد يجلب في الظاهر مصالح الأنس والمودة والصلة، إلا أن المفاسد المترتبة عليه لما كانت أعظم نهى الشارع عنه أشدّ النهي، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**».

آفة الخدم :

ومن المشاكل التي تئن منها بعض الأسر في هذا العصر قضية جلب الخادمات متغربات من بلاد بعيدة، وذات ثقافة مختلفة، خصوصاً إذا كان الخادمة شابة وفيها مسحة من جمال، مع ضعف في تدين الزوج أو بعض الأبناء، فهنا نهمس في أذن كل زوجة حصيفة بأن ترعى بيتها، وتوازن بين المصالح والمفاسد، فمتى رأت غلبة واضحة للمفاسد، فحينئذ لا بد من استحضار قاعدة درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

وفي الحقيقة لا يصح أن ندفن رؤوسنا في التراب، فننكر هذه المشكلة وتوابعها رأساً، أو تدفعنا مصالح آنية إلى تبرير وجود الخادمة، ونتناسى المفاسد التي تربو عليها، ففي دراسة ميدانية حديثة نشرتها إحدى الصحف السعودية وأجرتها أستاذة بجامعة الأميرة نورة أشارت إلى أن نسبة عاملات المنازل اللاتي يحاولن التقرب من الزوج أو الزواج به بلغت أكثر من ٥٤٪ !! ،

فهل بعد هذه النسبة المفجعة يصح أن نتجاهل المفاسد برمتها !!، أدعكِ أيتها الزوجة الحصيفة وعقلك وحسك الأنثوي !!.

سياحة وخراب بيوت:

كثر السفر في هذا الزمن، وأصبح العالم كقرية واحدة، فإذا غلب على ظن الزوجين أن سفرهما لسفر سياحة ونحوها سيترتب عليه من المفاسد ما هو أكثر من المصالح المرجوة، أو لم يتحققا غلبة أي من المصالح أو المفاسد، فإن السلامة حينئذ لا يعدلها شيء، وكم سمعنا عن زوج عفيف أصرت زوجه على الذهاب إلى بلاد يكثر فيها المنكر والمجون، ورأى هناك ما لا عهد له به، فوقع في المحظور، وأصبح من روادها لوحده أو رفقة أصحاب بعد ذلك، ولو تمثلت تلك الزوجة هذه القاعدة لسلمت وسلم لها زوجها، فدرء المفاسد أولى من جلب المصالح !!.

وقد قيل: ليس المهم أن تتزوج بقدر أن تحافظ على الزواج.

ويذكر الدكتور عادل صادق في كتابه (متاعب الزواج) أن الزوجة الحصيفة تعمل على التمسك ببيتها مهما تضافرت القوى واتحدت ضدها، إنه الوطن، وهو الأمّ، وهو المستقبل، وهو الكيان، وهي لن تسمح لبشر أن ينال منه ويمسه بسوء، ستدافع عنه ببسالة وجسارة وحنكة وبما تملكه من أسلحة وأرصدة وينابيع ثرية، وسوف تسقط السهام السامة منكسرة ذليلة قبل أن تقترب من جدرانه.

إضاءة:

الحياة الزوجية علاقة حساسة، تتطلب دوماً الحذر مما يعرضها للخطر، ومتى ما وقفت ساكناً لا ترغب التنازل عن شيء في سبيل المحافظة عليها فأنت في الواقع قد تخاطر بكل شيء!.

القاعدة الحادية والعشرون

الرضا بالشيء رضا بما يتولد منه

المـراد بهـذه القاعـدة الفقهية ظاهر، وقريـب منها قول بعض الفقهاء: المتولّد من مأذون فيه لا أثر له، والمقصود بها أن الإنسان متى ما رضي بالشيء أو العمل بطوعه واختياره، لَزِم منه رضاه ضمناً بما يتولد منه ويترتب عليه.

وفي الحيـاة الزوجية قد يحصـل رضا أحد الزوجين بحالـة أو وضع ما، ويتـم عقد الزوجية على وفقـه، فحينئذ لا بد من الرضا بمـا يترتب عليه؛ إذ هـو أمر تمّ بطوعه واختياره، ولذلـك نص كثير من الفقهاء على أنه إذا رضي أحد الزوجين بعيب صاحبه فازداد العيب، فلا خيار له؛ لأن رضاه به رضا بما يتولد منه.

✍ عمل الزوجة:

لا شك أن الأصل عمل الزوجة في بيتها والعناية بزوجها ورعاية أولادها، إلا أنها قد تضطر أحياناً إلى العمل خارج المنزل في وظيفة مناسبة شرعاً وعرفاً، وقد يحصل موافقة الزوج على فكرة عملها أساساً أو تشجيعها في البداية، جراء ظروف معيشية أو في ظل ضغوط اجتماعية معينة.

وههنا لا بد من الموازنة بين العمل والمنزل، فتقع المرأة العاملة في بعض الحالات فريسة بين مطرقة الاهتمام بالأسرة وسندان المهام الوظيفية، في اختبار صعب وعسير بين جعل متطلبات العمل متلائمة مع حياتها الأسرية، أو جعل متطلبات الحياة الأسرية متلائمة مع عملها، وحينئذ لا بد من نوع تضحية بأحدهما على حساب الآخر !!.

ولذلك تظهر دراسات اجتماعية وجود علاقة متبادلة بين وقوع الخلافات الزوجية نتيجة عمل المرأة، ومدة الحياة الزوجية، وأنه كلما قلّت مدة الحياة الزوجية كان ذلك نتيجة لوقوع خلافات بسبب عمل الزوجة...وكلما تسبب عمل الزوجة في الخلافات كانت مدة الحياة الزوجية قصيرة، إذ يترتب على عمل المرأة: ضعف تفرغها لأسرتها، وإهمالها نوعا ما لبعض شؤون الزوج والأولاد، وكذلك تترتب آثار نفسية بعيدة المدى، وذلك من شعور المرأة العاملة المتزايد بالاستقلال، والاعتزاز بالكيان، والإحساس بالقدرة على الاستقلال عن الزوج.

إنني ههنا لست في صدد التحذير من مغبات عمل المرأة في ذاته، ولكني فقط أكشف ما يترتب عليه من ضغوط حتمية على واقع حياة الزوجين، وبقدر

مـا يتعرض الـزوج إلى ضغوط الإحساس بالإهمال وعدم الاستقرار وإشباع الحاجات، كذلك تتعرض الزوجـة العاملة إلى ضغوط نفسيـة وبدنية هائلة، ينبغـي مراعاتها من قبل الـزوج، خصوصاً في ظل موافقته أساساً على عملها، والرضا بالشيء رضا بما يتولد منه.

إذن لا بـد أن نسلـم فعـلاً أن اختيار المرأة في العصـر الحاضر لأدوارها في الحيـاة أصبح أكثر تعقيداً من قبل، نتيجـة تعرضها لضغوط متعددة، فهي تخضـع من جهة لضغوط طبيعتهـا الأنثوية التي تدفعها باتجاه الأمومة ورعاية بيتهـا، كما تتعرض من جهة أخـرى إلى إمكانية الحصول على فرص أصبحت متاحـة أمامهـا في عـالم الوظيفة والأجـر، إلا أنها تواجه بعقبـات كثيرة: من متطلبات زواج، وأعمال منزلية، ورعاية أطفال.

وأخـيراً أشـير ههنا إلى أن نجـاح الزوجة في الموازنة بـين بيتها وأسرتها غالبـاً ما يستند إلى تفهم الزوج لوضعها، وتقديره لمدى بذلها وجهدها، ومتى ما خابت آمال الزوج تجاه زوجه، وطالبها بما هو خارج عن نطاق طاقتها، ولم يوطّن نفسه على تحمل النتائج والعواقب، فإن الفشل حتماً سيكون مصير تلك الأسرة البائسة.

✍ يداك أوكتا وفوك نفخ:

هذا مثل يُضرب في الإنسان يدخل في أمر بمحض إرادته، ثم يطلب النجدة من الوضع الذي أوقع نفسه فيه، وأصله أن رجلاً نفخ في قربة وربطها، ثم نزل بها يسبح في النهر، وكانت القربة ضعيفة الوكاء – أي الرباط – فتسرب الهواء منهـا، وأوشـك على الغـرق، فاستغاث برجـل كان واقفاً علـى الشاطئ، فقال

لـه ذلك الرجل: يداك أوكتـا وفوك نفخ، يعني بذلك أنه هـو الذي ربط ونفخ، فجنايته من صنع يده، وعليه تحمل عاقبتها.

وههنا في بعض حالات الحياة الزوجية يدخل الإنسان تلك العلاقة ابتداء تحت ظروف معينة قد لا تناسبه تماماً أو قد لا تكون موافقة لما يتشوفه ويتمناه، إلا أنـه رأى الموافقة عليها في ظلّ وطأة ضغـوط نفسية أو اجتماعية أو غيرها، وهنـا لا بد في الحقيقـة من امتلاك الشجاعة الكافيـة في التكيّف مع وضع قد وافـق عليه بمحض إرادته مسبقاً؛ إذ للطرف الآخـر أن يحتجّ بأنك كنت على علـم بوضعـي وظرفي فلمَ تدخل هـذه العلاقة برضاك، ثـم تتبرم مما يترتب عليها؟، وههنا صور من هذه الحالات:

- إذا تـزوج رجل امرأة ذات أولاد من غـيره – مطلقة أو أرملة- فلا بد من مراعاة ظروفها، وحاجتها إلى العناية بهم وإحساسها بالأمومة تجاههم، فهـو أمـر لا تملكه من نفسها تجاه فلـذات أكبادها، وأيضـاً من الصعوبة بمـكان أن تطالب بأن تبذل كل الأحاسيس والمشاعر التامة لزوجها وحده، ومـا دام قـد رضي التزوج بها على الرغم مـن حالتها ووضعها فلا بد من الرضا بما يتولد منه.
- وفي المقابل قد تتزوج امرأة رجلاً أيضاً له أولاد يرعاهم من غيرها – مطلق أو أرمـل- ويناشدهـا العناية بهم ورعايتهم في حـدود الممكن والمستطاع، فهنـا لا يصح بتاتاً أن تتـبرم وترفض طلبه وتتأفف منهم، فهم في النهاية أولاده وبضعة منه، يؤذيه ما يؤذيهم، ويريبه ما يريبهم.
- وقد تتزوج امرأة رجلاً معـدداً، يحتاج إلى الأنس بأولاده من زوجه الأولى

وانفراده بهم في بعض الأوقات وملاعبتهم وأخذهم ههنا وههنا، فهم أولاً وأخيراً فلذات كبده الذين عاشوا معه سنوات قبل أن يعرفها، فمن العدالة والحكمة أن تفسح له المجال في ذلك، وأن تشاركه فرحته وأنسه بهم.

- ومتى تزوجت امرأة رجلاً شهماً كريماً مضيافاً، وهي تعلم حاله هذه، فمن الحصافة ألا تتبرم من كثرة الضيوف وما تعانيه من ضيافتهم، بل ذلك ينبغي أن يكون من دواعي فخرها واعتزازها.
- وإذا تزوج رجل امرأة من طبقة اجتماعية مرموقة ذات تواصل اجتماعي واسع ومتعدد، فمن الحكمة ألا يتبرم من علاقاتها مع بنات جنسها أو مشاركتها في الفعاليات الاجتماعية المقبولة شرعاً وعرفاً، فهو قد رضي بالزواج بها مع علمه بما هي عليه، والرضا بالشيء رضا بما يتولد منه.
- ومتى تزوجت امرأة رجلاً، ورضيت السكنى مع أهله، فلا بد من الرضى بما يترتب على ذلك أحياناً من غيرة طارئة، أو انتقاد عابر، أو إحساس بتدخل في خصوصيات، أو ضوضاء، أو عدم شعور بالاستقلالية.

إضاءة:

كم هو جميل أن يملك الإنسان الشجاعة الكافية لتحمّل نتائج قراراته.

القاعدة الثانية والعشرون

الساقط لا يعود

هذه قاعدة فقهية قصيرة المبنى كبيرة المعنى، وقد جاءت بلفظ آخر عند الفقهاء، وهو: المعدوم لا يعود، والمقصود بها أنه متى ما أسقط إنسان حقاً من حقوقه التي يجوز له إسقاطها، فإن ذلك الحق يسقط، وبعد إسقاطه لا يعود.

وهذه القاعدة وإن كانت في الحقوق وما شابهها، إلا أنه يمكن الاستفادة منها في العلاقة الزوجية؛ فإن ما انعدم في الحياة وتلاشى لا يعود مرة أخرى إليها، وعلى الإنسان دوماً أن يحافظ على الأمور التي لا يمكن تداركها، وإن فاته شيء بلا اختيار منه، فاللازم في حقه أن يتكيف مع واقعه الجديد، ويرضى بقضاء الله تعالى وقدره.

حنكة أم سليم رضي الله عنها:

إنها الصحابية الجليلة أم سليم بنت ملحان الخزرجية التي اشتهرت بالرميصاء، وهي أم أنس بن مالك رضي الله عنه، وهي امرأة امتازت بالرزانة والحصافة والخلق الكريم.

لقد كانت بصدق إيمانها وموفور عقلها ورزانة رأيها قادرة على جعل جحيم المصيبة جنة وارفة الظلال، وكانت تعلم أن الساقط لا يعود، وأن الإيمان بقضاء الله وقدره كفيل براحة المؤمن وإحساسه بالطمأنينة والأمان، وأنه لا فائدة من لعق الجراح واجترار الأحزان والآلام وبثها، التي تؤرق العيش، وتقضّ المضجع، وتعمل عملها السيء في هدم بنيان السعادة وتقويض دعائمه، في حين لا تغير من الواقع شيئاً.

هذه الصحابية الجليلة كان لها ابن صغير أصابه مرض الموت، وكان أبوه أبو طلحة رضي الله عنه يحبه جماً، وخرج الأب ذات يوم من البيت فمات الصبي، ورأت أم سليم ابنها الصغير وفلذة كبدها يلفظ أنفاسه الأخيرة في الحياة، دمعت عينها واسترجعت، وألقت بنفسها في ظلال الذكر والاستغفار، وقامت بما أملاه عليها إيمانها العميق ويقينها الراسخ تجاه حدث عظيم الوقع في النفوس، فهيأت أمره وغسلت صغيرها وقرة عينها، ثم كفنته وغطّت عليه ثوباً في فراشه.

وحيث كانت تعلم مدى تعلق الأب بصغيره، أشارت إلى من في بيتها بقولها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، وجاء أبو طلحة فتطيبت له وتزينت وتصنعت وجاءت بعشاء، فقال: ما فعل الصبي؟ فقالت له: هو أسكن

مـا يكون، فتعشى وأصاب منها ما يصيب الرجل من أهله، فلما كان آخر الليل قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم فهل لهم أن يمنعوها عنهم؟ فقال: لا، قالت: فما تقول إذا شقّ عليهم أن تطلب هذه العارية بعد أن انتفعوا منها؟ قال: ما أنصفوا ، قالت: فإن ابنك كان عارية مـن اللّه، فقبضه إليه فاحتسب ابنك، فغضب حينهـا أبو طلحة وقال: تركتني حتـى إذا تلطخـت أخبرتني بابني! فما زالت تذكّـره حتى استرجع وحمد اللّه، ولمـا غدا إلى رسول اللّه ﷺ أخـبره بما كان ، فقال الرسول ﷺ: «**بارك اللّه لكما في ليلتكما**»، فحملت من تلك الليلة بغلام اسمه عبد اللّه، وكان من فضلاء التابعـين رحمه اللّه، حيث نشأ وقرأ العلم، يقول أحد رواة الحديث: فلقد رأيت لذلك الغلام سبع بنين، كلهم قد ختم القرآن.

فـإذن الحياة الزوجية شأنها شأن كل حياة أخرى لا بد أن تمرّ في رحلتها بمحطـات أليمة ومنعطفات حزينـة، من فقد عزيز وضيـاع فرصة ثمينة، قد تدمـع لها العيون وتعتصـر من أجلها الأفئدة، إلا أن الأجـدر بالإنسان - مهما توقـف عندهـا - أن يجعل منها تجديداً للنشاط والتقاطـاً للأنفاس، ولا بد في نهاية المطاف من متابعة السير إلى محطات أخرى سعيدة وجميلة في الانتظار.

✍ للأسف قصة حقيقية:

بينمـا نجد في مقابل قصة أم سليم رضـي اللّه عنها قصة محزنة مبكية في عصرنـا الحاضـر ذكرهـا الأستاذ / محمـد رشيد العويـد في مجلة النور، وملخصهـا يدور حول زوجة كانـت تتزين في غرفتها استعـداداً لزيارة أهلها، ولمـا رآها زوجهـا بكامل زينتها وقد ازدادت حسناً وجمـالاً، اقترب منها راغباً في معاشرتهـا، إلا أنها دفعتـه بعيداً عنها، وصرخت في وجهه: هل بك جنون؟،

لا أستطيـع أن أتـأخـر أكثر من ذلك، فقال لها زوجها في شيء من الاستعطاف والوعظ: لقد أمر النبي ﷺ الزوجة أن تجيب زوجها ولو كانت على ظهر قتب، فلم تلتفت إلى ذلك، ولم تشأ إزعاج نفسها بالتفكير، وقالت له: عليك بالصبر حتى أعود من الزيارة.

أمضـت هذه الزوجـة ساعات من الليـل في بيت أهلها تتبـادل الأحاديث والضحـكات، وتتناول ما لذّ وطاب من الفطائر والحلويات، ناسية زوجها الذي تركتـه وحيـداً في البيت رافضة طلبـه وعاصية له، ولما عـادت إلى بيتها كانت تتوقع أن تجده نائماً، ودخلت غرفة نومها بهدوء دون أن تضيء المصباح حتى لا توقظه، لكنها ما إن خطت خطوتها الأولى في الغرفة حتى عثرت قدمها بجسد زوجها ممدداً على الأرض، فرجعت إلى الخلف وأضاءت مصباح الغرفة لتجد زوجها - للأسف- قد فارق الحياة !!.

وهكذا فإن الساقط لا يعود، وانتقل الزوج إلى جوار ربه، بعد ساعات قليلة مـن امتناع زوجته منه... زوجته التي بكت وندمت، ولكن بعد فوات الأون ؟، ولا أعرف كيف حالها والنبي ﷺ قال: «**إذا دعا الرجل امرأته لفراشه، فأبت أن تجـيء فبات غضباناً عليها، لعنتها الملائكـة حتى تصبح**»، وفي رواية: «**والذي نفسـي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها، فتأبي عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها**».

إضاءة:

كـم هـو مسكين ذلـك الزوج الـذي يتمسـك بلحظة سعيـدة من لحظات الحياة... ويتناسى أنه في سبيلها قد تضيع الحياة الزوجية كاملة في لحظة !!.

القاعدة الثالثة والعشرون

الطاعة بحسب الطاقة

المقصود بهذه القاعدة الفقهية تقرير أن طاعة الشرع فيما أوجبه إنما تكون بحسب الوسع والطاقة، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ومتى ما عجز الإنسان عن أداء واجب سقط عنه، ولهذا قال الفقهاء: لا واجب مع عجز.

ولا شك أن الرجل هو قائد الحياة الزوجية، وقد دلت النصوص على تأكيد حقه وقوامته، وأن الزوجة مأمورة في الأصل بطاعته في المعروف، وهذا أمر متفق عليه بين الفقهاء، إلا أن هذه الطاعة مقيدة بكونها في حدود الممكن المستطاع، بحيث يزال الضرر عن الزوجة، وفي المثل: إذا أردت أن تُطاع فسلْ ما يُستطاع.

إنسان لا آلة:

إن الطاعة في الحياة الزوجية عامل مهم من عوامل استقرارها ونجاحها، كما أنها تسهم في زيادة الألفة وتوطيد العلاقة وتحقيق الانسجام متى ما تم التعامل وفقها بتعقل ومحبة؛ وبدونها تعمّ الفوضى أرجاء الأسرة، وتضل قافلتها عن مقصدها، وتسير سفينتها باتجاه الأخطار المدلهمة والغرق.

إلا أن القيادة الصحيحة والقويمة لأي عمل من شؤون الأسرة تحتاج إلى حكمة وحصافة ومراعاة وتفهم لطاقات الإنسان؛ لأن التعامل يتم مع كائن حي من لحم ودم، وليس مع مجموعة من التروس والآلات، وههنا يأتي دور السهل الممتنع، وهو كون ذلك فيما هو مستطاع من قبل الزوجة، فلا يأمرها بشيء فوق طاقتها أو خارج عن وسعها وقدراتها.

وحقيقة حين يتعسف الزوج في استعمال حق الطاعة، ويعمل على استغلالها في مطالبة زوجه بما هو خارج عن طاقتها، فإنه يخرج عما تقتضيه العقول الرشيدة ومكارم الأخلاق، بل إنه يعرض نفسه للإثم والحرج، حيث اتفق الفقهاء على عدم جواز تحميلها ما لا تطيق، وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

وقد تشعر المرأة في لحظة تعب أو تغير مزاج بشيء من الضنك الواقع عليها، جراء تحمل مسؤولية القيام بشؤون المنزل وتربية الأبناء وحدها، لذا من حصافة الزوج وحكمته أن يشتري راحته واستقراره الأسري حينئذ من خلال تقديم القليل من التنازلات في طلباته التي يمكن تأجيلها أو حتى الاستغناء عنها!.

التعاون لا ينقص قدراً:

في كثير من الأحيان يصعب على الزوجة القيام بشؤون المنزل لوحدها، نظراً إلى حصول ظرف طارئ أو دراسة أو اختبار أو عمل، بحيث يضحي العمل على تجهيز كافة الاحتياجات المنزلية أمراً في غاية الصعوبة والمشقة، خصوصاً في ظل عدم وجود خادمة، وههنا يحسن من الزوج المحب المتفهم مشاركة زوجته في بعض الأعمال وتقديم المعونة لها.

وهذا التصرف المسؤول من قبل الزوج يعدّ في الحقيقة أمراً جميلاً، ومؤشراً إيجابياً على التعاضد وتجسيداً للتفاهم الأسري، وعاملاً مساعداً في تطور العلاقة الزوجية وتماسكها، ودليلاً على تفهم الطرفين لأهمية دور المشاركة في بناء الأسرة، وهذا سينعكس إيجاباً في المستقبل على أفراد الأسرة، وسيزرع فيهم حب التعاون، وتقدير المسؤولية، وتلمّس معاناة الآخر.

إن مشاركة الزوج في بعض أعباء المنزل ليست عاراً أو أمراً مذموماً أو تنقصاً من الرجولة، ومن خلال الرجوع إلى السنة النبوية نجد أن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان يمارس الكثير من الأدوار داخل بيته، ويقدم المساعدة لزوجاته، ولا شك أن لنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت كان يكون في مهنة أهله، أي: خدمة أهله، وتكشف لنا بعض الروايات جوانب من هذه المهنة التي كان يحرص على القيام بها، فنجد فيها: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويرقع دلوه، ويخدم نفسه، ويعمل في بيته.

وكم أحسن الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وأنصف حينما تناول شرح هذا

الحديث في شرح رياض الصالحين، فقال: مثلاً الإنسان إذا كان في بيته، فمن السنــة أن يصنع الشاي مثلاً لنفسه، ويطبــخ إذا كان يعرف، ويغسل ما يحتاج إلى غسله، كل هذا من السنة، أنت إذا فعلت ذلك تثاب عليه ثواب سنة، اقتداء بالرســول عليه الصلاة والســلام وتواضعاً لله عزّ وجل؛ ولأن هذا يوجد المحبة بينــك وبين أهلك، إذا شعر أهلك أنك تساعدهم في مهنتهم أحبوك، وازدادت قيمتك عندهم، فيكون في هذا مصلحة كبيرة.

إن مشاركــة الزوجــة في أعمالهــا مهما كانــت يسيرة أو رمزيــة غالبا ما تصــل إلى قلبها مشفوعة بمذكرة تفسيرية محمولة بمعاني متجددة من الحب والمــودة، ولذلك تشير بعض الدراسات النفسيــة أن المشاركة بين الزوجين في القيــام بأعباء المنزل يعمــل على بناء جسور المحبة بينهما، مع ما يصاحبه من مــرح وتضاحك وكسر حاجز الملل، وقد يكون عامــلاً رئيساً في تبادل العبارات التشجيعية وتقريب وجهات النظر بين الزوجين.

ونذكّــر تارة أخرى بما أشار إليــه الدكتور جاري تشابمان في كتابه (لغات الحب الخمســ)، من أهمية لغة الأفعال الخدمية تجــاه شريك الحياة، وذلك مــن خلال الإقدام على التصرفات التي يُحب أن تُفعل من أجله... بغضّ النظر عــن حجمهــا ومقدارها، حتى لو بدت بسيطـــة وصغــيرة، فهي في كل الأحوال تحتــاج إلى وقــت ومجهود وطاقــة، ومتى تمّ فعلها بــروح إيجابيــة فإنها تصل لشريــك الحياة على أنها تعبــير حقيقي صادق عن الحب، وحينها سوف يسعد الزوج بمشاهدة خزان الحب في علاقته الزوجية وهو يمتلئ !.

وأخــيراً أوصيك أن تمنح خدماتك من قلب صادق مفعم بالحب وبأريحية

تامة، لا على سبيل أداء الواجب، أو المقايضة وانتظار المقابل من الطرف الآخر، وتذكّر أنك حينها ستشعر بسعادة حقيقية تغمر كافة أرجاء حياتك، كما قال بعضهم: إن تقديم الخدمات هو الأجر الذي ندفعه لقاء ميزة العيش على الأرض.

طرفة:

متى ما شقّ الزوج على زوجته فوق طاقتها فلا يقبل حينئذ منه أن يشكو من النتيجة، حتى الآلات والمعدات تتطلب استخداماً متزناً في حدود المعقول، ومما يتندر به في هذا المقام أن رجلاً كان غير راض عن زوجته، فأرسل رسالة عبر الجوال إلى أمها: منتجكم غير مطابق لمتطلباتي الخاصّة !، فكان ردّ الأم الحصيف: عفواً زوج ابنتي الغالي... الضمان لا يشمل سوء الاستخدام !.

إضاءة:

الحياة الزوجية الناجحة دائماً ما تُبنى على التآزر والتكامل، لا التنافر والتآكل.

القاعدة الرابعة والعشرون

العادة محكمة

هــذه إحــدى القواعــد الفقهية الكـبرى ذات الأثـر الواســع في الأحكام، ومفادهــا أنــه إذا جرت العادة – ســواء كانت عامة أو خاصــة - على أمر من الأمور، ولم تخالف شرعاً، فإنها تكون معتبرة يعمل على وفقها.

والــزواج باعتبــاره علاقة إنسانية نلمس فيه استمــرار أحد الطرفين على أمــور نشأ عليها، وتكيف معها، حتى أضحت كالسجيّة له، وههنا لضمان نجاح تلــك العلاقة وفاعليتها لا بد من احترام العادات التي يمكن تقبلها وتقديرها، كما لا بد أيضاً من العمل بصدق على تغيير العادات السيئة المتحكمة التي تؤثر على سلامة العلاقة الزوجية والمحافظة عليها.

احترم عاداته:

العادات المباحة التي لا تخالف شرعاً ولا خلقاً فاضلاً ولا ذوقاً عاماً، هي من الأمور الداخلة في دائرة الأفعال الجائزة، فمن حسن العشرة وكريم الخلق احترام كل من الزوجين الآخر حيالها، كالأكل لطعام محدد على طريقة معينة، أو الأكل بوسيلة خاصة ومكان محدد، أو الحرص على لباس بهيئة خاصة، وأحياناً قد تأخذ العادات منحى آخر، بأن تكون عادات نفسية تمثل جزءاً من شخصية شريك الحياة، كالميل إلى شيء من الصمت وحذر المشاركة، أو البرود والتسويف والمماطلة؛ ذلك أن الإنسان متى ما مارس فعلاً على هيئة معينة في مواقف حياته المتعددة انسجم فكره تجاهه، وأنست نفسه به، وأصبح بمثابة طبع متأصل يعسر الفكاك عنه.

وقد يشعر أحد الزوجين بشيء من التضايق وعدم الراحة تجاه بعض عادات شريك الحياة، والتي يكون مردها أحياناً تعارضها مع عاداته هو، وكم يخطئ في الحقيقة متى ما اعتقد أو أصرّ على أن بإمكانه تغيير تلك العادات بين عشية وضحاها، أو أنه قادر من خلال ضغطه المتواصل وإلحاحه الشديد على إعادة تشكيلها في وقت قصير، فالعادات الإنسانية تفاعلات طويلة الأمد كثيراً ما تخلق مساراً ثابتاً قد يكون من الصعوبة تغييره.

ومتى ما رغب أحد الزوجين في تغيير طباع متجذرة في شريك الحياة، لا يجد راحة في التأقلم والتكيف معها، فعليه اتباع مهارته وحكمته مع الاحترام الصادق والمتبادل، وذلك من خلال محاولة معرفة أسباب تلك العادة، مع الحرص على تجنب أي توجيه لنقد مباشر ودائم تجاهها، وعدم إحراجه وإشعاره بالخجل منها.

لا تكبّلك العادات السيئة:

وإذا كان الكلام السابق عن العادات المباحة التي يستحسن تقديرها واحترامها قدر الإمكان، فلا شك أن هناك في المقابل عادات سيئة، تترسخ في شخصية الإنسان مع مرور الوقت، وتنعكس على جميع تصرفاته، وعلى الطريقة التي يفكر بها ويقرر ويعمل من خلالها، وفي النهاية تفضي تلك العادات إلى إكساب حياته نمطاً محدداً، كما جاء عن أرسطو: ما نفعله بشكل متكرر هو ما نحن عليه، ومن ثم فإن التميّز عادة وليس فعلاً !!.

وفي هذا الصدد يذكر الخبير ستيفن كوفي في كتابه (العادات السبع) أن شخصية الإنسان تتكون في الأساس من العادات، التي تعد عوامل مؤثرة في الحياة، لأنها متماسكة ومترابطة وغالباً ما تكون نماذج غير واعية، حيث تعبر بشكل دائم ويومي عن الشخصية وتصنع الفعاليات أو تعدمها، وفي الحكمة: تزرع فكرة تحصد عملا، وتزرع عملاً تحصد عادة، وتزرع عادة تحصد شخصية، وتزرع شخصية تحصد مصيراً...وتستمر تلك الحكمة بلا نهاية.

ويكشف أيضاً عن أن الكثير من الناس يظنون استحالة التخلي عن أي عادة، حتى بالغ أحد الحكماء بقوله: العادات تشبه الحبل الغليظ...ننسج كل يوم أحد خيوطه وسريعاً ما يصبح مستحيل القطع، إلا أن هذا غير صحيح على إطلاقه، فالعادات يمكن تعلمها، ويمكن التوقف عن القيام بها، وإن كان ذلك مما يتطلب جهداً مضنياً والتزاماً لا حدود له.

إنّ محاربة العادات السيئة وغير المقبولة اجتماعياً أو نفسياً، والموازنة في ملكات الإنسان وقدراته وعدم الميل بها إلى جانبي الإفراط والتفريط ليس بالأمر اليسير دائماً ولا بالطريق المعبّد، وهذا أمر أدركه عقلاء الناس وأهل العلم، ففي

الحكمــة: العادة عدوٌّ متملّك، وقيل: للعادة على كل إنسان سلطانٌ، وكل امرئ جارٍ علــى ما تعوّد، وللمتنبي: وتأبى الطبــاعُ على الناقلِ، وقال ابن القيم رحمـــه الله: العادة كالطبيعة للإنسان، ولذلك يقال: العادةُ طبعٌ ثانٍ، ويقصد أنها تشبه الطبع الأول -وهو الخُلُق الطبيعي- في شدّة ثباتها ورسوخها في النفس، حيث تتجذّر فيها فتصبح قوية وشرسة، وفي المقابل تضعف إرادة الإنسان تجاهها.

سيطر على المصدر:

كثــيراً ما يشكــو الأزواج من عادات سيئة متجــذرة في شريك الحياة، يرغب في تغييرهــا، ككــثرة الأكل أو النوم، أو تصرفات مقــززة وباعثة على الاشمئزاز، ومكافحة العادة السيئة وإن كانت عسيرة إلا أنها لم تصل إلى حدّ الاستحالة، فلا يصــح بحــال من الأحوال أن يتولد اليأس لدى الإنســان المأسور بها، ولكن متى ما أراد بصدق النجاح في هذا المضمار فليعمل على تهيئة نفسه للدخول في أتون هذه المعركــة، وليعلم أن الفكر والذهــن هو المنبع الذي تتدفق منــه سائر التصرفات، فمتى سيطرت على المصدر أحكمت السيطرة على كل ما يتدفق منه !!.

وممــا يلفت النظر في هذا الجانب الخطوات التي وضعها الخبير/ أنتوني روبنز، من أجل السعي إلى تغيير العادات السيئة، وذلك في كتابه (أيقظ قواك الخفية)، ويمكن تلخيصها ههنا مع إضافة ما هو مناسب، من خلال الآتي:

- قــرر ما تريد تغيــيره بالضبط: وذلك من خلال تحديد العــادة التي تريد الإقــلاع عنها، وتلقين النفس بأن الشيء الذي اعتادت عليه أمر سيء، مع ضرورة التنبه إلى اكتشاف العادات السيئة التي قد لا تعي بوجودها أصلاً، نظراً لاستمرارك عليها.

- اربط الألم بعدم التغير والمتعة بالتغير: فهذا مما يساعد على التغيير، بأن تربط الألم الذي قد يلحقك أو يلحق من تحب بعدم التغيير، كما أن عليك تخيّل مدى المتعة التي سوف تتحصل عليها من خلال التغيير.
- استخدم كل قدراتك وامنح نفسك الوقت الكافي: فاستخدم كل قدراتك من أجل إنجاح قرارك، واعمل على تهيئة كل ما لديك من عزم وإرادة، واستثمر كل طاقاتك من أجل بلوغ الهدف الذي تريد تحقيقه، فإرادة الإنسان محرك هائل يكافح كل عادة سيئة ويحارب كل ميل متطرّف، وفي المأثور عن سفيان الثوري رحمه الله: ما ضَعف بدنٌ قطّ عن مَبْلَغ نيته.
- ابتكر بديلاً جديداً يمنحك القوة: وذلك من خلال استبدال العادة السيئة بالعادة الحسنة، فإن للعادات الجميلة مراحل في السلوك –كما هو شأن العادة السيئة– حتى تصير عادة وملكة في النفس، وقد تستصعب فعل الأمر الحسن في أول الأمر، لكنك متى ما واظبت عليه تحول إلى عادة.
- كرر النمط الجديد ليصبح عادة: من خلال الحرص على المواظبة عليها مهما كانت الظروف أو الأحوال، وتكرير النمط الجديد له، حتى يصبح عادة، فتحلّ العادة الحسنة محل العادة السيئة، ولعل مما يؤكد ذلك ما جاء عن بعض السلف: تعودوا الخير، فإنما الخير عادة.
- وأيضاً: اختبر نفسك فيما أنجزته، مع العمل على إيجاد بيئة تغيّر مناسبة.

وأخيراً أهمس في أذنيك من أعماق الفؤاد: لا تتوقف منتظراً المساعدة من أحد، ومتى ساعدك إنسان فلا تتصور أن يستمر دوماً في ذلك !، اصنع بعقلك من أعصابك ومشاعرك وبيديك وجوارحك ظروفاً تعمل على إعانتك، وابتعد

عـن التفكير في الاستسلام للظروف التـي تراها قاهرة، وتجهـز بكل مبادرة ممكنة، وحينها سوف تضع قدمك في أول طريق التغلب على عاداتك السيئة.

احذر:

وليحذر أيضاً الأزواج في هذا الجانب تعويد شريك الحياة على أمر مادي أو معنـوي ممـا يُتعلق به ويُتمسـك به بشدة، مع علمه مـن نفسه وقدراته عدم استطاعته الاستمرار فيه، ونحن ههنا لا نمنع العطاء ذاته، بل نحث عليه دوماً ونؤكـده، وإنما نخوّف من تركه بعد تكرار بذله، وقد قال بعض الحكماء: عادة السـوء شرّ مـن المغرم، ومعناه أنك إذا عوّدت الإنسـان شيئاً ما، ثم منعته إياه كان أشد عليك من الغريم، ومنه قولهم: أعطِ العبد ذراعاً يَطلب باعاً.

ووفد قوم على أحد الخلفاء، فقال بعضهم:

والله ما ندري إذا ما فاتنا
طلب لديك من الذي نتطلب
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد
أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا
أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمـر لـه بألف دينار، فعـاد إليه من قابـل، وقال: إن الـرويّ – أي: قول الشعر- لينازعني، وإن الحياء يمنعني، فأمر له بألف دينار أخرى !!.

إضاءة:

رتابـة الحياة قد تخلق نوعـاً من الإدمان والتكيّف...لا يحبذ بعض الناس العمل على تغييره!!.

القاعدة الخامسة والعشرون

العبرة للغالب الشائع لا النادر

هذه قاعدة فقهية معقولة المعنى، يعبر عنها الفقهاء أحياناً بقولهم: الحكم للغالب دون النادر، وبقولهم: النادر لا يُفرد بالحكم، وهي تفيد أن الأصل في الشريعة حمل الأمور والأحكام على ما يغلب ويكثر وقوعه، لا على ما يقلّ ويندر؛ ذلك أن النادر الشاذ لا حكم له، ولا يلتفت إليه بجانب الكثير الغالب.

ولا شك أن الحياة الزوجية تمرّ بمواقف صعبة وصدمات مزعجة ومحطات مؤلمة، لكنها في الغالب تعدّ قليلة ومؤقتة مقارنة بمشوار السعادة الزوجية الطويل والحافل بالصفحات المضيئة، إلا أن تركيزنا عليها يعمل على تضخيمها وجعلها كبيرة في أعيننا، بينما الحكمة تدفعك إلى النظر دوماً باتجاه الجوانب المشرقة الغالبة في الحياة، وفي المقابل محاولة تناسي النزر القليل الذي قد يعكرها ويكدر صفوها.

لم أر منك خيراً قط:

لا يستطيع زوج مهما أوتي من إمكانات ومقدرات أن يعطي امرأته كل شيء، وإن استطاع أن يمنحها الكثير من المطالب المادية، فسيحدث تقصير في المطالب المعنوية ولا بد، هذه سنة الحياة، ما تأخذه من جوانب منها تفتقده في جوانب أخرى، وقد قال الكاتب الفرنسي جورج كورتلين ساخراً : الزوجة لا ترى ألبتة ما نفعله من أجلها، إنها لا ترى إلا ما لا نفعله من أجلها !.

وكثيراً ما يحصل وقت الأزمات واشتداد الكربات من المرأة - إلا ما ندر - نسيان خير أسدي إليها، وقد يكون في بعض حالاته أمراً عارضاً مؤقتاً وردة فعل آنية وتعبيراً عن الغضب حالما تفيق منه الحصيفة من النساء وتراجع نفسها وتعتذر، لكنه واقع منها في الغالب ولا بدّ، وقد أخبر النبي ﷺ أنه أُري النار فإذا أكثر أهلها النساء، وسئل: بم يا رسول الله ؟، فقال: «بكفرهن، يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط».

ولا ننكر ههنا أن المرأة بطبيعتها انفعالية وحساسة جداً تجاه مواقف الحياة المؤلمة والصعبة، وقد تعجز في تلك الأوقات عن كبت شعورها بالإرهاق والحرمان والظلم، وتتجه كثيراً نحو التعبير عنه والتنفيس عن نفسها، فيظهر ذلك في صورة من التشكي أو الحسرة أو التظلم، كما أنه ليس من الضرورة أن تقصد - حرفياً- جميع ما تتلفظ به في موجات الغضب العارمة، بل تلك ثورة وقتية تنحى فيها منحى المبالغة والتعميم، وترتبط بظروفها الحالية التي سرعان ما تزول بزوالها...ولا يعني هذا بأي حال تبرئتها من المسؤولية تجاه

الكلمات التي تلفظت بها، لكن الرجل الحصيف لا يدقق كثيراً في الألفاظ العابرة، ويعمل على ضبط نفسه وتفهّم نفسية امرأته، خصوصاً إذا راجعت نفسها واعتذرت عما بدر منها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث:

إن المرأة الحصيفة من ترى الجوانب المتلألئة واللحظات المضيئة والصفحات المشرقة في حياتها الزوجية أكثر، وتغضّ الطرف عن الهفوات والزلات، ولا تلتفت إلى المنغصات والأزمات، التي قد تمر مرور الكرام، فذلك مما يعين على تجاوز المشاكل والخلافات التي لا يسلم منها أي عش زوجية،

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الشرع والعقل على أن من كثرت حسناته وعظمت، فإنه يحتمل منه ويعفى عنه ما لا يكون لغيره، ومن المعلوم أن المعصية خبث، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث !، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث، وأن هذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم: أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة كما قال أحدهم :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد

جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال الآخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً

فأفعاله اللائي سررن كثيرُ

✍ ولا يوم الطين !:

أسـوق هذه القصة لكل زوج حصيف سمـع امرأته يوماً تقول له: ما رأيت منك خيراً، علّه يهـدأ روعه، وتخف الوطأة عليه، فلا إخاله سيصنع مع زوجه نصف ما صنع المعتمد بن عباد مع زوجه اعتماد الرميكية، بل ولا ربعه !.

فهـذا ابن حاكم إشبيلية محمد بن عباد، وكان فطناً لبيباً وشاعراً أديباً، وذات يـوم كان يتنزه مع مرافقه ابن عمار على ضفاف نهر، فأُخذ بمنظر الماء المتموج، فقال: صنـع الريح علـى المـاء زَرَد (والزرد: الدرع المزرودة بالحِلَق، يتداخل بعضها في بعض)، وطلب من ابن عمار وكان شاعراً أن يكمل ما نظمه، فأطـال ابـن عمّـار الفكرة وأفحـم، ولم يأت بشـيء، وكان علـى شاطئ النهر جـوارٍ يملأن الماء في جرار، فقالت إحداهن: أي درع لقتالٍ لو جمـد، فالتفت ابـن عبـاد إلى حيث الصوت، فكانـت جارية اسمها اعتمـاد في غاية الجمال، فتصـدى لها معجباً بفطنتها وجمالها، وسألها عنـد من أنت؟، فقالت: جارية عنـد الرميك بن حجاج - وكان تاجـراً تنسب إليه، وتولى تعليمها حتى برعت في الأدب ونظم الشعر- فاشتراها من سيدهـــا، وأغلى في سبيلها الثمن والمهر واعتقهـا، فلم تُحمل إليه كجاريـــه، بل كزوجـــة وأميرة، ثم إنه لما تولى الأمر اشتق اسم الملك من اسمهـــا، فتلقب بالمعتمد.

هـذه الزوجة التي أحبها زوجها وأكرمهـا غاية الإكرام، طلبت من المعتمد ذات يـوم أن يريهـا الثلج، فزرع لها أشجار اللوز على الجبل، حتى إذا نوّر زهره بـدت الأشجـار وكأنها محملة بالثلـج الأبيض، وجاء أيضا أنّهـا رأت من خلال شرفتهـا بإشبيلية نساء البادية يبعن اللبن في القرب، وهنّ رافعات عن سوقهنّ

في الطين، فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيّر الجميع طيناً في القصر، وجعل لها قِرَباً وحبالاً من الحرير، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين!.

ثم إنه بعد زمن خُلِع من الملك، وسجن في المغرب، فتخاصمت زوجه معه ذات يوم، فقالت له: والله ما رأيت منك خيراً، فقال لها: ولا يوم الطين ؟، فاستحت حينها واعتذرت له، وجرى قول ابن عباد: (ولا يوم الطين) مثلاً يُضرب به في إنكار المرأة لنعمة زوجها عليها.

وإتماماً للفائدة وحتى يُعلم كيف تتقلب الدنيا بأهلها، فبعد أن خُلع المعتمد بن عباد من ملكه، وأضحى فقيراً معدماً سجيناً، وفي يوم عيد رأى بناته قد جئن للسلام عليه، وهنَّ بلباس من ثياب خَلِقَة وأطمار مُرقعة، وكن يعملن في الخياطة، وقد بدا على وجوههن العوز والفاقة، فخنقته حينها العَبْرة، وقال شعراً يفيض بالحزن والأسى:

ترى بناتك في الأطمار جائعةً
في لبسهنّ رأيت الفقر مسطورا
معاشهنّ بعيد العزّ ممتهنٌ
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً
عيونهنّ فعاد القلب موتورا
قد أُغمضت بعد أن كانت مفترةً
أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافيةً

تشكو فراق حذاءٍ كان موفورا

قد لوّثت بيد الأقذاء واتسخت

كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

لا خدّ إلا ويشكو الجدب ظاهره

وقبل كان بماء الورد مغمورا

إضاءة:

أحياناً يغلق في وجوهنا باب حديقة غناء تطلّعنا إليها، مع فتح أبواب حدائق أخرى لا تقلّ عنها روعة، لكن كثيراً منا يظل واقفاً حسيراً على غلق ذلك الباب، كأن حياته متوقفة عليه !.

القاعدة السادسة والعشرون

الغُرم بالغُنْم والغُنْم بالغُرم

لهذه القاعدة الفقهية صيغ مقاربة، كما في قول بعض الفقهاء: الغُرم مقابل بالغُنم، والغُنم مقابل بالغرم، من له الغُنم عليه الغُرم، والمقصود بالغُرْم: الخسارة أو ما يلزم الإنسان، وبالغُنْم: الربح أو ما يحصل له من منافع مطلوبة، فمفاد القاعدة أن ما يلزم الإنسان من تبعات شيء مطلوب له تكون في مقابل حصول منافع ذلك الشيء، فمن له الربح عليه الخسارة، وهكذا العكس من عليه الخسارة له الربح.

وفي الحياة الزوجية قد يضطر الإنسان إلى التنازل عن بعض التطلعات نظير تمتعه بمزايا أخر، ولا يصح أن يطالب بالتمتع بكافة الخصائص والمزايا، بل متى ما غنم جانباً كبيراً منها، فلا بد أن يغرم جوانب أخر؛ إذ الغرم بالغنم.

✍ توازن في المكسب والخسارة:

معظم الخبراء والمتخصصين يميلون إلى ترجيح مبدأ التوازن في الحياة الزوجية، كما أن ذلك يعدّ الأقرب إلى الحسّ السليم لدى معظم الناس، فالإنسان يأخذ أشياء ولا بد في الوقت ذاته من خسارته لأشياء في مقابلها، هذه سنة الحياة وضريبة النجاح، وحينها يتحقق التوازن الساري في غالب حياة الناس.

إن هذا التوازن في حقيقته عامل أساس في استقرار الأسر وراحتها، والرضا بما تحصل للإنسان من متعها، وكم يخطئ كثير من الناس حينما يزهدون فيما بين أيديهم، ويتطلعون إلى ما في أيدي غيرهم، أياً كان ذلك المُتَطَلَّع إليه من مكاسب مالية أو معنوية، فذلك أمر يورث الغموم والحسرات، كما قال أُبي بن كعب رضي الله عنه: من يتبع بصره فيما في أيدي الناس يَطُلْ حُزنه، قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه: ١٣١).

وكم هو جميل حين ينظر الإنسان إلى من هو دونه في أمور الدنيا، فهذا معيار ناجح وتوازن نافع؛ يُبصِّر الإنسان بالنعم والمكاسب التي يرفل فيها، كما أرشد إلى ذلك النبي الكريم ﷺ بقوله: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**».

قال أحد الحكماء: ما شكوت الزمان، ولا برمت بحكم السماء، إلا عندما حفيت قدماي، ولم أستطع شراء حذاء، فدخلت مسجد الكوفة، وأنا ضيق الصدر، فوجدت رجلاً بلا قدمين، فحمدت الله وشكرت نعمته !.

✍ لا يمكن أن تحوز كل شيء:

إن قوانين الحياة وسننها ثابتة على مرّ التاريخ واختلاف الشعوب، فالإنسان لا يُمنح في الدنيا كل شيء، ولا يمكن له مهما بلغ في السلطة والجاه والمال أن يحوز كل شيء فيها، وأن يختصر كل سعادتها في ذاته وشخصه، لقد علمتنا تجارب الحياة أنه لا يمكن أن تحصل على كل شيء، وتستمتع بكل شيء في الوقت ذاته، فنحن نرى في الحياة زوجات يتمتع أزواجهن بمناصب عليا أو وجاهة اجتماعية أو دخول في عالم رجال الأعمال، إلا أنهن يشتكين في الوقت ذاته من بعد الأزواج وانشغالهم أو ضعف تواصلهم وعلاقاتهم الحميمية.

وإذا كانت الحكمة السياسية تقول: لا تحصل على كل شيء، ولكن تحصل على ما تفاوض عليه، فإننا يمكن على نسقها أن نقول: لا تحصل على كل شيء، ولكن تحصل على ما يمكنك الاستمتاع به، وبناء عليه فمن الحصافة أن تحدد موقفك وتدرس إمكاناتك، فما دمت قد حصلت على أشياء لم يحصل عليها غيرك فهذا نجاح في حد ذاته، وليس من الحكمة أن تتطلع بتشوف مهين إلى كل ما عند الآخرين، وأنّى لك تلمّس معاني السعادة وداخلك مملوء من جراحات الطمع، وعلى قدر تعقلك وتمتعك بما بين يديك ستكون أهدافك محددة وواضحة المعالم في حياتك، وبإمكانك السير في ضوئها بخطى ثابتة.

✍ حكمة مويضي:

في قصة متداولة تقول جدة حصيفة لحفيدتها التي اشتكت من قوة شخصية زوجها وبعض قسوته: لو أخذتي (خبيل) يمديك تبكين ليل نهار !، وتقولين: ليت شخصيته قوية...ليت أحس برجولته...وليت...ليت...الحرّ

طعمه مـرّ عزيزتي،كنا نرضى بالتضييق والصرامـة والصلافة من الزوج... نهدّيه ونراعيه ونلـيّن رأسه، أهم شيء نحسّ برجولته...وقوة شخصيته...كنا نحسـد من زوجهـا صارم...وشخصيته قوية...ولا يقبل الحـال المايل !، فهذا المشهور بين الناس أنه ممن يعتلي قمة الرجولة.

ولعـل مما يشهـد لهذا قصـة مويضي المطيريـة رحمهـا الله، فقد كانت شاعـرة ذات عـزة نفس، لا تقدر على صلابـة الأزواج ذوي الشجاعة والمهابة، فكبـار الهمـم يلحق نساءهـم شيء مـن أذى شدتهم في الغالـب، ويحكى أنها تزوجـت بدايـة الأمر رجلاً شجاعاً مـن علية القوم، لكنه قليـل الاهتمام بها، وربمـا أغلـظ لها المعاملة، مما حـدا بها إلى طلب الطلاق منـه، لتتزوج رجلاً ضعيفـاً من وسط الناس، كـي تستطيع أن تسيطر نوعاً ما عليه، فهي تعلم أنها لا بـد أن تغرم وتضحّي بالحصول على الرجـل الشجاع في مقابل تمتعها بزوج يتماشـى مع رغباتها، ولذا يسمـى أشباه الرجال برجـال مويضي !!، وتحدثنا القصـة أن للشاعـرة أختاً كانت تفاخـر بزوجها الذي يعدّ مـن رؤوس القبيلة وشجعانها، فتقول لأختها مويضي:

شـوقـي غـلـب شـوقـك عـلـى هـبّـة الـريـح

ومحـصّـلٍ فـخـر الـكـرم والـشـجـاعـة

فــردت مـويـضـي عـلـى أخـتـهـا بـقـولـهـا:

مــاهــوب خــافـيـنـي رجــال الـشـجـاعـــة

ودّي بــهــم مــيــر الـمـنـاعــيـر صـلـفـين

ودّي بـمـنـدس وسـط الـجـمـاعـة

يرعى غنمهم والبهم والبعارين

وإلى نزرته راح قلبه رعاعة

يقول: يا هاي الحشا ويش تبغين؟

وإن قلت له هات الحطب قال طاعة

وعجل يجيب القدر هو والمواعين

لو أضربه مشتدّةٍ في كراعه

ما هوب شاكيني ولا الناس دارين

وهنا نهمس في أذن كل زوجة حكيمة: إن كانت زوجك من ذوي الشخصية القوية والشجاعة والمهابة، فتحملي بعض حزمه وشدته عليك، واعلمي أنك تحوزين الفخر به في مقابل ما قد يحصل لك من أذى شدته، وإن كان العكس فكما تنعمين بموافقته لك فلا بد أن تخسري شيئاً من الفخر والاعتزاز به، فالغرم بالغنم والغنم بالغرم !!.

✍ شهادة حية:

وفي القصص المحكية أن زوجاً كان على قدر كبير من الثراء، إلا أنه كان في أكثر الأوقات مشغولاً بإدارة أعماله وشؤونه المالية، ولا يجد وقتاً كافياً للجلوس مع زوجته وأسرته وقضاء جلسات الأنس والبهجة وهدوء البال، بينما كان جاره من ذوي الدخل المحدود، حيث يعود مبكراً إلى منزله، وتصدر منه أصوات اللعب والضحكات.

وكانت زوجة الثري تنظر من شرفتها نحو هذه العائلة المتوسطة الحال، وتحسدهم على تلك السعادة الطاغية التي تفتقدها، فتحدثت ذات يوم مع زوجها قائلة له : ماذا تنفعنا هذه الأموال الكثيرة ونحن لا نجد طعماً للسعادة،

ولا يكاد الواحد منا يرى الآخر، بينما هذه العائلة المجاورة لنا لا تملك الكثير من المال، وأفرادها في غاية السعادة والهناء، وهنا وعد الرجل الثري زوجته أن يتفرغ لعائلته، وأن يعمل على تخصيص وقت مناسب لقضائه معهم في جلسات هانئة.

وفي اليوم التالي أرسل الرجل الثري من يدعو إليه جاره المتوسط الحال، فذهب إليه واستقبله الجار الثري بلطفٍ وأكرمه، وتحدّث معه بهدوء وكان مما قال له: لمَ تجلس كل يومك في بيتك، أليس عندك أعمال تشغلك؟ ، فقال الجار: اعمل ما تيسر، وبعدها أعود إلى منزلي، فاقترح عليه الثري أن يعطيه بعض المال على سبيل السلفة، ويشتري به بضائع ويتربح منها، وأعلمه - بحكم خبرته المالية- بأماكن بيعها بالجملة وكيفية تصريفها على محلات التجزئة، وهنا وافق الجار ووجدها فرصة سانحة لتحسين دخله ومستواه وحياته.

وبعد فترة من الزمن نظر الرجل الثري من شرفة منزله إلى منزل جاره، الذي اختفت منه أصوات اللعب والضحكات، فوجد الجار مشغولاً ببضائعه وترتيبها، فابتسم ابتسامة عريضة ملؤها المكر والخبث والدهاء، وقال لزوجته: أهذا هو الزوج الذي يقضي كل أوقاته مع زوجته وأولاده ؟، انظري إليه ماذا يفعل الآن !، فتعجبت الزوجة لتغيّر الحال، ولم تعرف السبب الذي سلب تلك الأسرة سعادتها التي كانت تحسدها عليها، بينما التفت زوجها وهو يشيح بوجهه ليخفي ابتسامة ماكرة كانت ترتسم على شفتيه !!.

إضاءة:

الاستمتاع الصادق بما هو متاح بين يديك كفيل بإزاحة مرارة التطلع إلى ما في أيدي الآخرين.

القاعدة السابعة والعشرون

الفعل أقوى من مجرد القول

هـذه القاعـدة الفقهية يريد بهـا الفقهاء بيان أن الأسبـاب الفعلية في التصرفـات والعقـود ونحوها قد تكـون أقوى مـن الأسباب القوليـة المجردة، فتقـديم الطعـام للضيف ووضعه بين يديه مثلاً يكون مـن الصراحة بمكان في إباحة التناول منه.

وبناء عليه فإن مجرد الكلمات والأقوال وبث المشاعر في العلاقة الزوجية لا تكفـي، ما لم تترجم إلى أرض الواقع بتصرفات وأفعال تؤكدها وتسمو بها؛ إذ الفعل أبلغ من مجرد القول.

محطة الأفعال:

لا شك أن الفعل الصادق أبلغ وأقوى تأثيراً من مجرد القول، وقد قال بعض الحكماء:فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، فالقول والعمل أهم من القول المجرد...ولذلك نلمس من أكثر الناس استسهال ركوب موجة الكلام ، لكنهم يجدون عناء ومشقة كبيرة حين يُطلب منهم الانتقال إلى محطة الأفعال.

وقد يكتفي كثير من الأزواج بالكلمات والمشاعر المجردة فحسب، ويعدونها صورة مثلى وكافية في مدارج الحياة الزوجية، وأن ذلك لوحده يكفل تأسيس بناء شامخ مؤثر وفاعل بين الزوجين، بينما نجد في المقابل تأكيد القرآن الكريم على أهمية ربط القول بالعمل، وأن مجرد القول والادعاء والارتباط الوجداني المندرج في إطار التفاعل العاطفي أو النفسي فحسب لا يكفي في إثبات التدين الحق، ما لم يترجم ذلك كله إلى عمل وفعل وشاهد في واقع الحياة، فقال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١) ، وهذه الآية الكريمة يعدها كثير من أهل العلم آية امتحان واختبار، كما قال بعض أهل العلم :لما ادّعت القلوبُ محبَّةَ الله، أنزل الله لها هذه الآية محنةً.

إن الفعل بحق لسان الحال، وهو أبلغ عند الناس من لسان المقال، ومثل الحب بلا فعلٍ يؤكده كمثل الأرض السبخة الجدباء التي لا تنبت كلأً ولا تمسك ماء، وهي وإن بقيت عبر السنين، إلا أنها لا تنمو ولا تثمر، ولَموقف واحد مليء بمعاني الحب والوفاء والتضحية خير من ألف رسالة موشاة بأعذب الكلمات

ومنمقــة بألطف العبارات، وقد قال ابن الجـوزي رحمه الله في صيد الخاطر: الدلالة بالفعل أرشد من الدلالة بالقول.

وقال بعض الحكماء: في الحب خطابات نبعث بها، وأخرى نمزقها، وأجمل الخطابات هي التي لا نكتبها !!.

وقال الشاعر:

والمـــــرء لـيـسـن بـصـــــادق في قــولـه

حـــتــى يـــؤيـــد قـــولـــه بـفـعـالـه

وصدق أبو تمام حين قال :

الـسـيـف أصـــدق إنـبـــاءً مـــن الـكـتـب

في حــده الحـــدّ بـــين الجـــدّ والـلـعـب

وهــذا مــا تؤكده أمثال الأمم على اختلاف أجناسها ولغاتها، ففي المثل: العمـل أبلغ خطـاب...وفي أمثال الأمم : صوت الأفعال يعلـو صوت الكلمات... وفيها أيضا: الأفعال تتحدث بصوت أعلى من الأقوال، وفيها: الثرثرة زبد الماء والفعـل قطرة من ذهب...وهناك عبارة متداولة تقول: إن ما نقوم بفعله يتكلم دوماً بصوتٍ عالٍ جداً.

وفي أمثال العامة : أسمع كلامك يعجبني، أشوف فعلك أتعجب !!.

وإذا كان خـبراء العلوم يؤكدون علـى الحاجة إلى التطبيق العملي بجانب الدراسـة النظريـة لتأكيدهـا، كذلك في علاقتـك مع شريك الحيـاة!!، تقول الطبيبـة النفسيـة جوان بوريسينكو: إن الروح ترتقـي عندما تتبادل الحب مع الآخرين، فالحب - بالرغم من كل شيء – فعل...وليس مجرد كلمة !!.

بل قد نجد بعض المبالغة من قبل الكاتبة والطبيبة النفسية شيريل رديتشاردسون حينما تقول: الحب تمثله الأفعال، ولا دخل للكلمات فيه بأي حال من الأحوال.

ويقول أحد الحكماء: إذا أحبت المرأة فعلت كثيراً، وتكلمت قليلاً.

ولذلك يذكر ستيفن كوفي في كتابه (العادات السبع) أن الكتابات العظيمة تؤكد أن الحب في حقيقته فعل، بينما يميل كتاب السيناريو في هوليوود إلى خداع الناس ودفعهم إلى تصديق أننا لسنا مسؤولين وأننا نتاج لمشاعرنا فقط، وسيناريوهات هوليوود لا تصف الواقع، فالناس المبادرون يجعلون الحب فعلاً، والحب هو شيء تقوم به وتضحيات تبذلها وتخلٍّ عن الأنانية، كما تفعل الأم التي تلد طفلاً إلى العالم...وإذا كنت والداً فانظر إلى الحب الذي تكنه لأبنائك والتضحيات التي تبذلها من أجلهم، فالحب هو قيمة تتحول إلى واقع من خلال الأفعال التي تدل على الحب.

خزان الحب:

ولا بد في هذا الصدد من التذكير بأن الأفعال مهما كانت أهميتها، إلا أن للكلمات العذبة المتدفقة جرسها ورونقها ووقعها في النفوس، حيث تذكر دوماً بالإعجاب بمن نحب، فلا يعني الحديث ههنا بأي حال من الأحوال التقليل من شأن الأقوال والكلمات الفياضة في الحياة الزوجية، بل يبقى لها دورها الرائع في تقوية الصلات والوشائج، كما قال الشاعر نزار قباني في إحدى قصائده : «قولي أحبك كي تزيد وسامتي، فبغير حبك لا أكون جميلاً، قولي أحبك كي

تصير أصابعي ذهباً، وتصبح جبهتي قنديلاً».

وإنما حديثنا ههنا عن الكلمات المجردة الجوفاء التي لا تؤيدها التصرفات والأفعال، ولا ترفرف بها متألقة في فضاء الشوق والمحبة، وهذا ما يشعر به الكثير، حيث يرون أفضل مشاعر الحب ما صدرت من دون كلمات، لتكون التصرفات والأعمال بذاتها رسائل الحب الحق، في زمن نلمس فيه طغيان الأقوال وغياب الأفعال !.

وهكذا الشأن في العلاقة الزوجية، لا بد أن تتمثل المشاعر والأحاسيس المتدفقة في واقع محسوس متحرك، من خلال الموقف الأمين والفعل الصادق، ولذلك لما تطرق ابن القيم رحمه الله في روضة المحبين إلى علامات المحبة وشواهدها، ذكر أن ذلك يعود كله إلى تصرفات تمتزج بالقلوب وتؤكدها، وأن من علامات ذلك: إدمان النظر إلى الحبيب وإقبال العين عليه، وعلّل ذلك بأن العين باب القلب، وهي المعبرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره، وهي أبلغ في ذلك من اللسان؛ لأن دلالتها بغير اختيار صاحبها، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصده، ومن علاماتها: الإقبال على حديث الحبيب وإلقاء سمعه كله إليه، بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه، ومنها: سروره بما يسر به محبوبه كائنا ما كان، وإن كرهته نفسه، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه يكرهه طبعا ويحبه لما فيه من الشفاء، ومنها أيضاً: الانقياد لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحب، وهذا علامة المحبة الصادقة، بحيث يكون مراد الحبيب والمحب واحداً، فليس بمحب صادق من له إرادة تخالف مراد محبوبه منه، بل هذا مريد من محبوبه

لا مريـد له، قال: فالمحبون ثلاثة أقسـام، منهم من يريد من المحبوب، ومنهم مـن يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبـوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين.

إنه لا يعيب الزوجان مطلقاً أن يظهر حبهما، وتبدو شواهده، من لحظ في العيـون، وهمسـ في الآذان، وحسن تبعلٍ ووله وشـوق إلى لقاء، فالحب متى ما قادته العواطف والمشاعر فحسب أوشك أن يتهاوى فسطاطه، وتنطمس أنواره، وقد قال الشاعر:

لا خـيرـ في الحُـب لا تَـبـدو شـواهـدُه

ولا تَـرى منـه في الـعيـنين عُـنـوانـا

ولعـل مما يؤكد هذا ما ذكـره الطبيب النفسي جون غراي من أن الرجال يرغبـون عـادة في التقديـر لأعمالهم التي يقومـون بها، وردّ الفعـل الودي من جانـب نسائهم، فللرجل خزان حب دوماً ما يمـلأ بالطريقة التي تتصرف بها المرأة تجاه شريكها.

لغة الهدايا:

إنها شفيع الحب، والإيداع الإيجابي في بنك المشاعر والأحاسيس، وأجمل اللغـات في العلاقـات لغـة الهدايا، فالهديـة دوما لسان حـال المحبين، لها في الحياة الزوجية لغة خاصة فريدة تتكلم بها لا يفقهها إلا الأزواج، ويستخدمانها لتوصيـل معان معينة للطرف الآخر، فقد يراد بهـا توصيل رسالة تحمل معنى التجديـد العاطفي، أو العرفان والشكر، أو المودة والألفة، أو إبداء الأسف حين

يصعب التأسف باللسان.

ولعلنـا لا نبالغ إن قلنـا: إن أفضل التجارب الأسرية دائماً ما تنجح إذا ما اقترنـت بوجـود التفكير العملي بـين الزوجين من خلال تبـادل الهدايا، سواء المادية منها أو المعنوية، والتي تعبّر كثيراً عن الامتنان لمواقف قد تكون صغيرة، لكنهـا في الوقت نفسـه ذات أثر ظاهر ملحوظ لدى الطـرف الآخر، كيف وقد قال النبي ﷺ: «**تهادوا تحابوا**».

ولذلـك يؤكد الخبراء أن الهدية تعد في ذاتهـا رسالة رقيقة مفعمة تحمل بـين طياتها كثيراً من المعاني المتدفقة، ولها تأثير قوي في النساء خاصة، حيث تعمل على تفعيل مشاعر الحب وتعميقها، وتذكر بوجود طرف ترتبط به برباط وثيق، وقد ذكر الطبيب جون غراي أن النساء دوماً يرغبن في التقدير العاطفي لأنفسهن من قبل أزواجهن، فالمرأة قد لا تأبه بعمل زوجها طوال الوقت لزيادة المصروف، بقدر ما تشعر بالحب لقاء هدية بسيطة يقدمها الزوج.

كمـا ذكـر الدكتور جـاري تشابمان في كتابـه (لغات الحـب الخمس) أن الهديـة قد تكون لغة الحب الأساسية لشريـكك في الحياة، وعندها يمكنك أن تكـون مانحاً رائعاً للهدايا، فالهدية شيء يمكن لشريك الحياة أن يمسكه بيده ويقول: كم هو رائع أن يفكر فيّ، فعندما تعطي شخصاً هدية ما، هذا يعني أنك تفكر فيه، فالهدية في حد ذاتها رمز لذلك التفكير والاهتمام، بغضّ النظر عن قيمتها.

قال الفضل بن سهل: مـا استرضي الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا

سُلّت السخائم، ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توقي المحذور بمثل الهدية.

وفي أمثال بعض الأمم: الهدايا تفتت الصخور.

وفيها أيضاً: للوعد ساقان، وللهدية يدان.

إضاءة:

جـرّب العيش في عـالم الأفعال... حينها ستشعر حقـاً كم هي رائعة القيم والمبادئ التي تتبناها.

القاعدة الثامنة والعشرون

القديم يترك على قدمه

هذه القاعدة يريد بها الفقهاء التأكيد على أن ما هو قديم فالأصل أن يبقى حكمه على ما هو عليه، فبقاؤه مدة على حالته دليل على أن الأصل الاستمرار على حالته السابقة.

وهذا ما يمكن الاستفادة منه في العلاقات الزوجية، وذلك بان يعمد الزوجان إلى طيّ صفحات الماضي السوداء بأكملها، ونسيان تلك الصفحات التي لا يجد فيها الطرفان إلا العناء والتعب، وكل ما فيها يذكر بالآلام والجراح، والعمل على استشراف المستقبل المشرق وفتح صفحة جديدة مشرقة ملؤها الحب والتقدير والاحترام المتبادل.

فنّ طيّ صفحات الماضي :

نعم هو كما قال الشاعر:

ما مضى مضى والمؤمل غيب

ولك الساعة التي أنت فيها

كثيراً ما يقلّب أحد الزوجين صفحات الماضي المؤلمة في ذاكرته، وحينها يجد نفسه يسترجع بكل حرقة ذكرياتها المزعجة، ومشاهدها الكئيبة، التي قد تكون كفيلة بتدمير روحه وانهيار مستقبله، فيخضع أسيراً لها يندب حظه في صمت قاتل، وقد يبكي على أطلالها، وقد يثور بصرخات الحسرة والندم تجاه الطرف الآخر، غير آبه إلى حقيقة أن النبش في الماضي كثيراً ما يئد جمال الحاضر وإشراقة المستقبل، فهل سمعت يوماً بسجين عاقل أُعطيت له الحرية فحنّ إلى قضبان سجنه !!.

وليكن في خلد الزوجين أن أي علاقة بين طرفين لا تكاد تخلو من مواقف مؤذية وتصرفات مزعجة تعكر صفو العيش وتنغص الحياة بين الفينة والأخرى، ومن المعلوم أن حصول الخطأ والتقصير شأن بشري، إلا أن الخطورة تكمن حينما يتخذ من ذلك أحد الزوجين وقت الأزمات أسلوب إيذاء وسبيل تأجيج وسلاح تهديد، فيعمد حينها إلى استجلاب أحد الملفات القديمة التي عفا عليها الزمن، كورقه ضغط أو مساومة أمام الطرف الآخر، ناسياً أو متناسياً التوجيه القرآني الكريم :﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ (المائدة: ٩٥).

وأحياناً يحصل العكس بأن يستجلب ذكريات سعيدة، يتحسر على فوتها يقارنها حيناً بحاله التعيسة التي يعايشها، وحيناً يتحسر على ضياع أحلامه!!.

يقول وليام شكسبير: نحن نحب الماضي لأنه ذهب، ولو عاد لكرهناه.

✍ سُمّ ذكريات الماضي:

في دراسة أجرتها صحيفة أمريكية حول مسببات الخلافات الزوجية اليومية، بعنوان: مشكلات الماضي تسمم حياة الأزواج!!، تبين أن جوهر تلك الخلافات يبدو متشابهاً من حيث السيناريو ودورة الحياة التي تصل بها إلى الذروة، ذلك أنها جميعاً تبدأ من خلاف في وجهات النظر حول أمر معين، الذي قد يكون تافهاً للغاية، وأولئك الذين ينجحون في نزع فتيل الاحتكاك هم أصحاب المهارة الناجحة في الحوار والتواصل والتفاوض نحو الوصول إلى حلول وسط.

ولكن! ماذا لو تكررت الخلافات حول الأمور التافهة التي يجب ألا تكون أصلاً محل خلاف!، يقول أحد الخبراء: إن تكرار المشكلات حول الأمور نفسها، أو اكتشاف الزوجين أن حل أي مشكلة يفسح الطريق لظهور مشكلة أخرى تختلف في الشكل والنوع، يعني أن هناك أسباباً خفية تتحكم في العلاقة، ولا تقتصر على ما هو ظاهر على السطح، فعودة الحوادث الماضية للظهور تعني أن تلك المشكلات التي حدثت قبل شهور وسنين لم تحل في وقتها، وإنما تم التغاضي عنها، وبالتالي حصل اختزانها في الذاكرة لتعاود الظهور كلما سنحت لها الفرصة.

والدرس الجوهري الذي يمكن تعلمه من ذلك يسير، يتلخص في أنه لا يصح من الزوجين أبداً أن يسمحا لأي مشكلة بأن تبيت إلى اليوم التالي، من دون التوصل إلى حل نهائي لها، سواء بالإقناع أو التفاهم، أو بالحل الوسط، أو بأي استراتيجية ودية مناسبة غير قائمة على الفرض والإملاء.

وفي هـذا الصدد تعجبني عبارة الروائـي (باولو كويلو) حينما قال: لأنني لا أحيـا في الماضـي، ولا في المستقبـل، فليس لي سوى الحاضـر، وهو وحده ما يهمنـي، إذا كان باستطاعتك البقـاء دائماً في الحاضر، تكـون عندئذ إنساناً سعيداً.

فمتى ما أردت العيش بهناء فلا تعمد إلى نبش خلافاتك الزوجية المدفونة بـين الحين والآخـر، ولا تَلُم إلا نفسـك إذا زكمت أنفك رائحـة رفاتها، وألقت بظلالها القاتمة على أجواء حياتك، والزوج الذي يذكّر الطرف الآخر كل حين بهفواتـه السابقة ويجعـل منها سيفاً مصلتاً في وجهـه، لا يمكن أن يكون ممن تذوق الحب ولامس شغاف قلبه، مهما ادعى خلاف ذلك!!.

إضاءة:

إذا كان الماضـي قـد آذاك أو غرز في صدرك خنجراً أو سمّم علاقتك مع شريك الحياة، فهل من الحكمة أن تستدعيه في الحاضر ليعاود الكرّة !!.

القاعدة التاسعة والعشرون

قطع المنازعة واجب ما أمكن

هذه قاعدة فقهية يراد بها تقرير أن إزالة المخاصمة والاختلاف وإصلاح ذات البين واجب ما أمكن السبيل إلى ذلك، كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾ (الأنفال: ١)، والأصل في الأمر حمله على الوجوب.

والنزاع بين الزوجين أمر محتوم في الغالب ويحصل كثيراً، والقاعدة لا تقرر عدم إمكان حدوثه، بل تدعو إلى السعي في التصالح وقطع دابر الشجار، وتحكيم صوت العقل، وتغليب لغة المنطق، بعيداً عن التشنج والانفعال غير المبرر، أو الإساءة لشريك الحياة، أو التعصب للمواقف والآراء.

لا تغضب:

إن من أيسر طرق قطع المنازعة والشجار بين الزوجين تجنب أسباب الغضب، والبعد عما يثيره في النفوس؛ ذلك أن الغضب جمرة تتوقد في جوف الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، وكثيراً ما يفضي إلى أمور لا تحمد عقباها، وقد جاءت نصيحة جامعة من قبل النبي ﷺ لرجل قال له: أوصني، فقال له: «**لا تغضب**»، فردد مراراً، قال: «**لا تغضب**»، فهذه النصيحة في حقيقتها تحمل توجيهاً مثالياً نحو السلوك الحميد من خلال القدرة على التحكم بأسباب الغضب وتعلم فن إدارة الذات، ولذلك ذكر الخطابي رحمه الله أن معنى الحديث يعود إلى الحث على اجتناب أسباب الغضب وعدم التعرض لما يجلبه.

وعلى الرغم من أن تشابك مجريات الحياة وتعقدها قد تجعل من لحظات الغضب قاسماً مشتركاً بين الزوجين، إلا أن خبراء الطب النفسي يؤكدون على أن ما يميز الزواج الصحي الناجح هو قدرة كل من الزوجين على تخفيف تأثيرات الضغوط والتوترات عن نفسيهما.

إن الإنسان يتصرف عادة عندما يسيطر عليه الغضب بدوافع عاطفية تخرج به عن مقتضيات العقل الرشيد، فينفجر بلا سيطرة على أعصابه بعيداً عن إطار الذوق العام، وقد يدفعه ذلك إلى جرح شريك الحياة بكلمات شديدة الفتك، أو إيقاع الطلاق وإنهاء الحياة الزوجية وهدمها في لحظات، ولذلك سرعان ما يشعر بالألم من تصرفه والندم على ما أقدم عليه، وكم صدق ابن القيم رحمه الله حينما قال: أوثق غضبك بسلسلة الحلم؛ فإنه كلب إذا أُفلت أَتلف.

ولعلنا نلمح شيئاً من ذلك التماشي مع سورة الغضب ثم الندم عليه في الأثر الوارد عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد جاءه رجل وأخبره أنه طلق امرأته ثلاثاً في لحظة غضب، فقال له: ينطلق أحدكم فيركب الحموقة، ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، وإن الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ (الطلاق: ٢)، وإنك لم تتق الله، فلا أجد لك مخرجاً، عصيتَ ربك، وبانت منك امرأتُك.

ومما يحسن إيراده هنا من أقوال وعبارات في الغضب، علّها تُقنع بخطورته:

- جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أول الغضب جنون، وآخره ندم، وربما كان العطب في الغضب.
- قيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله أجمل لنا حسن الخلق، فقال: ترك الغضب.
- وقال بعض أهل الحكمة يوصي ابنه: يابني لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقلُّ الناسِ غضباً أعقلُهم.
- وقيل للشعبي رحمه الله: لأي شيء يكون السريع الغضب سريع الفيئة، ويكون بطيء الغضب بطيء الفيئة؟ قال: لأن الغضب كالنار، فأسرعها وقوداً أسرعها خموداً.
- كثيراً ما تكون عواقب الغضب أسوأ من السبب الذي أشعل فتيله. (الامبراطور الروماني والفيلسوف ماركوس أورليوس).
- من يغضب كمن يتناول سُمّاً وينتظر أن يموت الآخرون. (الكاتب الأيرلندي الأصل فرانك ماكورت).

- إذا تمالكـت أعصابـك في لحظة غضب واحدة، ستوفـر على نفسك أياماً من الحزن والندم. (مثل صيني).

ملح الحياة الزوجية:

يخطـئ كثـيراً مـن يعتقـد أن العلاقـة الزوجيـة الناجحة تتطلـب حياة خاليـة من حدوث المشاكل والخلافـات، فـالشجار بين الزوجين إذا لم يتجاوز الخطـوط الحمراء أمـر طبيعي ولا مفرّ منـه، ذلك أن الحيـاة الزوجية تعني اشـتراك إنسانـين وكائنين تحـت سقف واحـد، والاختلاف بينهمـا في الرأي والـذوق ووجهـات النظـر سوف يعمل علـى تهيئـة الأرضيـة المناسبة لحدوث التصادم والنزاع في كثير من المواقف.

وعلى الرغم من صعوبة النزاع وأثره على النفس البشرية، إلا أن التجارب تؤكد أن الشجار المبرر وفي حدود المعقول وباتباع فن المدّ والجزر فيه، قد يكون مفيداً وإيجابياً لاستمرار العلاقـة الزوجية، باعتباره عاملاً مساعداً في تغيير رتابـة الحياة وتعزيز الثقة بين الزوجين، بحيث يكـون كالملح في الطعام يسهم في كسر الروتين ويزيد الحياة الزوجية طعماً ولذة ومذاقاً.

والخبر الجميل والمشجع ههنـا بحسب بعض الدراسات العالمية أن تفادي الكثـير من الشجار الذي لا مبرر له أصبح أمراً ميسوراً وفي متناول اليد، حيث أوضحـت تلك الدراسات أنـه يُمكن تفادي ٩٠٪ من ذلـك الشجار، من خلال اتباع عدة خطوات مفيدة، ومن أبرزها:

- الحرص على عدم تجـاوز الحدّ الطبيعي خـلال الشجار، فـلا يصح أن يتخللـه تجريح وإهانة وتدمير يسحق الطرف الآخر ويحطم قلبه، ومن ثم قد يعمل ذلك على صعوبة إصلاح الأمور وإعادتها إلى مجاريها.

- الانطلاق من قاعدة الحب والتفاهم وتقبل وجهات النظر، والحذر من تحول زوبعة الشجار إلى عاصفة هوجاء مدمرة تقتلع بناء الأسرة من جذوره.
- تجنب رفع الصوت ومتابعة الصراخ، ومن الجميل تذكر ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).
- الحرص على أن يحقق الاختلاف تكاملا لا تنافرا، والحذر من تسفيه الآراء والاستخفاف بها، والشعور بالتفوق على شريك الحياة، والسعي من أجل السيطرة عليه وقهره.
- أن يكون ذلك النزاع على فترات متباعدة، ومن المناسب جداً أن يتبعه لحظات حميمية صادقة تغسل ما علق به من كدر وشوائب.
- توصي الطبيبة النفسية آنا أميليا ليموس المرأة خصوصاً بتجنب التعميم في حديثها والالتزام بما بين يديها من حقائق، بحيث تحرص على عدم استخدام عبارات مغرقة في العموم، مثل: أنت دائماً تفعل ذلك بي، أو: أنت لا تهتم بي على الإطلاق، أو:أنت في حياتك لم...، فهذا الأسلوب في الحديث من شأنه أن يجعل الطرف الآخر يجنح إلى اتخاذ موقف الدفاع، وكيل التهم في المقابل، كما يسهم في إثارة عصبيته وغضبه.
- الحذر من تصعيد الشجار ليشمل دائرة أوسع، بحيث يتجاوز حدوداً لا يمكن السيطرة عليها، ويعمل على تهديد حاضر الحياة الزوجية ومستقبلها.
- وأخيرا أهمس في أذن كل حواء: الحرص على تجنب قول «لا» في وجه

الـزوج قدر الإمكان، لا أن تتركها مطلقـاً، فهذا من الصعوبة بمكان، فقد أكدت دراسة حديثة على أن كلمة «لا» هي السرّ وراء الكثير من المشاجرات التـي تنشب بين الأزواج؛ لأن الرجل يكره سماع كلمة «لا» من زوجته، حيث تُشعـره بالإهانـة وتمسّ كرامته، حتى لـو كان ما يطلبه غـير منطقي من وجهة نظر الزوجة.

سفراء الإصلاح:

قبـل التفكير في التوجه إلى أي طرف خارجـي لحلّ المشاكل التي تعترض الحياة الزوجية وقطع المنازعات بين الزوجين فإن أنجع السبل في ذلك يتم من خـلال المبادرة إلى كسر الحواجز التي تحول بين تفاهمهما، والعمل على إذابة الثلوج التي تفصلهمـا عبر الجلوس للتفاوض بأعصاب باردة وهدوء تام بقدر الإمكان، واستماع كل طرف للآخر بمحبة وتقدير واحترام.

إلا أن بعض الخلافـات الزوجيـة قد تكون كبـيرة وعميقة بحيـث يعسر على الزوجـين حلها مـن قبل أنفسهما، أو يصعـب التفاهم بينهما فيهـا، لتأزم المشاعر وتوتـر الأحاسيـس، وتمسك كل منهما بموقفـه وقناعاته، فلا يبقـى أمل حينئذ في التصالـح إلا مـن خلال تدخـل أطراف يعملون كسفـراء إصلاح بينهمـا، باعتباره ملجـأ وإجـراء أخيراً لإنقـاذ المؤسسة الزوجية مـن الانهيار، وههنـا يمكن تحكيم طـرف مجرّب وصادق نصوح، له خبرته في الحياة، بحيث يعمل على تهيئة الفرصة السانحـة لنزع فتيل الشقاق وإقنـاع الطرفين بالصلح، وهذا ما أوصى به كتاب الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء: ٣٥).

وذكر الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في (تفسير المنار) أن الآية تشعر بأنه يجب على الحكمين ألا يدخرا وسعاً في الإصلاح، فمتى صحت إرادة الزوجين فالتوفيق كائن لا محالة، وهذا يدل على نهاية العناية من الله تعالى في إحكام نظام البيوت، ولينظر كيف لم يذكر مقابل التوفيق بينهما، وهو التفريق عند تعيّنه، لم يذكره حتى لا يذكّر به؛ لأنه يبغضه، وليشعر النفوس أنه ليس من شأنه أن يقع، وظاهر الأمر أن هذا التحكيم واجب.

إضاءة:

متى ما اشعلتَ نار الغضب في لحظة امتلاء برميل بارود المشاعر السلبية...فلا تنس أن تكون على استعداد تام لتحمل النتيجة !.

القاعدة الثلاثون

قول المتعنت مردود

هـذه قاعـدة فقهية بديعـة، يقرر فيها الفقهـاء أن قول الإنسـان المتشدد المتعمد للعناد والمشقة والأذى والضرر لصاحبه غير مقبول، وعبروا عنها أيضاً بقولهم: لا يلتفت إلى قول المتعنت.

وهكـذا في الحياة الزوجية قد يحصل تعنت وعناد من قبل أحد الزوجين، واستبداده بموقفه أو تصلب رأيه تجاه أمر أو قضية عارضة، مما يدفع بحياتهما إلى طريـق شائك، وقـد يحمل ذلك الطرف الآخر على الرفض السلبي لما يراه من تصرف لا يتوافق مع أحاسيسه ومشاعره.

إياك والتعنت:

إن تعنت الأزواج يقف خلف كثير من حالات انفصام عشّ الزوجية، وهو ما يفضي بدوره إلى نشر الفوضى العارمة، والخلاف المقيت، والشقاق والنزاع، ولذلك أكد القرآن الكريم على ضرورة توفر بذرة إرادة الإصلاح وانبعاثها من الزوجين جميعاً، فقال عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ (النساء: ٣٥)، وقد ذكر أهل العلم في تفسير الآية الكريمة أن أصل الشقاق المخالفة، وكون كل واحد من المتخالفين في شق غير شق صاحبه، أو أن أصله من شق العصا، وهو أن يقول كل واحد من الزوجين ما يشق على صاحبه سماعه، وهو حال المتعنت والعياذ بالله!.

وقد أحسن من قال:

يا ناظري انظر فديتك لا تكن

ممن غدا يبدي التعنت في الأمور

وفي محاولة من قبل المعهد الاجتماعي البرازيلي المعروف باسم (فييسب) لوضع دليل عام يساعد الى حد كبير على إبقاء العلاقة الزوجية متينة وغير قابلة للانهيار التام، حذر في دراسة حديثة له من التعنت في الرأي، الذي لا يعتبر حواراً ولا تبادلاً للآراء، بل هو صب للزيت على النار، وأوضحت تلك الدراسة أن من الناس مَن هم متعنتون بطبيعتهم، ولكن يجب عليهم متابعة سلوكهم بحرص تام، ولو تضمن ذلك المعالجة النفسية إذا كانت حالة التعنت مستعصية على الحل بالحوار أو بالإقناع، ذلك أن الحياة مع من هم متعنتون

في آرائهم ومواقفهم لا تطاق؛ لأن في ذلك فرضاً للآراء على الآخرين، سواء كانت الآراء صحيحة أم خاطئة.

خفة رأس المرأة تثقل قلب الرجل:

قد يحمل ذكاء المرأة المنطقي على تعنتها في كثير من المواقف، وفي الحقيقة قضية ذكاء المرأة محل خطورة إذا لم تتدارك نفسها، ليس بأن تعمل على تكريس عدم ذكائها، فهذا أمر خارج عن إرادتها، ولكن بالعمل على تجنب التماشي مع منطقيته ومثاليته.

ولذلك توصلت دراسة بريطانية حديثة إلى أن ذكاء المرأة أكثر ما يثير إعجاب الرجل فيها، لكن في الوقت نفسه ورغم هذا الإعجاب إلا أن معظم عينة الدراسة رفضت الزواج من المرأة الذكية، وأبدى معظم الرجال رفضهم القاطع للزواج من المرأة الذكية جداً، وكذلك الغبية جداً !!.

كما أكدت دراسة أخرى أجراها مكتب شؤون الأسرة في فرنسا أن ٧٠٪ من الرجال عندما يقدمون على الزواج لا يختارون المرأة الذكية، بل يفضلون متوسطة الذكاء، ويهربون من المرأة الناجحة والمتفوقة في عملها لاعتقادهم أنها ستكون بمنزلة كمبيوتر يرصد الأخطاء ويحاسبهم على كل شاردة وواردة!.

وهذه المحاسبة على كل شاردة وواردة ثمرة من ثمار التعنت التي تقع في وحله تلك المرأة، ويعجبني ههنا استحضار قول الكاتب الساخر برنارد شو: أكثر ما يثير استغرابي في العلاقة بين الرجل والمرأة هو أن أكثر الرجال ذكاء تسيّره امرأة غبية، أما التي تسير رجلاً غبياً فعليها أن تكون على قدر عال من الذكاء !!.

ولا شك أن الرجل بداية الأمر تعجبه أفكار المرأة الذكية، ويحب أن يستمع لكلامها ومحاورتها، حيث تستفزه وتثير غريزة الاستكشاف لديه، وربما

يتجـاوز ذلك ليقع في حبها - أو بالأحرى : ليقع في حب عقلها وأفكارها- ولكن فيمـا هو أكثر مـن ذلك يميل إلى المـرأة الساذجة!!، أو بالأحـرى : المتظاهرة بالغباء ذات الذكاء الأنثوي المغروس في طبيعتها (حيث لا توجد امرأة غبية في الغالب، بل توجد امرأة أكثر ذكاء!!).

ولذلـك تؤكد الكاتبة الألمانيـة (إسترفيلار) على أنّ المرأة لا تركن إلا إلى الرجـل الذي هـو أحدّ منها ذكاءً، وقد تبدو إلى جانبـه كغبية ساذجة، وتقول: فقـط عندما تكون المرأة أضعف مـن الرجل، ثمّ إضافـة إلى ذلك أغبى منه، فإنّها تصبح بالنسبة إلى هذا الأخير طرفاً مغرياً جذّاباً.

وفي هـذا الصدد يوجد مثل فرنسي مفاده: على المرأة أن تبدو ذكية لتجد عملاً...وغبية لتجد رجلاً !!.

وحتـى لا تغضب علينا النسـاء ذوات الذكاء المنطقي الحاد، فإنه يبدو أنه ليسـ هناك خطـر كامن من ذكاء المـرأة في حد ذاته...بـل الخطورة في كونه علـى حسـاب الـذكاء الأنثوي...فالتفات المـرأة إلى ذكائها المنطقـي وتغذيته وتنميتـه والتماشـي مع مثاليتـه والإعراض عـن متطلبات الـذكاء الأنثوي هو الخطـر الحقيقي عليها وعلى مـن يرتبط بها...لأنها حينئـذ تتحول إلى مسخ مشوه...لا هو ذكر ولا هو أنثى...وعليه فوجود الذكاء الفطري الأنثوي وفعاليته في الأوقـات المناسبـة أو الحرجة كفيل بإذابة أي جليـد يمكن أن يتراكم جراء ذكائها المنطقي.

إضاءة:

نقد الذات صعب جداً؛ لكن ذلك ما يمارسه الحصفاء من البشر.

القاعدة الحادية والثلاثون

الكتاب كالخطاب

هــذه القاعدة الفقهية تفيد اعتبار الكتابة والخط في الدلالة عما في نفس الإنسـان كالخطـاب الشفـوي، فيترتب علـى الكتابة ما يترتـب على الخطاب اللفظي من أحكام، كما قيل: الكتاب ممن نأى بمنزلة الخطاب ممن دنا.

وفي الحيـاة الزوجيـة قد يتعذر علـى أحد الزوجين التعبـير عما في نفسه مباشـرة لشريك الحياة، أو يخشى عواقب المواجهة، فيمكنه حينئذ اللجوء إلى الكتابـة بوسائلها المتعددة، فهـي تؤدي الغرض والمقصـود كالخطاب الشفوي المباشر.

وسيلة رائعة:

الكتابة وسيلة رائعة للتعبير عما في دواخل النفوس من مشاعر وأحاسيس وعواطف، مهما تغير الزمن وتغيرت وسائله وتقنياته، وهي لا تقلّ أهمية في إيصال المقصود عن التعبير اللفظي، بل قد تتجاوزه من ناحية تميزها بإمكانية التروي فيها والبعد عن الارتجال واختيار الكلمات بدقة، كما أنها تعدّ وسيلة فاعلة في التنفيس عن المشاعر الحبيسة متى ما ملأ الحزن والكآبة خلايا النفوس، وعجز الإنسان عن المواجهة، أو خشي عواقبها، حيث يشعر بنوع من الراحة عندما يتاح له التعبير عما يعتلج في داخله، وحيث يمكن لمتلقي الرسالة أن يتربع على مساحة واسعة مما يختلج في نفسه.

أصناف الرسائل:

- رسائل الحب والعاطفة، التي تعمل على إشعال نار الأشواق؛ ذلك أن للكلام الجميل الصادق تأثيراً عميقاً في وجدان المتلقي له، ومتى كان أحد الزوجين من النوع المتردد فمن الممكن جداً كسر طوق التحفظ من خلال التعبير كتابةً عن مشاعره الدافئة الرقيقة، متى ما صدقت رغبته في المحافظة على وهج الحب وقوته واندفاعه، ويستحسن تجنب الرسائل ذات القوالب الجاهزة، التي تحويها بعض الكتب أو مواقع الشبكة العنكبوتية أو تنتقل من جوال إلى آخر، فجمال الرسالة وصدقها يتم من خلال كتابتها بالأسلوب المتاح، فمتى خرجت من مكنون القلب بصدق بعثت إلى شريك الحياة نبضات من الحب المتدفق، وأضفت على الحياة ألوانًا من التناغم، ووهبت الروح ألحاناً من المودة والسكن.

وفي هـذا الصدد نقلت إحدى المجلات عن شاعر أنـه صدمته أول رسالة تلقاهـا من محبوبته؛ إذ كانت مليئة بالأخطاء النحوية والإملائية، وبدون قصد لفـت انتباهها لأخطائها تلـك، فجاءته رسالتهـا الثانية خالية من الأخطـاء، لكنهـا للأسف ازدحمـت بعبارات جاهزة منقولـة من الكتب، صحيـح كانت الرسالة فصيحة... لكنها معلّبة !!، فأحسّ الشاعر بالذنب؛ لأنـه دفعهـا لاستعارة عبـارات جاهزة مزيفـة، فطلب منهـا أن تكتب له بالعامية وبأسلوبها، وأقنعها أنه يريد سماع صوتها بعينيه عندما تمر على رسالتها، فكتبت له كما طلب... فكانت كلماتها بشهادته أحلى ما قرأ !!.

- رسائل التهنئـة، فليس أصدق من التعبير الكلامـي فيها خصوصاً حينما تنبع من القلب وتتوسّل الكلمات العذبة الرائعة، في فرح بترقية وظيفية، أو تخرج من دراسة، أو سعادة بزواج شقيق وشقيقة.
- رسائـل الإعجاب، فالزوج الرائع لا يخجل مطلقاً من ذكر محاسن شريك حياتـه، ودائماً ما يحرص على تبادل الإعجـاب معه، ويؤمـن أنه إنسان مميز، ويغبط نفسه على الارتباط به، ولا يبخل بالتقدير والثناء عليه أمام الآخريـن، وهذا خير الخلق محمد ﷺ يقول عن زوجه خديجة رضي الله عنهـا: «**إني قد رزقت حُبهـا**»، وهنا أهمس في أذن كل زوج: متى استعملت مثـل هذا الأسلوب الرائع في التعبير عـن عواطفك وأحاسيسك؟، بل يكاد الكثـير للأسف يخجل من التحـدث بكلمة جميلة عـن زوجه، ويظن ذلك ضرباً من الضعف والخور !.
- رسائـل المرح والدعابة، ولا مانع مـن جرأتها في بعض الأوقات المناسبة...

فمتى رفرفت روح الدعابة بين الزوجين، فهو دليل السعادة والهناء، وكثيراً ما تـزول متاعب الحياة وتضمحل من خلال روح التفاؤل والمرح والضحك البريء.

- رسائل الشكر والامتنان: فما أجمل شكر شريك الحياة على جهد رائع أو مبادرة طيبة قام بها، والنبي ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»، فكتابة رسالة شكر وثناء والحرص على تضمينها شيئاً من العبارات الرائعة أو أبيات الشعر الرقيقة كفيل بتقوية العلاقة الزوجية وتزويدها بجرعات من المودة والمحبة.
- رسائل الاعتذار، وهي تفيد في تلطيف الأجواء، وتقريب النفوس، وشرح المواقف، واحتواء الأخطاء، وكشف وجهات النظر.
- رسائل العتاب، مع الحرص على كونها فاعلة وإيجابية، وخصوصاً من قبل المرأة، إذ كثيراً ما تُظهر الزوجة مشاعرها السلبية في صور من الانتقاد اللاذع واللوم القاسي، والتوبيخ والاستياء، وهذه مشاعر تعمل على طرد أي تواصل ممكن من الزوجين.
- رسائل الطلبات والرغبات، وهي مفيدة عندما يجد أحد الشريكين حاجزاً في مواجهة الآخر بها، أو كانت تشكل نوعاً من الإحراج له.

وسائل الرسائل:

- الرسائل الكتابية، وهي ذات أثر بالغ خصوصاً إذا كتبت بخط جميل على ورق مزخرف ومعطر، وقد بينت دراسة أجريت في جامعة تكساس أنه عندما تمّ جعل الأزواج والزوجات المشاركين في الدراسة يكتبون في الوقت

نفسه حول علاقتهم مع الطرف الآخر لمدة عشرين دقيقة، وعلى مدى ثلاثة أيام، فإنهم أصبحوا خلال الأشهر الثلاثة التي تلت التجربة أكثر ميلاً إلى قضاء أوقات أطول مع بعض.

- الرسائل الإلكترونية عبر البريد الإلكتروني، وهي تؤدي الغرض السابق نفسه، خصوصاً إذا لم يتمكن أحد الزوجين من إيصال الرسالة اليدوية.
- عبر غرف الدردشة الآمنة (كالماسنجر والواتس أب)، وقد توصلت دراسة حديثة جرت على أزواج أنهم عبروا عن مشاعر أكثر إيجابية عندما دفعوا إلى التحدث عبر رسائل الدردشة الآنية المكتوبة، وبالتالي كشفت تلك المحادثات عن مشاعر جميلة حول علاقتهم، كانت مختفية تحت غبار الزمن والتقادم.
- الرسائل الهاتفية، وذلك من خلال جمل قصيرة وعبارات موجزة ترفرف عبر الأثير لتلامس مشاعر الزوجين، وهي تتميز بإمكانية قراءتها بسرعة ووقت أقل، إلا أن دورها ذو أثر كبير متى ما كانت كلماتها صادقة ومعبرة.

لمَ الحاجة إلى الكتابة:

الحوار المباشر بين الزوجين قد يفتح المجال للردود الجاهزة والاحتماء بالأعذار قبل التأمل والتفكير، ولربما خانت شريك الحياة العبارات فلم يستطع صياغتها بشكل رائع كما في الكتابة، لكنّ الرسالة ستضطره إلى التأمل في الأمر وقراءتها بعمق، وتفهم وجهة نظر الطرف الآخر وموقفه.

ونجد تأكد الحاجة إلى الكتابة وأسلوب الرسائل في حالات من المواقف الإنسانية:

- المبالـغ في مواقفـه: وذلك فيمـا إذا كان أحد الزوجين مـن النوع الذي لا يستطيع السيطرة علـى أعصابه بسهوله، وقد يعمد إلى التصعيد السريع في خلافات يسيرة لا تستحق ذلك القدر الكبير من التشنج والانفعال تجاه شريك الحياة من جهـة، وتجاه الموضوع المطروح للنقاش من جهة أخرى، ذلـك أن الاتجاه إلى الحدة في الكلام ورفع الصوت في التعبير عن الموقف كثيراً ما يعمل على إرسال رسائل مضللة ومتناقضة للطرف الآخر، وههنا يمكن اللجوء إلى الكتابة التي تتضمن شيئاً من التروي والتأمل.
- مـن يستخـدم الحـدة: فالزوجـة التي تريـد من الـزوج إظهـار التقدير والاحـترام لهـا، بينما في الوقت نفسـه تستخدم الحدة ورفـع الصوت في التعبـير عن موقفها، فإنهـا في حقيقة الأمر ترسل رسائـل سيئة وصادمة إلى شريك حياتها.
- غـير المقدّر للعواقـب: وحينئذ قد يعمد إلى الانسحـاب غير المدروس عند حصـول النزاع والاختلاف، بينما يمكنه شـرح موقفه من خلال الرسالة الكتابية بهدوء وتعقل، وقد أشارت بعض الدراسات الإنسانية المتخصصة إلى أن التهـرب غـير المسؤول من مواجهة المشـكلات قد يزيد من حدتها، ويطيل من مدتها، ويعيق فرص احتوائها.
- غـير المسيطر علـى لغة جسمه: حيث يعمـد مباشـرة إلى استخدام لغات جسـم سلبيـة وفي غايـة التحقير تجـاه شريـك الحياة، سـواء من خلال إيمـاءات الجسـم أو تعابير الوجه المختلفة، فهذا مـن الأسلم له استعمال الرسائل الكتابية التي تخلو بطبيعتها من أي لغة جسم.

- المشغول: ففي ظل أجواء حياة مليئة بالصخب، وساعات عمل متواصلة، وضغوط حياة ومتطلبات معيشة لا تنتهي، قد لا يجد الإنسان الفسحة والوقت الكافي للتعبير عن عواطفه ومشاعره تجاه شريك الحياة، وحينها يأتي دور تبادل الرسائل الصادقة في تجديد المشاعر بين الزوجين، والقضاء على الرتابة والملل، والعمل على حل المشاكل.
- المتردد في بث المشاعر: وفي هذا الصدد يقول أحد الأزواج: لم أعهد سماع كلام عاطفي مليء بالحب من قبل زوجتي، لكن بعد دخول خدمة رسائل الجوال إلى أجواء حياتنا، بدأت في استقبال عبارات رائعة منها، وكنت بداية الأمر غير مصدق وأرتعد من الدهشة عند قراءتها، والعجيب أن علاقتي بها أضحت بعد هذه الرسائل المتبادلة أحلى من العسل !.
- الصامت من الأزواج: فالرسائل الكتابية تعمل على كسر حاجز الصمت بين الزوجين، وهناك من الأزواج من يدعي الحياء من بث المشاعر والأحاسيس بحجة طول مدة الزواج، وعدم التعود عليه، إلا أن البداية فقط تحتاج إلى قدر مناسب من الجرأة والشجاعة، وبعد التجربة ثق بأنك سوف تشعر بالولادة من جديد!.
- عند حصول المشكلات العسيرة: فقد يصعب معها تبني الحوار اللفظي المباشر؛ إذ كل من الزوجين في حالة توتر شديدة، وقد تؤثر طريقة الحوار واختيار الكلمات غير المناسبة في تصعيد الخلافات وترك آثار سيئة على العلاقة بينهما، وخصوصاً من جانب المرأة فإنها متى ما سيطرت المشاعر السلبية عليها أضحى من الصعب التحدث بأسلوب يوحي بالثقة والتقبل

والتقدير لشريكها، وهنا يتطلب الوضع إيصال وجهات النظر عبر طريقة أكثر أمناً وإبداعاً، من خلال بعث رسالة عبر أي وسيلة متيسرة بطريقة أكثر توازناً وأعمق حباً.

احذر أن تنسى:

من الرسائل ما يعدّ رسائل ملغومة، تهدم أكثر مما تبني، وتمرض أكثر مما تشفي، وتفسد أعظم مما تصلح، ولعل صرف النظر عن بعثها أجدى من المبادرة إلى إرسالها.

إنك متى ما أردت أن تكون إيجابياً وفاعلاً في رسائلك، فلا بد من ملاحظة الآتي:

- لا تنس الإيجابيات والسلبيات: ولحسن الحظ بين هذين الأمرين هناك مساحة كبيرة ورائعة للتفهم وتقدير المواقف، فمن الأهمية بمكان الحرص على بعث روح الإيجابية من أجل الوصول إلى الأهداف المرجوة، بدل التركيز على إظهار صاحب الحق والمخطئ، فقد تؤدي مثل هذه الرسالة إلى صب الزيت على النار، وهذه زوجة تتحدث عن الأثر السيء الذي خلفته رسالة بعثتها إلى زوجها، فتقول: كانت رسالتي معظمها سلبيات زوجي في نظري، وبطبيعة الحال دقق في الكلام المكتوب بشدة، فانقلبت مبادرتي عليّ؛ لأنه من خلال تحليله لكل كلمة ودراستها وصلته رسائل لم أقصدها بحال !!.
- استعمل لغة الحب: وهذا يعدّ بحق أفضل الطرق لتحرير المشاعر السلبية، ومن ثم التواصل الفعال والبناء، عن طريق تدوين المشاعر بأسلوب يعمل

على زيادة المساحة الإيجابية في الحياة وتناقص المساحة السلبية إلى أقل قدر ممكن.

- الحذر من أسلوب العتاب: وهنا نتساءل: هل مرادك أن يقترب زوجك أكثر وينشر السعادة في ربوع حياتك وأرجائها، أو مرادك مجرد نفث السموم، حددي موقفك بداية، فاحذري من قولك مثلاً: لماذا تسافر وحدك... لماذا تخرج وتتركني وحيدة في المنزل... لماذا تحرص على إسعاد نفسك دوننا؟، هذه رسائل سيئة جداً، إنها تبعث للطرف الآخر بأنك إنسان أناني جامد العواطف غير مراعٍ للآخرين، بينما يمكن الزوجة الحصيفة أن تصل إلى هدفها المنشود بأقلّ الخسائر وبطريقة أكثر روعة وحصافة، فحاولي أن تكتبي مثلاً: لم أستطع الصبر عنك ليتني أسعد بصحبتك أو السهر برفقتك... أو ما أجمل السفر معك... أصبحت أعشقه كلما تذكرت سفرنا السابق ومرحنا وعبثنا البريء... (يمكنك بعث أيقونة مناسبة عقبها).

- الحرص على روح التسامح: وقد خلص الكاتب المصري عبد الوهاب مطاوع في كتابه الرائع (ترانيم الحب والعذاب) – في مبحث منه عنوانه: الأحباء لا يعرفون الصمت، واستخلصه من رسائل عديدة لأزواج وزوجات – إلى أن أسعد الأزواج هو من يتحلى بروح التسامح في علاقته بشريك الحياة، وينسى الإساءة سريعاً، ويغفر الأخطاء العابرة وغير المتعمدة، فهذا إنسان يتمتع بنوع خاص من الذاكرة، تتميز بالعمل على إسقاط الإساءات بعد فترة قصيرة من الوقت، وحفظ الأشياء الجميلة التي لا تتذكر سواها، وحينها يعمّ التفاهم بين الزوجين، فيتوقف كلاهما عن محاسبة الآخر

على كل كبيرة وصغيرة ،ويكون همهما الأكبر العطاء لهذه العلاقة المميزة وإنجاح الزواج دون التركيز على صغائر الأمور.

- انتقاء الألفاظ: وذلك من خلال الحرص على البدء بعبارات تركز على استخدام لغة المبادرة والمشاركة «أنا» و«نحن» بدلاً من لغة الاتهام «أنت»!، فإن ذلك من شأنه إزالة التوتر والتشنج والتجريح وتراشق عبارات الاتهام التي غالباً ما تسيطر على أجواء الخلافات الزوجية.

الرسائل الحرة:

في بعض الحالات يجد أحد الزوجين فيها نفسه تغلي بمشاعر سلبية حبيسة مكتومة، ويحتاج التنفيس عنها وإراحة ذاته، وههنا أوصي بشدة بضرورة التنفيس عن كل ما يعتلج في النفس مهما كان؛ ذلك أن المشاعر السلبية المكبوتة لا تموت، بل غالباً ما تعمل على توليد مشاعر البغض البعيدة المدى، التي تبقى حبيسة داخل النفس، وتتراكم عبر الزمن، واحدة تلو الأخرى، حتى يأتي وقت تنفجر فيه وينفرط العقد بشكل مفاجئ، وكأحد الحلول لهذه المعضلة يمكنك اللجوء إلى كتابة الرسائل الحرة...

نعم في الرسائل الحرة...الحدود مفتوحة والأبواب مشرعة...لا توجد قيود تحدّ من مدى تحركك، ولن تضطر إلى أن تقبع تحت رحمة أية حواجز، فضاء واسع...اكتب ما تشاء...نفّس عن غضبك...عن ألمك...عن الأسى الذي يعتلج في قلبك...عاتب كما تشاء...لك مطلق الحرية في ممارسة فنون التوبيخ وصبّ جام الغضب...ههنا يمكنك أن تكتب: لماذا...لمَ...لا أفهمك... أنت دائما...واحذر أن تتوقف عن الكتابة خشية غضب الطرف الآخر أو ردود الأفعال منه...

نعم يا سيدتي الفاضلة...هذه قوانين الرسائل الحرة بين الأزواج أنها بلا قوانين...يمكنك أن تكتبي كم أنتِ منزعجة لأنه يُلقي جوربه المتسخ على السرير بدلاً من وضعه في مكانه المعدّ، أخبريه كم يؤلمك عدم التفاته إلى مساعدتك في بعض أعمال المنزل، وكم هو مخزٍ أنك لم تستطيعي شراء الملابس التي رغبتي فيها بشدة، وكم هو منغّص رفضه لتغيير أثاث المنزل الذي أصبح باعثا على الكآبة...واستمري بالكتابة ونفث مشاعر الإحباط وخيبة الأمل، مع الحرص على التنفس شهيقاً بقوة، ومع كل زفير أخرجي ما استطعتي من ردود الفعل المؤلمة المخزونة في الصدر.

حسناً...بعد كتابة هذه الرسالة، ضعيها في ظرف مناسب، ثم توضئي وصلي ركعتين...احرصي على الخشوع فيهما والانطراح بين يدي الله تعالى، وبعدها ارجعي إلى قراءة رسالتك بتمهل وإمعان...واكتشفي حينها مدى حجم المشاعر السيئة الدفينة التي كانت تضطرم داخلك !!.

وههنا يوصي الباحثان / د. ريك برينكمان و د. ريك كيرشنير في كتابهما (التعامل مع من لا تطيقهم) بأهمية عدم بعث هذا النوع من الرسائل إلى شريك الحياة، وضرورة إحراقها بعد كتابتها !!، وأظنك متى قرأتها بعد ذلك جيداً وبصدق، ستجدين أنك في خجل من الإقدام على كتابتها أصلاً فضلاً عن التفكير في إرسالها !.

✍ هذا ما وقع فعلا:

في إحدى الندوات التثقيفية عن العلاقات الزوجية الناجحة طلب المحاضر من الحضور أن يرسل كل منهم عبر جواله كلمات حب وشكر وثناء

لزوجاتهـم، فتحرج البعض من فعل ذلـك، إلا أن الآخرين قاموا به مع إصرار المحاضر، ومن ثم تعالت أصوات الجوالات بالردود على رسائل الأزواج، فطلب المحاضـر منهم أن يذكـروا ردود زوجاتهم عليهم مالم تكن خاصة جداً، وهذه عينة من الردود:

- ردت زوجة أحدهم: عسى ما شرّ !!، ماذا بك ؟ أين أنت ؟.
- وأخرى ردت: سبحان مغيّر الأحوال !!.
- وثالثة: لا تنس أن تحضر الخبز معك وأنت راجع إلى المنزل.
- ومـا بـين الكآبة والطرافـة، ردت زوجة: هـذه المرة الأولى التـي تقولها... أستطيع أن أحيا بها لبقية العمر، بينما ردت أخرى: أبو محمممد الحق... جوالك انسرق !!.

وقليل جداً مـن ردت الثناء بالثناء والحب بالحب !!، ولو تساءلنا ما الذي حـدا بكثير مـن الزوجات إلى مثل هذا التصرف، لوجدنـا أنه جفاف المشاعر بين كثير من الأزواج وغياب عبارات الحب والثناء والشكر في حياتهم.

إضاءة:

إذا أحـبّ الإنسان بصدق لم يعدم وسيلة ولم يدخر وسعاً في الحفاظ على نبتة الحب خضراء يانعة !!.

القاعدة الثانية والثلاثون

كل ما تجاوز عن حده انعكس إلى ضده

هـذه قاعدة فقهيـة جميلة، ذكرها بعض الفقهـاء بصيغ مشابهة، كما أشـار إليها الإمام الغزالي رحمه الله في (إحيـاء علوم الدين)، والمقصود بها التحذير من المبالغة في الأمور التي غالباً ما تفضي إلى إفسادها.

وفي الحيـاة الزوجيـة لا يصـح اعتمـاد المبالغة في الأمـور والتصرفات المتعلقـة بها منهجـا وطريقا؛ إذ غالباً ما تؤدي هـذه المبالغة إلى نتائج عكسية تؤثر على حسن سير العلاقة بين الزوجين.

مفتاح الطلاق:

لا شك أن الغيرة الإيجابية المتوازنة من جملة الأمور المحمودة في كل من الرجل والمرأة، وهي من فضائل الشيم والأخلاق، إلا أن الغيرة كغيرها من الأمور تحمد في إطار التزام صاحبها حد الاعتدال، بلا إفراط ولا تفريط، أما متى ما بُولغ فيها وتجاوزت حدها فإنها حينئذ تنقلب إلى ضدها، وتصبح هاجسا لا يطاق.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الغيرة في حقيقتها أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوبه غيره، إلا أنها نوعان: غيرة ممدوحة يحبها الله، وغيرة مذمومة يكرهها الله، فالتي يحبها الله أن يغار عند قيام الريبة، والتي يكرهها أن يغار من غير ريبة، بل من مجرد سوء الظن، فهذه الغيرة تفسد المحبة، وتوقع العداوة، وتحمل على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه.

إن السعادة الزوجية تحتاج من أجل تحقيقها ومن ثم المحافظة عليها إلى سعي دؤوب وجهد متواصل، وفي سبيل ذلك لا بد من ابتنائها على الثقة بين شريكي الحياة، من خلال العمل على إنشاء علاقة حب واعية وموضوعية، بحيث تكون صادقة ومتبادلة لا تشوبها شائبة، ذلك أن كل ذرة شك يقابلها انهيار لكثير من الاحترام والحب، وحينها لا تستغرب إن رأيت عش الزوجية وبناءها يتهاوى أمام ناظريك، ويختل تماسكه ويبدأ في الانهيار التدريجي.

ولذلك يذكر علماء النفس أن الغيرة العمياء عاطفة سلبية منبعها في الغالب أنانية وحبُّ ذات، أو اضطراب نفسي ناجم عن القلق والخوف من المنافسة، أو إحساس بالنقص حيث يشعر أحد الزوجين أنه لم يؤد الدور المناط به تجاه شريك الحياة.

وهنا أحب أن أذكّر كل زوج تجاوزت الغيرة لديه معدلها الطبيعي بما

جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا تكثر الغيرة على أهلك، فتُرمى بالسوء من أجلك، وفي المقابل أيضا أذكّر الزوجة الغيورة بوصية أبي الأسود الدؤلي رحمه الله لابنته ليلة زفافها: يابنية، إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق.

ومن العبارات المأثورة في الغيرة السلبية، والتحذير منها:

- الغيرة إحساس مُرّ، فتجنب أن تحتسيه أو تسقيه لغيرك.
- لا تخنقهم بغيرتك إذا كنت تحرص على بقائهم معك، فقد تخسرهم للأبد...وأنت لا تعلم.
- ليست دائما الغيرة دليل الحب...فأحيانا تكون دليل أشياء أخرى بعيدة تماماً عن الحب.

إذا كانت الحسناء جوهرة...فالفاضلة كنز:

مما ابتلي به كثير من الأزواج المبالغة في طلب الجمال الآخّاذ والفاتن من المرأة، جراء تقليب الناظرين في وجوه النساء من خلال مشاهدتهن في الأسواق أو عبر القنوات الفضائية والمجلات الهابطة، وذلك ما يحمله على الشعور بأن زوجته غير مناسبة في شكلها وهيئتها، وإذا لم يعمل مثل هذا الزوج بصدق على معالجة وضعه فإن سيفضي به الحال إلى تهديد استقرار حياته الزوجية والتسبب في اختلالها إلى حدّ كبير.

وإذا ما تأملنا قضية تمتع الزوجة بجمال بارع فاتن، فإن تجارب الحياة في الماضي والحاضر تكشف لنا بجلاء أنه غالبا ما أفضى إلى وقوع الأضرار بالزوج في دينه ودنياه، ذلك أن مثل هذه الزوجة إن لم تكن ذات دين أفسدت على زوجها الكثير من شؤون حياته، وبالغت في تدللها بحسنها وجمالها، فازدادت طلباتها ومتطلباتها، وسعت في فرض سيطرتها وإثبات ذاتها، وكم

رأينا في واقع الناس من ذلك الشيء الكثير، ولهذا جاء في فيض القدير للمناوي رحمه الله: إياك والمرأة الحسناء؛ فإن ضررها أعظم من ضرر الشوهاء؛ فإنه لا يدخل حبها قلبك، والحسناء تسكن محبتها بالقلب، فلا تدخل محبة الحق، فيبيض فيه الشيطان ويفرّخ.

وذكر الفقيه الرافعي رحمه الله في أماليه أنه يخشى من الحسن التام البارع في المرأة؛ لأنه يُخاف بسببه من الإفراط في الإدلال المورث للوحشة والمنازعة والأطماع الفاسدة، فالمنهلُ العذب كثيرُ الزحام، كما يُخشى من شدة الصبوة والميل، ولا يُؤمَن منها تولّد أمور مضرّة، ولأنها قد تصرفه عن كثير من الطاعات في غالب الأوقات.

وقال أعرابي: استشرت أسنّ أهل قبيلتي في التزويج، فقال: إياك والحسناء؛ فإنها تزهو عليك بحسنها، ويكثر عشاقها، ثم أنشأ يقول:

ولن تصادف مرعا ممرعا أبدا

إلا وجدت له آثار مأكول

وقد أظهرت دراسة حديثة أن الزواج بالمرأة الجميلة من أسباب قصر عمر الرجال، وأنه كلما زاد جمال المرأة توفي الزوج في سن مبكرة في الغالب، وكشفت الدراسة أن ٨٠٪ من الأزواج الذين يعانون من جمال زوجاتهم يتحملون أعباء كبيرة جدا بالمنزل والعمل والشارع، وهذا ما يرهق كاهلهم ويسبب لهم العنت، ويعمل على تراجع في صحتهم، فتصيبهم أمراض العصر من ضغط وسكر وقلب، ناهيك عن الأمراض النفسية في حال كبت المشاعر والإحساس بالنقص جراء تدلل المرأة بجمالها، وتعليقا على تلك الدراسة أوضح خبراء الصحة النفسية أن البعض يعتقد بأن السعادة الزوجية ترتبط بالجمال ارتباطا وثيقا،

لكن الواقع بعكس ذلك تماما، فكثيرا ما نجد زوجة يحسد عليها زوجها من قبل الآخرين، وهو في الواقع يعاني الأمرّين، ولا يستطيع أن يفصح عن ذلك.

والتوسط والاعتدال في هذا الأمر مطلوب، فلا قبح منفر، ولا جمال مضر، وما أجمل قول ابن الجوزي رحمه الله في (صيد الخاطر): السعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية، فمال إليها ومالت إليه وعلم سترها ودينها، أن يعقد الخنصر على صحبتها، وأكثر أسباب دوام محبتها أن لا يُطلق بصره، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه في غيرها، فإن الطمع في الجديد ينغّص الخلق، وينقص المخالطة، ويستر عيوب الخارج، فتميل النفس إلى المشاهد الغريب، ويتكدر العيش مع الحاضر القريب.

وصدق ابن المقفع حينما قال في (الأدب الكبير): من البلاء على المغرم بالنساء أنه لا ينفك يحقر ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن، وإنما النساءُ أشباهٌ، وما يُرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخدعة، بل كثير مما يَرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن.

ويُحكى أن بعض ملوك غسّان تزوّج بابنة مالك بن عمرو العدوانية، وكانت أجمل نساء زمانها، فلما أُهديت إليه شعر منها برائحة، فأنكره عليها، فقالت من خلف الستر المثل المشهور: لا تعدم الحسناء ذامّاً، والمعنى أن الانسان مهما وصل الى الكمال والجمال فلا بد أن تجد به عيباً ينقصه.

وفي أمثال الأمم والشعوب وحكمها عبرة لمن أراد الاعتبار:

- جمال المرأة كالكتاب المكتوب بقلم الرصاص، لا يلبث أن يمحوه الزمن.
- جمالُ المرأة رأسمالها، ولكنه للأسف أسرع رأسمال إلى الزوال.

- من يتزوج امرأة جميلة يحتاج إلى أكثر من عينين !! .
- كلما ازدادت المرأة جمالا كلما ازدادت طغيانا.
- الرجال الأذكياء لا يتزوجون خارقات الجمال.
- المرأة الجميلة قد لا تكون طيبة، ولكن الطيبة دوما جميلة.

وأخيراً أهمس في أذن كل زوجة: أنه مهما تباينت آراء الرجال حول جمال المرأة وصفاتها المميزة، فثقي أنهم يكادون يتفقون على شيء واحد بينهم، وهو أهمية تميزها بالأنوثة الخلابة، فإياكِ والاستهانة بها عند زوجك الغالي، أو محاولة إخفائها أمامه تحت أي حجة...تلك الأنوثة الصادقة والرقة الساحرة...حرير في نعومته، ونهر في تدفقه، وفضاء في سعته، وثقي متى ما عملتي على إبراز أنوثتك أكثر...وأتقنتي فنونها أكثر وأكثر...فستكونين دوما الأقرب إلى قلب زوجك.

طرفة - لا تكن كالأعرابي !:

قال الأصمعي: كان أعرابي قبيحاً طويلاً، فخطب امرأة جميلة، فقيل له: أي ضرب تريدها ؟!، قال: أريدها قصيرة، فيأتي ولدها في جمالها وطولي، فتزوجها على تلك الصفة، فجاء ولدها في قصرها وقبحه!!

وقال عمارة بن عقيل وكان رجلا داهية: كنت امرءاً دميماً واهياً، فتزوجت حسناء رعناء؛ ليكون أولادي في جمالها ودهائي، فجاؤوا في رعونتها ودمامتي!!.

إضاءة:

لك أن تحلم بما تشاء، لكن في الوقت ذاته كن على حذر من الوقوع في أسر الأحلام.

القاعدة الثالثة والثلاثون

كلما عظم شرف الشيء عظم خطره

مقصود هذه القاعدة الفقهيـة أن الشريعة الإسلامية دائماً ما ترفع قدر الشـيء إذا عظمت مصلحته وعمت فائدته، فـإذا رأينا العقد أو التصرف قد شدّد الشرع فيه، فيكون ذلك دليلاً على ارتفاع مكانته وعظيم قدره.

وقد ذكر الفقهاء من فروع القاعدة أن الزواج عظيم الخطر جليل القدر؛ لأنـه سبب بقـاء النوع الإنساني المكـرم المفضل على جميـع المخلوقات، وسبب العفـاف الحاسم لمـادة الفسـاد واختلاط الأنسـاب، وسبب المـودة والمواصلة والسكـون، وغير ذلك مـن المصالح، فلذلك شدّد الشرع فيـه، ففصّل أحكامه وحدوده، واشترط فيه الصداق والشهادة والولي وانعقاده بألفاظ مخصوصة.

مؤسسة نفيسة:

الزواج من أعظم النعم التي امتن الله تعالى بها على عباده، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١)، ذلك أنه سكن النفوس واستقرار الضمائر، وانسجام ومودة وتناغم بين طرفين، وهو المبدأ الأساس والضامن لاستمرار النوع الإنساني وبناء الأسرة، وإشباع الحاجات الغريزية، ولهذا تعاملت معه الأمم على اختلاف أجناسها على أنه الطريق الأمثل الذي يضمن للإنسان الوصول إلى احتياجاته على نحو مستقر.

بل قال بعض الفقهاء: إن النكاح هو الشعيرة والعبادة التي شرعت من عهد آدم إلى آخر الزمان، ثم تستمر في الجنة، وقال عروة بن الزبير رحمه الله: ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله تعالى بمثل منكح صدق.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ليست العزوبة من أمر الإسلام في شيء، ..ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزو، ولا حج، ولا كذا، ولا كذا...فمن رغب عن سنة النبي ﷺ فهو على غير الحق، ويعقوب في حزنه قد تزوج وولد له...وبكاء الصبي بين يدي أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا، أين يلحق المتعبد العزب؟، ونقل ابن قدامة رحمه الله عن الإمام أحمد أيضا أنه قال: من دعاك إلى غير التزويج فقد دعاك إلى غير الإسلام.

وإذا كان الزواج بهذه المثابة فحري بالزوجين المحافظة عليه والحرص على دوامه وتماسكه واستمراره، فهو من الأمور التي شرف أمرها فعظم من أجل ذلك خطرها وشأنها، فعش الزوجية عش حساس بطبيعته، يتطلب من

الطرفين النظرة إليه باقتدار، والتزامهما برعايته والحفاظ عليه والحرص والكفاح والمثابرة والسعي إلى دوامه سالماً معافى، والعمل بصدق على جعل مؤسسته وحدة متكاملة متحدة وناضجة.

وأهمس في أذن كل زوجين حصيفين بما قيل من أن الحب في الزواج هو اللعبة الوحيدة التي يشترك فيها اثنان، ويكسبان فيها معاً، أو يخسران معاً !!، فاحرص على أن تكون كاسباً سعيداً، فإن أفضل شيء يمكنك تقديمه إلى شريك حياتك بذل الجهد الصادق المتواصل للحفاظ على العلاقة به وتحسينها، ومحاولة التغلب على أوجه القصور والنقص فيها.

وأخيراً أُذكرهما أيضاً بالعبارة الرائعة المأثورة الجميلة: الزواج هو الترجمة النثرية لقصيدة الحب.

نكهة التجديد:

إن العلاقة الزوجية بطبيعتها حياة علاقة طويلة الأمد، وهي علاقة إنسانية حساسة، فكثيراً ما تبدأ بإحساس مليء مغمور بالفرحة والحلام الجميلة، ثم ما يلبث أن تتسلل إليها فترات من الفتور والرتابة والنمطية والملل واللامبالاة، وإذا لم يحاول كل طرف إسعاف العلاقة الزوجية ورفع الراية الحمراء تجاه منغصاتها، فإن النفوس ستبتعد عن بعضها، وتبدأ تلك الفيروسات في الفتك بحياتهما الزوجية.

ولذلك يؤكد خبراء العلاقات الزوجية أن الفتور الناتج عن الروتين يحتل المرتبة الثانية في أسباب نهاية الحياة الزوجية، وقد بينت دراسة حديثة أن هناك خيطاً رفيعاً بين الروتين والفتور، إذ الروتين المَرَضي الدائم غير المتجدد

قد يتحول بعد فترة إلى ملل، والمقصود بالروتين المرضي جملة من العادات التي يتبعها الزوجان، بشكل متشدد وعنيد، تجعل أحد الأطراف يشعر وكأنه ملزمٌ بإتباع أمور وقواعد معينة، بغضّ النظر عما إذا كان يحبها أم لا، وهذا ما يعمل على الفتك بالحب، وجعله هشاً، وإذا اختفى الحب، فإن العلاقة الزوجية، تصبح عبارة عن روتين مَرَضي لا يدوم طويلاً، حتى يُتوفَى، وتتوفى معه العلاقة الزوجية !.

وإذا كانت قاعدتنا الفقهية تكشف بجلاء أن شرف الشيء يحتم شرف قدره ومكانته، فإن الزواج يحتل هذه المكانة المرموقة في العلاقات الإنسانية، إلا أن إنعاش الحياة الزوجية وتجديدها لابد أن يتم برضا واقتناع تام من قبل الطرفين، فلابد من توفر وعي صادق لديهما بأهمية التجديد وضرورته في حياتهما، فلا يصح أن يكون هناك طرف متحمس يعمل على شدِّ قاطرة التجديد وحريص على التخلص من الرتابة والملل، ثم لا يلقى استجابة صادقة أو تشجيعاً فاعلاً من الطرف الآخر، بل ربما يجد تثبيطاً مخزياً له وعدم إدراك وشعور بوجود أي مشكلة أساساً، فالعامل الأهم ههنا وجود الرغبة المشتركة لإذكاء جذوة الحب التي خبأت.

وفي كل الأحوال متى ما توقف أحد الزوجين عن فكرة التجديد، فلابد أن يتخذ أحدهما زمام المبادرة، من أجل ألا تسوء الأوضاع أكثر، وتصل إلى حد استحالة التعامل معها، واذكّر بأن العمل على اتخاذ المبادرة لا يعني بأي حال من الأحول تنازلاً إجبارياً عن شيء بقدر ما هو خطوة ايجابية لحل وضع من الأوضاع التي حصل فيها خلل ما.

فمتى ما شعر الزوجان أن الوقت بدأ يسرقهما وأن الحياة الزوجية بينهما قـد علاها شيء من الرتابـة والملل، فلا بد حينئذ من العمل على إحداث تغيير مـا، وهناك تغييرات صغيرة قد تكون كافية لإبعاد هذا الشبح، مثل تخصيص وقـت لسياحة عابرة، أو كشف أوراق عبر حوار صادق رقيق، أو علاقة حميمية من نوع خاص.

بـل أوصـت إحـدى الدراسـات الأسرية مـن البرازيل بالمرونـة في الرأي باعتبارهـا لونـاً من ألوان التجديد في العلاقة الزوجيـة، يعمل على إبعاد شبح التصادم والملل، حيث المرونة نادرة بين الكثير والكثير من الأزواج. فمتى كانت غائبـة عن مسرح الحيـاة الزوجية فسيغلـب عليها طابع العنـاد والتصلب في الرأي، الذي يعطي لوناً قاتماً للحياة، ويجعلها مملة ورتيبة لطرفي العلاقة.

كمـا يمكن أن يتمثـل التجديد أيضاً في أشياء صغـيرة قد لا نلتفت لها ولا نحسـب لها وزناً، كمـا في محاولة تعويد النفس علـى التكيف مع طباع الطرف الآخـر أو تغيير عادة من أجل إرضائه، فغيـاب التكيف مع الطباع يحدث نوعاً من التباعد بين الطرفين، الذي يفضي بدوره إلى انسياب الملل والحياة الرتيبة، فلا نجد حينئذ مشاركة في القيام بكثير من الأشياء معاً ولا اتفاقاً عليها، ومع استمـرار ذلك فإن الأجواء تتوتر أكـثر فأكثر إلى أن تصل الى حد عدم تحمل أحد الزوجين للطرف الآخر.

وفي هـذا الصدد يذكـر كل من الدكتور/ جون كارلسـون والدكتور/ دون دينكمايـر في كتابهما (حان الوقت لـزواج أفضل) أنه عندما نتفادى أن نختار التجديـد، فإننا في حقيقة الأمر نكون قد اخترنا أن نبقي العلاقة الزوجية كما

هــي دون تغيير، فالإحجام يعني القبول بالوضع الراهن، وعملية عدم الاختيار تجعلنــا نخسر الفرص للتغيير الإيجابي، وحتــى إذا قررنا أن نحتفظ بالعلاقة كما هي، يجب أن نكون على وعي بأن هذا هو ما اخترناه.

إضاءة:

أثبتت تجارب الأســر على تباين ثقافاتها أن الاهتمام الصادق النابع عن حــب وحكمة رصينة من قبل أحد الزوجــين لا يمكن أن تضيع ثمرته أبداً، وكن على ثقة بأنه إن لم يورق اليوم...سيورق غداً بإذن الله.

القاعدة الرابعة والثلاثون

كل مجتهد مصيب

هذه قاعدة أصولية فقهية عظيمة في باب الاجتهاد، وهي منسوبة إلى الإمام الشافعي رحمه الله، والمراد بها بيان أن الحق في المسائل الاجتهادية واحد عند الله تعالى، ولكن الله لم يكلف الناس إصابته، وإنما كلفهم الاجتهاد في طلبه، فمتى بذل المجتهد وسعه وطاقته واتقى الله ما استطاع في تحصيله، فهو مصيب في فعله وتصرفه غير خاطئ، بل أدى الواجب في حقه، ولكن لا يلزم إصابته عين الحق عند الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كل مجتهد اتقى الله ما استطاع فهو مصيب، فإنه مطيع لله ليس بآثم ولا مذموم...فكل مجتهد مصيب غير خاطئ، وغير مخطئ أيضا إذا أُريد بالخطأ الإثم...ولا يكون من مجتهد خطأ، وهذا هو الذي أراده من قال: كل مجتهد مصيب.

ولا شك أن الحياة الزوجية تتضمن كثيراً من التصرفات التي تحتاج إلى اجتهاد من قبل صاحبها، يُوفق في كثير منها، وقد لا يحالفه الحظ في بعضها، فمتى أحسن شريك الحياة في تصرف ما وبذل جهده فيه، ثم أخطأ في النتيجة المرجوة، فلا تثريب عليه، ولا ينبغي أن يعاتب ويلام.

المساحة الرمادية:

إن الحيـاة ميدان الأحداث والتصرفات على تباينهـا، والإنسان بطبيعته عرضـة فيها للاجتهـادات والأخطاء، واختلاف وجهـات النظر وتقدير الأمور والحكـم عليهـا، وهذا أمر فطـري طبيعي لـه علاقة إلى حدّ كبـير باختلاف الفـروق الفردية بين البشر؛ فـلا يمكن بناء أي علاقة فاعلـة في ضوء قدرات متساوية ونمطية متطابقة؛ إذ تخلو حينئذ من نكهة التفاعل وتبادل الخبرات.

إن أهم عوامل نجاح الحياة الزوجية باعتبارها علاقة إنسانية توفرَ مناخ الواقعية وسيادة ثقافة الاختلاف، والنظرَ دوماً إلى المساحة الرمادية فيما بين الزوجـين، وإعطاءها الفرصة وتفهم التجاذبـات المختلفة، فهناك على طرفٍ أمـورٌ ذات مساحة بيضاء في ذاتها، نجزم بصحتها، ولا نقبل مطلقاً التقصير والتهـاون فيها، وفي الطرف الآخر أمـور ذات مساحة سوداء، نجزم بخطئها، ولا نقبـل ارتكابها وتجاوز حدودها، وبينهما أمـور ذات مساحة رمادية، يسود فيهـا الاحترام المتبادل، وقبول وجهات النظر، وهي ميدان التفاوض والتباحث والقبـول بالحلول المناسبـة الممكنة، ولا يلـزم أن تكون التامـة والكاملة، حيث يمكن أن يتنازل فيها الشخص عن أشياء في مقابل الحصول على غيرها.

إن هـذه المساحـة الرماديـة محل اجتهـاد، والإنسـان معرض فيها إلى الصواب والخطأ، وجميل منا حينها أن نتمثل قول الإمام الشافعي رحمه الله : رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

إلا أننا نجد في واقع الحياة من الناس من لا يعترف بغير المساحة البيضاء، حيـث يعيش هو فقط، بينما يجعل من المساحة السـوداء ساحة واسعة فسيحة

لكل من خالفه الرأي، وسار في غير ما ارتسمه، يجهد نفسه ومن حوله، لا يعرف من الحياة إلا المقولة البائسة (من لم يكن معي فهو ضدي)، ولا يرضى لغيره في مناكفاته لخصومه ومعاركه النأي بنفسه تحت مظلة عدم الانحياز، وقد لا يتورع أيضاً أن يكون كذلك المدير التنفيذي الذي كتب شعاره على ظهر مكتبه: كن منطقياً وافهم الأمور على طريقتي !!.

إننا للأسف كثيراً ما نفتقد الإنصاف، ونغرق في إساءة الظنون، ونسعى لاهثين خلف سراب المثاليات..لا يوجد بيننا بشر منزه عن الخطأ، طالما أنه يعمل فعلاً، فالعامل من الناس يكدح ويجتهد، تجده يصيب كثيراً، لكنه حتماً يقع في الأخطاء...فمن جهلنا بعواقب الأمور نتعثر، ومن عثراتنا وزلاتنا نتألم.. لكننا أيضا نتعلم.

أما الفاشل فلا يخطئ أبدا..وقد قيل: الوحيد الذي لا يخطئ أبداً...هو الذي لا يعمل، فلا يسلم من الخطأ الاجتهادي إلا الكسالى والجبناء والسلبيون من الناس، وهذا إنسان يبقى جاهلاً لا يتعلم، وقد تعلمنا في قواعد النحو أن المهمل في الحروف – قسيم الحرف العامل ومقابله- هو العاطل عن العمل، الذي لا يعمل جراً ولا نصباً ولا جزماً فيما بعده، فلا عجب أن سمي: مُهملاً !!.

✍ سحابة صيف عابرة:

التعامل الفاعل الإيجابي مع الاجتهادات الخاطئة في الحياة الزوجية يحتم عدم الالتفات إليها وتجاهلها، وكأنها لم تقع، بحيث يتعايش الزوجان في وجودها، والنظر إليها كسحابة عابرة قد مضت، لا استقرار لها ولا قصد في جلبها وحضورها.

إلا أن هناك من يتشبث برأيه وموقفه بشكل صارم، حتى لو أدى ذلك إلى خسارة حياته الزوجية، وهدم ما اجتهد في بنائه سنوات وسنوات، تجده شديد الملاحظة تجاه الأخطاء، مرهف الحس نحو الهفوات، من غير أن يلحظ أخطاءه وزلاته، التي لا حصر لها ولا عدّ، وقد قيل: من كان لا يبصر غير محاسنه ومساوىء غيره، فالضرير خيرٌ منه.

ولنفرض أن شريك الحياة قد أخطأ في تقديره، فهل وقعت السماء على الأرض، وزلزلت الأرض زلزالها !!، فالمنصفون من الناس من يعلمون أن الخطأ شأن بشري، وأن النظر إلى الحسنات مقدم على النظر إلى السيئات، وما أحسن ما ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله:أن من كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله.

وقال ابن رجب رحمه الله: المنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه.

وإذا كنت ممن يضيق ذرعاً بأي خطأ يقع فيه شريك الحياة جراء اجتهاد بذله، ولم يوفق للصواب فيه، فعفواً لا تظن نفسك معصوماً من الوقوع في الأخطاء، وها هو رئيس أمريكا روزفلت المشهور بكياسته ونجاحه في السياسة يصرح قائلاً بلا تحفظ: لو كنت أستطيع الجزم بأنني على صواب ثلاثة أرباع الوقت أكون بذلك حققت أقصى ما أحلم به.

وقد قيل : الحياة أقصر من أن نقضيها في تسجيل الأخطاء التي ارتكبها الآخرون في حقنا، كما قيل: يجب أن تكون عندنا مقبرة جاهزة لندفن فيها أخطاء من نحب.

وليكن الزوجان على حذر من أن المحاسبة على الاخطاء غير المقصودة قد يدفع الطرف الآخر إلى السلبية مع الشريك في بقية الحياة حذراً من اللوم والعتاب، ولا شك أن بين الخطأ والصواب يتعلم الإنسان وتتاح الفرص.

وكم هو جميل قول ذلك العالم: إذا زلّ أخ لك، فاطلب له سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك، فأنت المعيب حيث ظهر لمسلم سبعون عذراً فلم تقبله !!.

وفي أمثال بعض الأمم تذكير بأهمية الإغضاء عن بعض العيوب حتى يستمر الزواج: افتح عينيك جيداً قبل الزواج، واتركهما نصف مغمضتين بعده!!.

وفي مثل آخر لا يقلّ روعة عن سابقه: الرجل الأطرش، والمرأة العمياء هما أسعد زوجان في العالم !!.

وحقيقة تعجبني هذه الزوجة التي قالت بكل أريحية: في النهاية يكفيني أن زوجي لا يقصد إيذائي، أو جرح مشاعري، وبين الحين والحين أُردّد وصية أمي حينما أوصتني: بأن أعرف متى أحني رأسي للعاصفة حتى تمرّ.

اختلاف الرأي لا يفسد في الود قضية:

قاعدتنا الفقهية تقرر أن كل مجتهد مصيب، وهي تحمل في طياتها مراعاة الأدب وطلب الإعذار في حق المخالفين في القضايا ذات الطابع الاجتهادي.

ونحن ههنا عندما نلمس نقاشاً يطفو على السطح بين الزوجين، فغالباً ما سنجد تبايناً في الآراء، وقد يثور الجدال ويحتدم النزاع، لكن في النهاية لا بد أن يكون بين هذا الرأي وذاك خيط رفيع يُحافظ عليه دوماً من القطع، يتمثل في بقاء الود، فاختلاف وجهات النظر ينبغي ألا يفسد للود قضية في أي حال من الأحوال.

وقـد قال أحد الفلاسفة كلمة ذهبية في هـذا الشأن: «قد اختلف معك في رأيك، ولكنني مستعد لأن أدفع حياتي ثمناً لحريتك في التعبير عن هذا الرأي»، وعندمـا نرى وجهات النظر بيننا وفق هذا المنظور ونتعامل برقي تجاه مساحة الاختـلاف فإننـا حتماً سنريح أنفسنـا ونريح شريك الحيـاة، ونتفادى الكثير والكثير من الصراعات المؤلمة في حياتنا.

وفي الحقيقـة يوصي كثير من خبراء الحياة الزوجية بضرورة بناء الرؤية المشتركة بين الزوجين، والتي تقوم على التفاهم والاتفاق على أساسيات الحياة الزوجيـة، والنقاط العريضة التي قد تكون موضـع خلاف مع استمرار الحياة الزوجية، فهي مستوى جديد من العمق في التواصل بينهما وفي علاقتهما، وهي من الأساليب القوية المؤثرة ليتعلم بها الزوجان وقف الاهتمام بصغائر الأمور، وهـي تساعد علـى توجيه المزيد من التركيز والاهتمـام أكثر بما هو صواب في علاقتـك وفي حياتـك، وتعمـل أيضاً على ظهـور أفكار جديـدة وتنبيهات على السطح عن كيفية الحصول على مزيد من الراحة والحب لكل من الزوجين.

إضاءة:

لـو نظـر أحدنا بإنصـاف إلى أخطائـه أولا، لأمكنـه أن يتمسك بشريك حياته بشدة، ويتجاهل كثيراً من الهفوات العابرة والأخطاء العفوية.

القاعدة الخامسة والثلاثون

لا ضرر ولا ضرار

هـذه قاعدة فقهية كبرى، وهي لفظ حديث كريم عن النبي ﷺ، والفرق بـين الضرر والضـرار: أن الضرر إلحـاق الإنسان مفسدة بغـيره ابتداء، وأما الضـرار فهو إلحاق الإنسان مفسدة بمن أضرَّ به على سبيل المجازاة على وجه غير جائز، ومعنى القاعدة أنه لا يجوز في الشريعة الإضرار بالآخرين ابتداءً؛ كمـا لا يجوز مقابلـة الضرر بمثله، فلا يجـوز إلحاق الضـرر بالغير، وسيقت القاعـدة بأسلوب نفي الجنس ليكون أبلغ وأعمّ في الزجر، فيترتب عليه تحريم إيقاع الضرر بجميع أنواعه.

إن الحيـاة الزوجية الهانئة لا يمكن أن تقوم في ظلّ تبييت النية من طرفي العلاقـة فيهـا على إضـرار كل واحد منهمـا بالآخر وإلحـاق الأذى به متى ما استطـاع، فهذا إشعال لنـار لا ينطفئ لهيبها ولا يخبو أوارهـا، حتى تأتي على الأخضر واليابس في العش الزوجي.

مودة ورحمة:

الحياة الزوجية الكريمة لا يمكن أن تؤتي ثمارها اليانعة ويستظل تحت أفنانها الوارفة إلا من خلال المودة والرحمة، واحترام كل طرف للآخر، وتلبية حاجاته وحقوقه بسماحة وطيب نفس، كما بيّن ذلك الخالق عز وجل في محكم التنزيل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾(الروم: ٢١).

إن الحياة الزوجية سوف تتحول إلى جحيم لا يطاق، وشقاء لا نهاية له، متى ما نشبت داخلها حرب الإضرار بين الزوجين، فقامت على الاعتداء والتسلط والإقصاء، ومحاولة جلب المصائب من قبل كل طرف للآخر، وتبادل الاتهامات والإهانات الجارحة، ونشر الغسيل أمام الملأ، وتحميل كل منهما الطرف الآخر مسؤولية انهيار الأسرة والوضع المزري الذي آلت إليه.

والخطورة تأتي ههنا من تراكم مشاعر الغيظ والحقد في النفس جراء مواقف متعددة وإساءات سبقت، وحينها تتحول عبر الوقت إلى حقد كامن في النفس وغلّ وعداوة، خصوصاً في ظل انعدام الحوار المثمر بين الطرفين، فهذه المشاعر الدفينة والمخبوءة لا تزول في الغالب من نفسها، ولا يكفل مرور الزمن محوها من النفوس، بل تبقى مُزاحةً فقط فترة من الوقت عن دائرة الشعور والوعي، تنتظر الفرصة المواتية للتنفيس عنها.

إن الإنسان مهما حاول ستر هذه المشاعر السلبية وإخفاءها، إلا أنها للأسف تظل تعمل على بناء جدار فاصل يحول بينه وبين أي مودة تجاه الطرف الآخر، وأي حياة زوجية هانئة ستقوم بلا ركنها الأصيل وهو المودة !!،

وسـوف يبقى يتصيد الأخطاء والزلات، ويعمل على إعطائها حجماً أكبر منها، وفي المقابـل نسيـان الحسنات أو التغافل عنها، ويسعـى حينئذ إلى الإضرار به مـا استطاع، بقصد إراحة النفس وإطفاء مشاعر الغيـظ والكراهية والحقد المتراكمـة، لكـن ذلك سيكـون قطعاً علـى حسـاب سعادته وراحتـه في حياته الزوجية.

وفي الحقيقـة مثل هذا التصرف قد يحصـل في علاقة طارئة بدون تأثير بالغ على الطرفين، لكنه حتماً لا يصح بتاتاً في علاقة إنسانية طويلة المدى، كما هـو الحال في الحيـاة الزوجية، إذ يعمل ذلك على جـر التعاسة إلى الطرفين، فهـي حرب تفضـي إلى خسارتهما معا، وإنما يتم التصـرف المثالي من خلال روح العفـو الصـادق والصفـح النابع من أعمـاق القلب، كما قـال الله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ (الحجـر: ٨٥)، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه الذي لا عتاب معه.

إنه الصفح الذي يعمل على تطهير القلوب وغسلها، بحيث يكون الإنسان علـى يقين بأنه المستفيد الأول في سبيل تخلصه من الاحتقان والمشاعر السلبية المدمرة لذاته، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (المائـدة: ١٣)، قـال الكفوي رحمـه الله: الصفح أبلغ من العفـو؛ لأن الصفح تجاوز عـن الذنب بالكلية واعتبـاره كأن لم يكن، أما العفو فإنه يقتضي إسقاط اللوم والذم فقط، ولا يقتضى حصول الثّواب.

وقد ورد أن رجلاً قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه: لأتفرغنَّ لحربك، فقال عمرو بكل حكمة : الآن وقعتَ في الشغل الشاغل !.

وما أحسن قول القائل:

سـألـزم نفسـي الصـفح عـن كـل مذنـب

وإن كـثـرت مـنـه إلـيّ الجرائـم

إياك والانتقام:

خطورة الانتقام أنه يدفع صاحبه إلى الإضرار بالآخرين، وذلك ما يفضي غالباً إلى الاعتداء عليهم وظلمهم بقدر زائد على الجرم الذي اقترفوه، ومما قيل في الحكمة: التشفّي طرف من العجز، ومن رضي به لا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق وحجاب ضعيف.

وقد ورد أن الناس في أول الإسلام كانوا على أن الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها في العدة، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر، حتى قال رجل لامرأته - في لحظة غضب وإرادة انتقام - والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبدا!، قالت: وكيف ذاك؟ قال: أطلقك، فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة تشتكي إلى عائشة رضي الله عنها، فأخبرت النبي ﷺ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

وكذا ورد أن قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣١)، نزل في رجل من الأنصار طلق امرأته، حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة راجعها، ثم طلقها مضارة.

فليحذر كل من الزوجين سطوة الانتقام، المفضية إلى الإضرار بشريك الحياة، وقد يندم على ذلك بعد فوات الأوان، كما قال ابن القيم رحمه الله: ما

انتقم أحدٌ لنفسه قطّ إلا أعقبه ذلك ندامة.

وقيل: مَن انتقم فقد شَفَى غَيْظه، وأخذ حقَّه، فلم يجب شُكره، ولم يُحمد في العالمين ذِكْرُه.

وقال بعض البلغاء: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام.

وقال أعرابي: أقبح أعمال المقتدرين الانتقام.

وقيل: في سعيك للانتقام احفر قبرين...أحدهما لنفسك !.

وقيل: الحياة أقصر من أن نقضيها في تسجيل الاخطاء التي يرتكبها غيرنا في حقنا، أو في تغذية روح العداء.

وأخيراً...أيمكنك أن تفعل ما أوصى به بعض الحكماء، إذا كنت زوجاً ناجحاً فاعمد دوماً إلى وضع بعض السكر في كل شيء تقوله لشريك الحياة، وانزع بعض الملح من كل شيء يقوله لك !!.

إضاءة:

هناك بشر يمتلكون قلوباً قادرة على الصفح والعفو والتسامح تجاه أخطاء الآخرين...هنيئاً لهم.

القاعدة السادسة والثلاثون

لا عبرة بالتوهم

وفي لفظ آخر: لا يبنى الحكم على الموهوم، والمقصود بالقاعدة أنه لا اعتداد بالتوهم، وهو مجرد التخيل في الذهن، الذي حاصله يرجع إلى احتمال عقلي بعيد نادر الحصول، فهذا أمر لا أساس له أصلاً، ولا يلتفت إليه، ولا يبنى عليه حكم شرعي.

وبناء عليه فإن العلاقة الزوجية تتميز عن سائر العلاقات البشرية بكونها قائمة أساساً على مبدأ المودة والتفاهم بين الزوجين ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، وتكمن الخطورة في تدخل شبح الوهم في حياتهما، وإمعان أحدهما في متابعة الآخر ومحاولة تدميره من غير شعور، مما يعمل على فتح باب تمزق الأسرة وشتاتها.

سجن الوهم:

كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي: والناس في أوهامهم سجناء.

ولا شك أن الوهم قد يصبح مرضاً نفسياً يفتك بصاحبه ومن يعايشه، حيث يدور الإنسان في حلقات مفرغة لا نهاية لها، وهو عبر خيالاته وتهيؤاته يعمل على تضخيم الوقائع والأحداث العابرة إلى أبعاد ونتائج مفزعة، وكم تسبب الوهم في تفكيك أسر كانت تعيش بهناء وسعادة، وكم تسلل إلى حياة زوجية رائعة فكانت النتيجة انفصال العرى والوشائج، ومتى ما تابع الإنسان وهمه تجاه شريك حياته فإنه سوف يجعل نفسه فريسة سهلة لبراثن الإحباط المتزايد.

وهكذا يجرّ الإنسان تفسيره للأحداث حسب توهمه إلى السقوط في حمأة الأخطاء المتتابعة، ومن ثم قد يخجل من نفسه بعدما يكتشف الخطأ في تصرفه، أو تحقق رؤية تجددت، أو تبدل قناعة بعدما تم الوقوف على معطيات جديده، وكم مرة يكتشف الإنسان أنه عانى كثيراً من أجل وهم، لو أجاد التفكير فيه على نحو أعمق لما أجهد نفسه وأتعب قلبه وأشغل عقله فيما لا طائل وراءه !!.

إن الأفكار كثيراً ما تشكّل تصرفات الإنسان، وأكبر المشاكل التي تواجهه تعود إلى لجم أفكاره السلبية تجاه من يشاركه الحياة، كما قال امبراطور الدولة الرومانية الفيلسوف ماركوس أوريليوس: حياتنا هي ما تصنعه أفكارنا.

ويعجبني ههنا نقل ما ذكره الدكتور كفاح فياض في كتابه (أفكار من ذهب): تعلمت أن العقل كالحقل، وكل فكرة نفكر فيها لفترة طويلة هي

بمثابة عملية ريّ، ولن نحصد سوى ما نزرع من أفكار، سلبية أم إيجابية.

وقال الفيلسوف الفرنسي مونتين : لا يتأثر الإنسان بما يحدث مثلما يتأثر برأيه حول ما يحدث.

الفراغ سلاح الوهم:

إن أخطـر حـالات الفكر يوم يفرغ الإنسان من عمـل نافع ديني أو دنيوي، حيـث يعمل هذا السلاح الفتاك على سحب كل الملفـات السيئة من الأدراج مع شريك الحياة، ومن ثم نبشها وتقليبها والبحث عن كل شاردة وواردة فيها.

وقد جـاء عن حكماء اليونان أنهـم إذا أرادوا معالجـة المصاب بالأوهام والقلـق أجـبروه على العمل في الفلاحـة والبساتين...فما يمـر وقت قصير إلا وقد عـادت إليـه عافيتـه وطمأنينتـه، ويقـول أستاذ الطـب بجامعة هارفرد د.ريتشـارد كابوت: بصفتي طبيباً، أنصح بعلاج العمل للمرضى الذين يعانون من الارتعاش الناتج عن الشكوك والتردد ...فالشجاعة التي يمنحها العمل لنا هي مثل الاعتماد على النفس الدائم الروعة.

فمتـى مـا أردت أن تريح نفسـك من غلـواء الوهم، فعليك بذبـح الفراغ بسكـين الجـد والعمل، وحينها يضمن لك أطباء العـالم ٥٠٪ من السعادة، أما إذا جثم الفراغ على حياتك فتهيأ وقتها للظنون والأوهام وتخبطات الحياة.

كذلـك إياك وكيل الاتهامـات جزافاً، واعلم أن ما يؤكـد بلا دليل، يمكن نفيـه أيضاً بلا دليل، وأرح عقلك وغيرك مـن تقليب الوهم وخيالاته الجوفاء، واعلم أن أجمل علاقة ما بنيت على ثقة متبادلة.

إن الأحمـق من الناس لا يتعلم حتى يقع في الخطأ الذي وقع فيه غيره، إلا

أن بعض الأخطاء لا يمكن تلافي النتائج السيئة المترتبة عليها، فكم من سلّة كسرها إنسان وهو يريد وضع الزهور فيها !.

ذكر برناردشو أن سر التعاسة يكمن في أن يتاح للإنسان وقت لرفاهيه التفكير، فلا تهتم بالتفكير فيما لا طائل وراءه، بل ابق منهمكاً في العمل، وعندئذ يبدأ دمك في الدوران، وعقلك بالتفكير، وسرعان ما تعمل الحياة الجديدة على إزاحة القلق من عقلك، فاعمل وابق منهمكاً في العمل؛ فإن هذا أرخص دواء على وجه الأرض.

إضاءة:

الناجح ينظر دوماً إلى جوانب الحياة المشرقة، والفاشل يستسلم للظنون ويصبح أسيراً في سجن الوهم.

القاعدة السابعة والثلاثون

لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان والأحوال

هــذه قاعدة فقهية أصولية يقرر فيها الفقهــاء أن تغير الأوضاع والأحوال الزمنيــة قد يكون له تأثــير واضح في كثير من الأحــكام الشرعية الاجتهادية، ذلك أن الأحكام المبنية على عرف معين أو وضع خاص من الأوضاع قابلةٌ لتغير العمـل بها وفـق الأحوال والمعطيات الجديدة التي تقتضيهـا، وينبه هنا إلى أن الحكم الثابت بالنص الشرعي ليس مراداً بهذه القاعدة.

إن الحيــاة الزوجيــة قــد تحصل بين زوجــين من جيلين مختلفــين أو من ثقافتــين متباينتين إلى حد ما، وهنا لا بد من مراعاة كل منهما لظروف الآخر وتفهـم عاداته التــي نشأ عليها، وأن يتنازل عما يمكـن التنازل عنه من تقاليد اجتماعية بحتة قابلة للتغير في سبيل المحافظة على حياة هانئة وسعيدة.

أَسْر التقاليد الاجتماعية:

نجد في الحياة كثيراً من الأزواج يشق على أسرته وعائلته تحت وطأة الالتزام بتقاليد اجتماعية معينة، حيث يتخذ حيالها موقفاً صارماً، لا يرضى التزحزح عنه، ولا يمكن لأحد تجاوزها أو حتى مجرد التفكير في الاعتراض عليها، أو إبداء وجهات النظر فيها.

والمقصود ههنا أَسْر التقاليد الاجتماعية البحتة، التي هي بطبيعتها مرحلية مؤقتة، وقد تكون سادت في فترة معينة من الزمن تلبية لظروف محددة استدعت التمسك بها، وأصبحت الآن قابلة للتغير أو التنازل عنها، نظراً إلى تغير الزمان والحال الذي نشأت تحت ظله سابقاً، وحتى لا يحصل لبس في الموضوع، أود أن أنبه إلى أن التقاليد والعادات الاجتماعية تنقسم في الجملة ثلاثة أقسام:

- تقاليد هي في ذاتها تكريس لقيم فاضلة وفق مبادئ شريعة الإسلام، كرعاية الأسرة، وحفظ النسل، والغيرة على المحارم.
- تقاليد باطلة مخالفة لشريعة الإسلام، كحرمان البنات من الميراث، وازدراء المرأة، وحبس الفتاة على ابن عمها.
- تقاليد من قبيل المباحات التي تنشأ في الأصل من أجل خدمة وظيفة اجتماعية في زمن معين، كما في ترك الأكل مع الزوجة، أو ضرورة عدم مناقشة الزوجة لزوجها.

وكلامنا إنما هو متجه إلى القسم الثالث فحسب، أما القسم الأول فالتقاليد فيه محترمة وثابتة لابتنائها أساساً على شريعة الإسلام، وكونها

مجرد تمثيل لمبادئها وصدى لندائها وعملاً بموجبها، فهذه لا تقبل التنازل عنها مهما تغير الزمان، والقسم الثاني تقاليد باطلة في أصلها، لا تمت إلى شريعة الإسلام بصلة، ولا يشفع لقبولها تغير الزمان.

لماذا قطعتي رأس السمكة وذيلها ؟ :

هناك قصة جميلة قد تكشف لكثير من الناس أنه لا داعي للتمسك بحزم وشدة ببعض التقاليد الاجتماعية الداخلة تحت دائرة المباحات، والتي قد تكون نشأت تحت ضغوط أو ظروف مرحلية معينة وانتهت دواعيها.

فيحكى أن فتاة كانت تتقن قلي السمك، إلا أنها دوماً ما تعمد إلى قطع رأسها وذيلها، فسألتها جارة لها عن طريقة قليها للسمك، فأخبرتها أن تنظف السمكة وتغسلها، وتضع البهار، ثم تقطع الرأس والذيل ثم تحضر المقلاة... وهنا قاطعتها الجارة: ولماذا أقطع الرأس والذيل؟، وهنا فكرت الفتاة قليلاً، ثم أجابت الفتاة: لا أدري! لكن والدتي كانت تفعل ذلك، ومن ثم سألت الفتاة أمها لمَ تفعلين ذلك؟، فأجابت: لأن أمي كانت تفعل هكذا، اتصلت الأم بالجدة الطاعنة في السن، وسألتها: أتذكرين طبق السمك المقلي الذي كان والدي يحبه، ويثني عليك عندما تحضرينه؟، فأجابت الجدة فوراً: بالطبع، فبادرتها سائلة: ولكن ما السرّ وراء قطع رأس السمكة وذيلها؟ ، وهنا قالت الجدة مندهشة: أما زلتم تقطعون الرأس والذيل!...فقط كنت أقطع ذلك لأنا كنا سابقاً في فقر مدقع، ولا نملك سوى مقلاة صغيرة لا تتسع للسمكة كلها، فكنت أضطر إلى قطع رأسها وذيلها حتى يسعها الإناء !!.

إن هذه القصة على بساطتها تكشف واقع كثير من الملتزمين بتقاليد

اجتماعيـة مرحليـة، قـد يكون عفـا عليهـا الزمن، وهـم يستمـرون باتباعها والانضبـاط بها واتخاذ إجراءاتهـا دون أي محاولة لتفكير جاد في التجديد أو مراجعـة الأوضاع القائمة أو ملاحظة المتغيرات والمستجدات، فتصرف الجدة في القصة السابقة وقطعها لرأس السمكة وذيلها كان بوحي فكرة مبررة تماماً؛ لأن لهـا سببـاً مقنعاً معقولاً، لكن الأجيال اللاحقة تناسـوا الفكرة والمضمون، وعمـدوا إلى مجـرد متابعة الصورة والهيئة بشكل حـرفي، من غير أن يجهدوا أنفسهـم في إعمـال الفكـر والعقل وملاحظـة الظروف، حيث بـات بإمكانهم اللجوء إلى خيارات أفضل وبدائل أوسع أفقاً، لم تكن متاحة لمن قبلهم.

تباين أجيال:

قـد يتـزوج كهل أو كبير في السن بفتاة تصغره من جيل لاحق، وهو أمر في أصلـه مباح لا غبـار عليه، ومن حقه ولا اعتراض عليـه في ذاته، إنما الإشكال عدم ملاحظته تغير الجيل الذي جاء بعده عن جيله السابق، واختلاف العادات والتقاليـد التـي تربـى كل من الجيلـين عليهـا، فتختلف حينئذ بـين الزوجين النظرات والتطلعات.

ولا شـك أن لـكل عصر ملامحـه وخصائصه التي تميـزه عن غيره، من خلال تفاوت طـرق التفكير والقناعات ومصادر تلقي المعلومات، وحينها تتغير التقاليـد والعـادات الاجتماعية بشـكل تلقائي تبعاً للتغير الدائـم والمستمر في أنمـاط الحيـاة، خصوصا مع دخـول الأفـكار الجديدة من جهـة، واضطرار الأفكار القديمة إلى التواري خلف الظل من جهة أخرى.

ولعلنـا لو تأملنا جيـداً في هذا العصر للمسنا تغـيراً جوهرياً في كثير من

أنمـاط الحيـاة، بسبب التطور السريـع والتواصل العالمي واخـتراق الثقافات، فهناك تغير ملحوظ في طرق المعيشة، والحرص على تناول الوجبات السريعة، واختلاف أساليب النـوم والاستيقاظ، ومشاهدة البرامج ومتابعة الانترنت... إلخ.

إن كل هـذه الأمور قـد يراها الجيل الجديد ذات أهميـة قصوى بالنسبة إليـه، ويفرضها على مـن يتعامل معه، وقد يعجز عن التنـازل عنها، ولذا فإن علـى الزوج في مثل هذه الحـال مراعاة زوجته الشابة، وتفهـم نظرتها للحياة بمنظور يختلف عن نظرته، وعما اعتاده من زوجة سابقة أو تعامل أجياله، وقد نقل عن سقراط قوله: لا تكرهوا أولادكم على آثاركم؛ فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكـم، وإذا كان هـذا يقال في الولد، فمثله أيضـاً يتحقق في الزوجة متى ما كانت من جيل لاحق!.

إضاءة:

متـى ما رأيـت إنساناً يصنـع التغيير، ويملـك الجرأة علـى الخروج عن الأنمـاط المألوفة غـير المبررة، فاعلم أنك حينئذ تقف علـى إنسان مبدع قادر دوماً على تحقيق أهدافه بفعالية أفضل.

القاعدة الثامنة والثلاثون

ليس الخبر كالمعاينة

المراد بهذه القاعدة الفقهية التنبيه إلى أن أثر المعاينة على النفس البشرية أعظم وقعاً من الخبر المجرد، ذلك أن المُخبَر لا يطمئن قلبه وتزول عنه الشكوك في خبر من يجوز السهو عليه والغلط، والقاعدة أيضاً نص حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة؛ إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت**».

وقد قيل:

يا بن الكرام ألا تدنو فتبصرَ ما

قد حدّثوك فما راءٍ كمن سمعا

ومسيرة الحياة الزوجية قد تعترضها بعض الأخبار المزعجة، التي لا أساس لها من الصحة، وإنما هدفها زعزعة استقرارها، وحينئذ تقتضي الحكمة ترك الالتفات إليها والمرور بها مرور الكرام، إذ هي مجرد أخبار ملفقة لم تصل إلى حد المعاينة.

وكالات الأنباء:

أساس كثير من المشاكل الزوجية وانقطاع العلاقات والوشائج وشحن النفوس يعود إلى نقل الكلام على غير وجهه، وعدم التبيّن فيه والتأكد من صحته، وترك الوقوف على ملابساته وأحواله التي قيلت فيه، فليس الخبر كالمعاينة، وتزداد خطورة ذلك عندما يصاحبه افتراء أو عدم دقة في النقل أو نوع تضليل، خصوصا في ظل وجود الآذان الصاغية المستعدة لتلقي كافة الأخبار، وقد سمى الله تعالى أمثال هؤلاء النقلة فاسقين، وأمر بالتثبت من كلامهم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات: ٦).

والعجب أن كثيراً من الأزواج يخشون وقع السحر على حياتهم الزوجية، ويحرصون دوماً على السؤال عن كيفية مواجهته وسبل التوقي منه، ولا يبالون فيما هو أعظم منه وقعاً وأكثر خطراً، وهو السماع للواشي ناقل الكلام، وصدق يحيى بن أكثم رحمه الله حينما قال: النمام شر من الساحر، يعمل النمام في ساعة مالا يعمل الساحر في سنة.

بل ليتنا نفعل كما صنع ذلك العالم الحكيم، حينما زاره شخص بعد فترة انقطاع، فنقل إليه عن بعض إخوانه كلاماً سيئاً في حقه، فكان رده الحصيف: قد أبطأت في الزيارة، وأتيت بثلاث جنايات: بغّضت أخي إليّ، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

ومن جهة أخرى فإن المبادرة إلى قبول قول كل ناقل قبل التثبت فيه خصلةٌ مذمومة، تدل على نقص في العقل والعدل، وقد قيل للتابعي الجليل محمد بن

كعب القرظي رحمه الله: أي خصال المؤمن أوضع له - بمعنى أحقر في حقه-؟، فقال: كثرة الكلام، وإفشاء السرّ، وقبول قول كل أحد.

وفي الوصايا المنقولة عن لقمان رحمه الله لابنه: احفظ إخوانك وصل أقاربك، وآمنهم من قبول قول ساعٍ أو سماع باغٍ، يريد إفساد ما بينك وبينهم ويروم خداعك، وإذا كان هذا يستحسن أن يقال في حق الإخوان والأقارب، ففي حق الزوجين الحبيبين من باب أولى.

سلاح فتاك:

ومن القصص المأثورة في خطورة الوشاية وإفسادها بين الزوجين: أن رجلاً باع عبداً، وقال للمشتري: ليس فيه عيب إلا النميمة، فاستسهل المشتري هذا العيب، وقال: رضيت به فاشتراه، فمكث الغلام أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن زوجك لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذي الموسى واحلقي من قفاه شعرات حتى أسحر عليها فيحبك، ثم قال للزوج:إن امرأتك اتخذت خليلاً، وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف، فتناوم، فجاءته المرأة بالموسى، فظن أنها تقتله فقام فقتلها، فجاء أهل المرأة وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين، وطال الأمر.

وصدق من قال:

مَن نَمَّ في الناس لم تُؤمَن عقاربُه

على الصديق ولم تؤمَن أفاعيه

عابرة القارات:

والعجب في الوشاية المبالغ فيها أنها من القدرة بمكان على أن تتجاوز

الفيافي والقفار وتعبر القارات، كما لو كانت محمولة على صواريخ بالستيه، ففي واقعة حديثة أن زوجة كانت تحمل طفلها الصغير بين نساء، وهن يتحدثن ويتمازحن، فقالت لها امرأة: إن ابنك يشبه جده لأبيه، فقالت على سبيل الممازحة: معاذ الله، لو كان يشبهه لكنت رميته في البحر، وهكذا انطلقت هذه الجملة العابرة قاطعة البحار والقارات إلى زوجها الذي كان يعمل في بلد آخر وقارة أخرى، لكن مع إضافة بعض التهويل والتزوير الذي يوغر القلوب، فكان أن طلقها الزوج من غير أن يتبين المقام والحال الذي قيلت فيه !!.

ألا يمكنك استخدام الفلتر الثلاثي:

وههنا قصة رائعة تعين الإنسان على التعامل بمهارة مع مثل المواقف السابقة، حتى يعيش حياة صافية نقية بعيداً عن خسارة علاقاته العائلية والاجتماعية:

فذات يوم صادف الفيلسوف سقراط شخصاً يجري باتجاهه متلهفاً، وهو يقول: أتعلم ما قال فيك فلان ؟، وحينها بادره سقراط قائلاً: انتظر قبل أن تخبرني، أودّ أن تجتاز امتحاناً مكوناً من ثلاثة أسئلة، حتى ننظر فيما تقول، فأولاً: هل أنت متأكد أن ما ستخبرني به صحيح ؟، فرد الرجل : لا، لكني في الواقع سمعت الخبر، قال سقراط: حسناً، إذن أنت لست متأكداً من صحة الخبر !، وثانياً: هل ما ستخبرني به يعدّ شيئاً جميلاً ؟، قال الرجل:لا، على العكس...تابع سقراط: حسناً، إذن ستخبرني بشيء سيء على الرغم من أنك لست متأكداً من صحته أصلاً !!، فبدأ الرجل يشعر بالإحراج، وتابع سقراط: ما زال بإمكانك اجتياز الامتحان، فهناك سؤال ثالث: هل ما ستخبرني به

سيفيدني ؟ فردّ الرجل: في الواقع لا، فتابع سقراط: إذن كنت ستخبرني بشيء غير صحيح وسيء وليس بذي فائدة لي، فلماذا تخبرني به من الأصل؟، فسكت الرجل، وشعر بالحرج والإهانة.

وحقيقة كم نحتاج في حياتنا وعلاقتنا إلى استعمال هذه الفلاتر الثلاثية، حتى لا تتسلل الهواجس والشكوك الفاسدة إلى القلوب، فتعمل على تسميم الأفكار وتلويث العواطف، التي غالباً ما يكون مبعثها رسائل غير مؤكدة ولا مبررة، ولا طائل من ورائها إلا جلب الهموم وتنغيص العيش وتكدير صفو الحياة.

إضاءة:

إذا كانت حياتك الزوجية من الوهن والضعف بحيث يمكن لأدنى كلام عابر أن يهدمها...فعفواً: عليك أن تعترف بأنك لم تكن بنّاء ماهراً !!!.

القاعدة التاسعة والثلاثون

ما عمّت بليتُه خفّت قضيتُه

مـراد الفقهاء بهـذه القاعدة الفقهيـة التنبيه إلى أن ما كـثر وقوعه بين النـاس وابتلاؤهم به في أغلـب الحالات فإنه يخفف فيـه عليهم، ويطلب لهم التيسير فيه قدر الإمكان.

والحياة الزوجية قد لا تخلو من بعض المنغصات أو المنافسات التي يصعب تلافيهـا، إلا أنه مما يخفـف أمرها ووطأتها على النفوس كثرة حصولها بين الناس على نسب ودرجات ومتفاوتة.

قضية الحماة:

لعل أبرز قضية ممـا تعم به البلوى في الحياة الزوجية قضية العلاقة بين الحماة والكَنّة، تلك العلاقة التي لم تكن في الغالب على وفاق على مر التاريخ، وكثيراً ما كانت تحمل منعطفـات خطيرة تؤثر سلباً على الزواج برمته، ونظراً إلى أهمية هذه القضية فسوف أخصص الكلام عن هذه القاعدة فيها.

إن هذه القضية تكاد تمر على كل عروس، ومادامت مشكلة عامة في الناس فوقعها ينبغي أن يكون أيسر على النفوس، فالإنسان دوماً يتأسى بكون المصيبة غير مختصة به، كما قال الماوردي رحمه الله: ومن تسهيل المصائب أن يتأسى المصـاب بذوي الغِير، ويتسلّى بـأولي العبر...فيستجدّ من سَلوة الأسى وحسن العَزا ما يخفف شَجْوَه ويُقلّ هلعَه.

ولذلـك لما حضـرت الإسكنـدر الوفاة كتـب إلى أمه: أن اصنعـي طعاماً يحضـره النـاسـ، ثم تقدمي إليهـم أن لا يأكل منه محـزون، ففعلت ذلك، فلم يبسـط أحد إليه يـده، فقالت: ما لكم لا تأكلون؟، فقالوا: إنك تقدمت إلينا أن لا يـأكل منـه محزون، وليس منـا إلا من قد أصيب بحميـم أو قريب!!، فقالت حينها: مات والله ابني، وما أوصى إليَّ بهذا إلا ليعزّيني به.

ونعـود إلى قضيتنـا التي لا ندعي أنهـا مستجدة في هـذا الزمان، بل هي قديمـة عبر التاريخ، ولعل مما يؤكد ذلك ما جاء في مجمع الأمثال: إن الحماةَ أُولعـت بالكَنَّة، وأُولعـت كَنَّتُها بالظِّنَّة، حيث يضرب مثـلاً للقوم بينهم معاملة وخلطة، لا غنى بهم عنها، ولا تزال المشارة تقع فيما بينهم.

بل ورد شعر قديم يؤكد فيه قائلُه ذمَّ الكنة، حيث يقول فيه:

إن لنا لَكَنّهْ... مِبقّةً مِفَنّهْ

مِتْيَحَةً معَنّهْ ... سِمْعَنّةً نِظْرَنّهْ

كالذئب وسْطَ القُنه ...إلا تَرَه تَظَنّهْ

ولا شك أن هذه صفات سيئة، (فهي امرأة ثرثارة كثيرة الكلام، تأتي بعجائب الأمور، تتدخل فيما لا يعنيها، معترضة دوماً، تتلصص بسمعها وبصرها، وإذا لم تسمع أو تبصر شيئاً تظننت تظنناً)، ويلحظ كيف ألصقت بالكنة !!.

وقال شاعر يذم أخا له يكرهه، ويبين كيف كان ينظر إليه شزراً:

وينظر مني إذا زرتُه

بعيني حماة إلى كنة

الدفع بالتي هي أحسن:

لا يشك في كون العلاقة بين الحماة والكنة من أشد أنواع العلاقات الأسرية إشكالاً، وذلك بالنظر إلى طبيعتها المضطربة واتسامها بالتعقيد وقيامها على وتر التنافس بين طرفين، ولذلك كثيراً ما كانت تشوبها الندية والصراع، إلا أن أنجع علاج لذلك في كل الأحوال الدفع بالتي هي أحسن، كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤).

كما أن العاقلة الحصيفة من الزوجات من تراعي مشاعر امرأة مثلها، قد كبر بها السن، حيث أشارت بعض الدراسات الاجتماعية والنفسية إلى أن الغيرة من أسباب بعض المواقف التي تبديها الحماة إلى كنتها، حيث ترى في

كنتهـا الشباب الـذي ذوى منها، والحسن الذي غربـت شمسه، فيثير ذلك في نفسهـا الأسـى، ويدفعها إلى الترفع علـى كنتها وإلزامهـا بالخضوع لأوامرها والتقيد بنواهيها.

وقد يجتمع مع ذلك أيضاً شعور الأم بسيطرة الكنة على ولدها، ومشاركتها في ملكيته وانتزاع اختصاصها به، وهي التي قامت بتربيته ورعايته في طفولته وشبابه وولعت به، فترفض حينئذ اختراق هذه الدخيلة – في نظرها- حياتها واستحواذها علـى ما يخصها، وقد ينتهي الأمر إلى معركة حامية الوطيس، لها بداية وليس لها نهاية، غايتها واحدة: كسب قلب ذلك الرجل، الذي هو ابن الحماة وزوج الكنة.

وههنا أهمس في أذن كل زوجة واعية بوصايا تجاه التعامل مع حماتها، ثم أتبعها بقصتين رائعتين، علّ ذلك يعينها في تفهمها لحياتها، وينير دربها، حتى تكسب في النهاية راحتها وحاضرها ومستقبلها:

- اجعلي شعارك دائما: الدفع بالتي هي أحسن، واعلمي أن فعل ذلك بإيمان صادق وقناعة راسخة يجلب ثماراً لا تخطر لك على بال !.
- معاملتهـا كأمّ، وتدليلهـا ومنحها الأولوية في الاهتمـام والرعاية، فهي في النهايـة من أنجبت زوجك العزيز، واعتنت بـه وسهرت على راحته، ومن ثم قدمته لك على طبق من ذهب !.
- الثنـاء علـى الحماة ومـدح ذوقهـا، أمامهـا وفي غيبتهـا، والحرص على مقابلتهـا بوجه طلق وابتسامة ساحرة، وكم صدق الإمام ابن عيينة رحمه الله حينمـا قال: البشاشـة مصيدة المـودة، والبرُّ شيءٌ هـيّن: وجهٌ طليق وكلامٌ ليّن.

- إعانتها ومشاركتها في همومها وأفراحها، وتقديم الهدايا لها في الأوقات المناسبة، ولا تنسي وصية حبيبك محمد ﷺ: «**تهادوا تحابوا**».
- الحرص على عدم شكوى الحماة إلى الزوج، فهذه معادلة صعبة بالنسبة إلى زوجك العزيز، حيث يقف حائراً بين شخصيتين ذات أهمية كبيرة في حياته.
- الحرص على ترك مساحة من الحرية لها مع زوجك الذي هو ابنها، ولا تحاولي أن تستأثري به دونها.

شكرا هوانج - قصة من الأدب الصيني:

ولعل مما يؤكد الوصايا السابقة قصة جميلة تروى في الأدب الصيني، وهي تدور حول فتاة تزوجت حديثاً، ومن ثم انتقلت إلى بيت زوجها وحماتها، وبعد فترة من الوقت أحست الزوجة بتسلط حماتها وكثرة انتقادها لها، ولعل مما زاد الوطأة عليها أنه طبقاً للتقاليد الصينية القديمة، كان عليها أن تنحني أمام حماتها، وتذعن لها وتحرص على تلبية كافة رغباتها.

ومع مرور الوقت واشتداد الأمر، لم تتحمل الزوجة ما يحصل لها، فقررت أن تفعل شيئاً حيال ذلك، ولمعت في ذهنها فكرة الذهاب إلى بائع الأعشاب وصديق والدها (هوانج)، وشرحت له موقفها، وسألته أن يمدها ببعض الأعشاب السامة حتى تتمكن من التخلص من حماتها، وبعد تأمل وتفكير منه، أخبرها بأنه سيعينها، لكن بشرط أن تصغي له وتعمل بوصيته، فوافقت فوراً بكل سرور.

وانسحب هـوانج إلى غرفة خلفية، وعـاد ومعه قنينة صغـيرة، وأخبرها أنهـا متى ما استخدمت سمّاً سريـع المفعول لحماتها فستحوم حولها الشكوك، لذلك قرر أن يعطيها سمّاً قليل المفعول، لكنه يعمل تدريجياً وببطء في الجسم، ولذلـك عليها الحرص علـى تجهيز طعام الحماة بنفسهـا والتفنن فيه، ووضع بضـع قطرات من السم عليه، وحتى تكون متأكـدة أنه لن يشك أحد فيها، فلا بـد في هذه الفترة من العمل على جعـل تصرفاتها تجاه حماتها رائعة ورقيقة، وألا تتشاجـر معها أبداً، وعليها أيضاً أن تطيـع كافة رغباتها، وأن تعاملها كما لو كانت ملكة.

وهنـا سعدت الزوجة بهذه الفكرة، وأسرعت إلى المنزل كي تبدأ في تنفيذ خطتهـا، ومضـت أسابيع ثم توالت شهور، وهي على هـذه الحال، تصنع طعام حماتهـا بنفسهـا، وتقدمه لها بابتسامـة رقيقة عذبة، وتذكـرت دوماً أن تبعد نفسها عن دائرة الاشتباه، فتحكمت في طباعها بقوة وإصرار، وعاملت حماتها كما لو كانت أمّاً لها.

وبعد ستة أشهر تغيّر جو البيت تماماً، فهي لم تدخل في جدال مع حماتها منـذ فترة من الزمن، بل العجب أن تلك الحماة بدت أكثر طيبة، وبدا التوافق معهـا أكـثر سهولة ويسراً، بـل إنها دائماً مـا كانت تثني عليهـا أمام الجيران والأقربـاء، وأن زوجـة ابنها درة نفيسة وأفضل زوجـة ابن يمكن لأحد أن يعثر عليهـا، أما الـزوج فقد أضحى سعيـداً جداً بما يراه يحصـل من تغير جذري وإيجابي يعمّ أجواء المنزل.

وذات يـوم ذهبـت الزوجة مرة أخـرى إلى صديق والدها (هـوانج)، إلا

أنها كانت فزعة مضطربة، فقد كانت ترغب بشدة في مساعدتها في منع تأثير السم في حماتها، التي تغيرت إلى امرأة لطيفة، وأصبحت تحبها كما لو كانت والدتها، حينها ابتسم (هوانج)، وقال لها: أنا لم أعطك سماً على الإطلاق... لقد كان المحلول في القنينة مجرد قليل من الماء!!، والسمّ الوحيد كان في عقلك أنتِ، وفي موقفكِ تجاهها، ولكن كل هذا غُسل الآن بواسطة الحب الذي منحتيها إياه !!.

وفي أمتنا صور مشرقة:

وقصة أخرى تكاد تكون من نسج الخيال، إلا أنها في الواقع قصة حقيقية لزوجة صابرة محتسبة، استطاعت بحنكتها وصبرها كسب المعركة أخيراً، حيث التزمت بوصية خالقها، ودفعت بالتي هي أحسن، وانتهت إلى نتيجة رائعة بكل المقاييس...أسعدت كافة الأطراف، وألقت بظلالها الوارفة على حياتها الأسرية.

إنها فتاة حصيفة تزوجت من شاب أعجبها وأحبته، وكانت وقتها في سن مبكرة لم تدرك معها كثيراً مما يحصل في الحياة من عقبات ومنغصات، أما حماتها فامرأة من النوع المتسلط، التي يكرهها الكثير من أخوات زوجها وجيرانها وأقاربها.

تقول هذه الفتاة الحصيفة: أحببت زوجي وتعلقت به، ووضعت نصب عيني أن إنشاء أسرة سعيدة يحتاج إلى تقديم تضحيات وتنازلات، وأولى هذه التضحيات ضرورة تحمّل حماتي، التي كان الكل يحذرني منها، لذا حزمت أمري وتوكلت على الله وقررت أن أضع أمرين في بالي، أولهما: أنها أمه، ومن

حقهــا أن تغــار وتحبه، وأن تخشــى سرقة الزوجة لابنها، فلمــاذا لا أعمل على تغيير هذا المفهوم لديها، ولو بعد صبر طويل !، والأمر الثاني: غداً سوف أصبح أمّا، وكما سأعاملها ستعاملني زوجة ابني، والدنيا دين ووفاء.

حينهــا التزمت مع نفســي بقاعدة جميلة، لا أحيد عنهــا: لمَ لا تكون هذه المــرأة بمثابة أمي، بــل بالمعنى الأصح: سأتخيل دوماً أنهــا أمي، وسأصبر على تصرفاتهــا كصبري علــى تصرفات أمي التــي لم أكن أحياناً علــى قناعة بها كلها، وسأرى نتيجة ذلك، ألم يأمرنا ربنا عز وجل بالدفع بالتي هي أحسن ؟.

تقــول هذه الزوجة: وإذا أحب شخــص أن يدلف إلى أجواء بعض المعارك التــي كانت دومــاً تبدأ بهــا حماتي، فسأذكــر بعض المواقف...وهــي بحق تعدّ غيضــاً مــن فيض...فقــد كانت علــى سبيل المثــال تحرص على دخــول غرفة نومــي بــلا استئذان، وتأخذ بعضــ أغراضي الخاصة، بــل وتستخدمها أمامي دفعــاً لإغاضتي، وإجبــاري على الاعتراض والكلام، لكني دومــاً أتخيلها أمي، وأصمت...بــل إنهــا أحياناً إذا دخلــت لتأخذ نوعاً معيناً مــن أدوات التجميل، أقــول لهــا: انتظري أمــي، لدي ما هــو أجمل منه وأغلــى، وبالفعــل أخرج لها الأجمل، فتبتسم لي وتأخذه !.

وقــد كنــت حقاً أحرص ألا أغلــق غرفتي نومي، خصوصــاً اذا كنت نائمة وزوجــي غير موجود، لأنهــا تحب فتح الباب بين الفينــة والأخرى، وكنت وقتها أتخيلهــا أمي تــود الاطمئنان علي...بــل في بعض الأوقات عندمــا أكون خارج المنــزل، وأعود مع زوجي أتفاجأ بها نائمة علــى سريرنا بحجة أن غرفتنا أكثر بــرودة، أو أن السريــر مريح لظهرها، فــلا أزيد على قول:لهــذا كانت غرفتنا

مباركة ورائحتها كالمسك، لقد زارتنا البركة...فتبتسم بحياء، وتخرج.

وكانت أحياناً تقتحم غرفتي وتفتش بين ملابسي، بحجة أن الخادمة أضاعت بعضاً من ملابس ابنتها، ولعلها أدخلتها بين ملابسي بالخطأ !، ومع ذلك كنت أساعدها في عملية البحث، لأني أتخيلها أمي، وأصمت...

وكنت في كل مرة أرجع من السوق أريها أغراضي واحداً تلو الآخر، حتى الأشياء الخاصة، ولا أنسى حينما أنزل إلى السوق أن أشتري لها هدية جميلة.

وهكذا استمرت معاركها الحامية خمس سنوات...تارة في الأكل وأنه غير مناسب، وتارة بسبب الأولاد وعبثهم في المنزل، ولم تر مني إلا الصبر والابتسامة، وبعدها انقلبت تلك المسيطرة العنيفة إلى إنسانة رائعة، وانقلب حالها معي، فأصبحتُ الغالية المفضلة، وصارت تفضلني على جميع زوجات أولادها، بل أضحت تحرص على شراء الهدايا لي بنفسها، وتقول: هذه للمرضية الغالية !!.

إضاءة:

قد لا تستطيع منع طيور الأسى من التحليق فوق رأسك...ولكنك تستطيع منعها من أن تعشعش فيه. (مثل صيني).

القاعدة الأربعـــــــون

المتوقع كالواقع

هــذه القاعدة يريد بها الفقهاء بيان أن مــا كان متوقعاً، بحيث يغلب على الظن إمــا حصوله أو زواله، فإنه يجعل كالحاصل الواقع، ويعطى حكمه، ذلك أن الشرع يحتاط لما يغلب وقوعه كاحتياطه لما يتحقق وقوعه.

وإذا تقرر هذا، فإن الحياة الزوجية تتطلب من الزوجين مراعاة التوقعات المستقبليـة، فمـا غلب على الظـن حصوله منها اتُخـذت الاحتياطات اللازمة تجاهـه، وقـد ذكر الزمخشري رحمه الله أنه قد يجعـل المتوقع الذي لا بد منه بمنزلـة الواقع، وأن منه ما ورد أن عبـد الرحمن بن حسان بن ثابت دخل على أبيه حسان رضي الله عنه، وهو طفل يبكي، فقال له: ما أبكاك ؟، فقال: لسعني طائـر كأنه ملتف في بردي حبرة، فقال حسان: يا بني قلتَ الشعر ورب الكعبة، يعني ستقوله، فقد جعل المتوقع كالواقع.

استشراف المستقبل:

لو تأملنا في كثير من العقبات التي تعترض طريق النهوض بالحياة الأسرية في حياة الأزواج لوجدناها ناشئة من ضعف الرؤية المستقبلية والوعي بالمشكلات التي يمكن تجددها، وعدم امتلاك خريطة واضحة المعالم تجاهها، خصوصاً في ظلّ ما يشهده العصر الحديث من تسارع وتيرة الوقائع والأحداث والتغيرات المتلاحقة والأنماط المتطورة، وذلك ما يستدعي العمل وفق نظرة عميقة لا تسمح بالتواصل السطحي المألوف، الذي يعد سبيلاً إلى الحيرة في اتخاذ القرارات والتخبط في الخطوات، والارتجالية العشوائية في كثير من المواقف.

إننا كثيراً ما نفتقد التخطيط السليم على المستوى الأسري، الذي يرتبط دوماً بقضايا الأسرة المصيرية ومتطلباتها المستقبلية، وذلك من خلال تنظيم شؤونها وفق برنامج محدد لتحقيق أهداف معينة خلال فترة زمنية محددة، وذلك ما يتطلب إدارة الأولويات وترتيب الخطوات التي يسعى الزوجان إلى تنفيذها من أجل الوصول إلى الأهداف والغايات والتطلعات والطموحات والأحلام.

وكثيراً ما يعيش الزوجان هكذا بلا تخطيط، تغلب على حياتهما العفوية ضمن حدود الظروف والمصادفات ومجريات الحياة، لا وفق أفكار منظمة وأفعال متسقة، ينجبان الأطفال الواحد تلو الآخر، فيضيق المنزل وتتراكم المشكلات، فإذا ما أرادا البحث عن منزل آخر إذا بالخزينة خاوية، جراء العيش تحت شعار: أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب!.

وقد قيل في الحكمة: الضربة المتوقعة أقل قسوة، والذي يُخشى منه حقيقة أن يصاب الزوجان جراء المفاجأة بتراكمات التصرفات العفوية من قبلهما بضربة قاصمة تطوّح بهما وتفقدهما التوازن، أو تعمل في نهاية الأمر على تفتيت الأسرة وتشتيتها.

إن تنظيم شؤون الأسرة وفق خطط مدروسة يساعد على صنع مستقبل أحسن، وذلك بفضل ما يؤمّنه من منافع متعددة، ومن أهمها :

- اكتشاف المشكلات التي قد تعتري الأسرة أو أحد أفرادها قبل وقوعها، ومن ثم التهيؤ لمواجهتها، أو حتى قطع الطريق عليها والحيلولة دون وقوعها، وهذا ما يعمل على إنشاء وظيفة الإنذار والاستعداد المبكر للعقبات والتحديات المستقبلية.
- اكتشاف الموارد والطاقات المتيسرة، التي تساعد على اتخاذ مسارات مناسبة، يمكن أن يتلافى بها كثير من صدمات المستقبل ومتطلباته.
- بلورة الاختيارات المتاحة تجاه الظروف المتوقعة، وترشيد المفاضلة بينها.

وأود هنا أن أذكّر رب الأسرة وربانها، والذي يتحمل القسط الأكبر من المسؤولية بما قاله الدكتور جوناز سالك: تكمن مسؤوليتنا العظمى نحو المستقبل في أن نكون آباء واجداداً جيدين لأولادنا وأحفادنا، وبما قاله بعض الحكماء: إن رؤية ما يمكن أن تكون عليه الأشياء، ورسم صورة للجميع كي يروها، ويفهموها حقاً يُحدث اختلافاً.

إن ما يميز الإنسان الإيجابي أن قواه وملكاته دائماً ما تعمل على تحفيزه للنظر في المستقبل والاستعداد له، وكل أسرة فاعلة حية – حسب النظرية

العامة لخبير الدراسات المستقبلية توفلر - ستجد دوماً نفسها أمام سلسلة من التوقعات المفضلة، وكذا سلسلة ثانية من التوقعات المحتملة، وسلسلة ثالثة من التوقعات غير المفضلة...وكل هذه التوقعات تتنافس فيما بينها باستمرار، وإذا عملت الأسرة بكفاءة على استشراف المستقبل وتنظيم أمورها والتضحية ببعض الامتيازات الآنية فهي في الحقيقة تسعى إلى تحويل بعض المستقبلات المحتملة إلى مستقبلات أكثر احتمالاً، وذلك من أجل تحقيق تطلعاتها وأهدافها المنشودة.

ومتى ما عاشت الأسرة في ظل هذا المفهوم الراقي في التعاطي مع واقعها ومستقبلها، أمكنها أن تتمسك بالشعار الذي يقول: توقع الأفضل، واستعد للأسوأ، ثم تقبل ما يأتيك.

فائدة: من النظر في الأمر المتوقع والاستعداد له ما يسمى بالفقه الافتراضي، وهو يعود إلى اجتهاد العالم الشرعي في اكتشاف الحكم الشرعي لشيء لم يقع بعد من الحوادث والنوازل المقدرة المحتملة الوقوع، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: وقد كان أصحابُ النبي ﷺ أحياناً يسألونه عن حكم حوادث قبل وقوعها، لكن للعمل بها عند وقوعها.

وجاء أن قتادة السدوسي رحمه الله لما دخل الكوفة اجتمع إليه الناس، فسأله أبو حنيفة رحمه الله عن مسألة مشكلة، فقال قتادة: ويحك أوقعت هذه المسألة؟ قال: لا، قال: فلِمَ تسألني عما لم يقع؟ قال أبو حنيفة: إنا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه.

التوقعات الحالمة:

إذا كنا ندعو إلى استشراف المستقبل والنظر في التوقعات الممكنة، فإننا لا ننسى التحذير من سبب رئيس للمشاكل الزوجية، وهو ارتفاع مستوى التوقعات في ردود الفعل المنشودة من الآخرين حيال التصرفات الجميلة والحسنة تجاههم، ويظهر هذا جلياً في العلاقة الزوجية، فقد يعمل أحد الزوجين في حياته الزوجية جاهداً في التقرب إلى الطرف الآخر، ومنحه كل ثقة وعطاء واهتمام، ومع مضي الزمن وازدياد ما يقدمه له يرتفع مستوى التوقعات عند الطرف الأول تجاه شريك الحياة، وينتظر أن يأخذ دوره أيضاً، وأن يقوم ذلك الطرف بمنحه القدر المقابل والمناسب من الاهتمام والرعاية بلا تردد ودون أن يتقدم بطلبه منه.

لكنه يتفاجأ عند حدوث مواقف تستدعي انتباه الطرف الآخر أن هذا الطرف العزيز الذي طالما قدم له الكثير والكثير، ليس على استعداد لمنحه الاهتمام الكافي المنتظر، والمقابل لما قدمه له طيلة الوقت، وحينها قد يتملكه شعور بالندم وخيبة الأمل الكبيرة على ما قدمه له من رعاية وعطاء، وقد يقوم بتوجيه اللوم إلى نفسه على مدى سذاجته وطيبة قلبه، التي جعلته يفرض أن عطاءات الطرف الآخر وقت الأزمات ستماثل ما قدمه له، وأن استعداده للبذل على نفس درجة استعداد الطرف الأول.

وفي الحقيقة السبب الرئيس في ذلك يعود إلى أن العطاء ههنا كان مشروطاً، فارتفع مستوى التوقعات لديه في التصرفات المنتظرة من شريك الحياة، وبلغت أقصى مداها، وقد يعمل هذا إلى دفعه إلى التعامل معه برؤية

مختلفـة وعطاء مقابل مشروط فحسـب، وهذا ما يضر بنفسـه أكثر، متى ما كان بطبيعته من النوع الباذل المعطاء قبل أن يضر بغيره؛ إذ يحملها قسراً على خلاف طبعها وسجيتها، ولو أنه توقف عن التوقعات المغرقة في الطموح ورضي وقنـع بمـا يقدمه الآخـر مهمـا كان يسيراً، لتحقق لـه شعور مناسـب بالرضا والسعادة، وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل (خُذِ الْعَفْوَ)، ومما ذكره أهل العلـم في تفسير الآية: أن المعنى اقبل الميسور مـن أخلاق الناس، ولا تستقصِ عليهم فتظهر منهـم البغضاء، فلتكن أخلاقك وعطاءاتك في الأصل نابعة من إيمانـك وقيمك ومبادئك، بغضّ النظر عن ردود الفعـل المقابلة من الآخرين، ولا تنس أن تتمثل دوماً قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩).

وأختـم أخيراً بعبـارة رائعة سطرها العالم الجهبـذ ابن حبان رحمه الله تكتـب بماء الذهب، حيث قال: مـن لم يعاشر الناس على لـزوم الإغضاء عما يأتـون من المكروه، وتـرك التوقع لما يأتون من المحبـوب، كان إلى تكدير عيشه أقـرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء.

إضاءة:

متـى رغبت في توظيـف إمكاناتك بشكل ملائم فابنهـا دوماً على توقعات مستقبلية مناسبة.

القاعدة الحادية والأربعون

المشغول لا يشغل

هـذه قاعدة فقهيـة لطيفة المبنى معقولـة المعنى، حيث تقـرر أن المشغول الـذي يكون موقوف التصرف على جهة من الجهات، لا يصح أن يتصرف فيه بتصـرف آخـر يكون مناقضاً للتصـرف الأول، كالإناء متى مـا شغل بشيء لا يتصور شغله بشيء آخر إلا إذا خلا مما فيه، وقد قال الناظم في هذا:

وقـعّـد الأصـحـاب فـيـمـا يُـنـقـلُ

بـأنـه الـمـشـغـول لـيـس يُـشـغـلُ

وهكـذا هـو شـأن الحيـاة الزوجيـة التـي لا تخلو مـن مشـاغـل ومشاكل ومنغصـات تعترض أحد الزوجين، كمـا لا تسلم من تحديـات ومنعطفات، أو انشغـالٍ بدراسة أو عمل أو سعي في كسب وطلب عيش، وهذا ما يحتم المراعاة لذلك، وعدم إشغاله بتوافه الأمور وما يمكن تأجيله منها، والحرص على تبادل العبارات المشجعة، وجودة المشاعر، ودفء العلاقات.

كهف الرجل:

يذكر الطبيب النفسي جون غراي صاحب كتاب (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) أن أحد أعظم الفروق بين عالم الرجال والنساء يكمن في طريقة تعايشهم مع الضغوط التي تواجههم، ففي حين يصبح الرجال أكثر تركيزاً وتمحوراً، تصبح النساء مثقلات ومشوشات عاطفياً، وفي هذه الأوقات تكون حاجات الرجال للشعور بالتحسن مختلفة عن حاجات النساء، فالرجل يشعر بالتحسن عن طريق حلّ المشكلات، بينما تشعر المرأة به عن طريق التحدث عن المشكلات، وعدم فهم وقبول هذه الاختلافات يخلق تصادمات غير ضرورية في علاقات الطرفين !!.

ولذلك فإن الرجل عندما يتضايق من أمر فهو في الغالب لا يتكلم عنه، بل يصبح هادئاً ويدخل في كهفه الخاص ليفكر في مشكلته، ويقلبها علّه يجد لها حلاً مناسباً، وهو لا يشعر بتحسن حتى يجد الحل، وحينئذ يخرج من كهفه، وإذا لم يكن قادراً على الوصول إلى حل فإنه يقوم بشيء ما لينسى مشكلاته مؤقتاً، كقراءة الأخبار أو ممارسة لعبة، أو الخروج مع الأصحاب، بينما حين تصبح المرأة منزعجة أو تحت ضغط من أحداث يومها، فإنها تبحث عن شخص ما تثق به وتتحدث إليه بتفصيل دقيق عن مشكلاتها، لكي تشعر براحة وتحسن.

إن هذا الفارق بين العالمين يحتم على المرأة مراعاة زوجها في مثل هذه الحالات التي يخلد فيها إلى كهفه، فلا تحاول إزعاجه بقضايا هامشية، فقد ينفجر أمامها ويحدث ما لا يُحمد عقباه؛ لأنه متى ما آوى إلى كهفه فإنه يكون

تحت ضغط نفسي كبير، حيث اختار أكثر المشكلات إلحاحاً أو أكثرها صعوبة، وعندها يصبح شديد التركيز على حلها إلى درجة أنه قد يفقد الوعي بكل شيء آخر مؤقتاً، أما المشكلات الأخرى والمسؤوليات الثانوية في نظره فتتقهقر إلى الخلف وقتها، وقد يصبح حينها كثير النسيان، وغير متجاوب، ومنشغلاً في علاقاته، فلو دار حديث معه فإنه يبدو كأن ٥٪ فقط من قدرات عقله متاحة لهذا الحديث العابر في نظره، بينما ٩٥٪ منها لا تزال مشغولة، وقاعدتنا الفقهية الرائعة تخبرك بكل لطافة أن المشغول لا يشغل، فعفواً المكان حالياً غير متاح !!، وهذا الإنسان الرائع دوماً هو في هذا الوقت غير مؤهل لإعطاء المرأة الانتباه الجيد والمشاعر التي تتلقاها عادة، والتي تستحقها بكل تأكيد؛ ذلك أن عقله مشغول، وهو عاجز في هذه اللحظة عن تحريره.

الزوجة وبؤرة العمل:

لا شك أن وظيفة الزوجة الأساس تتمحور حول رعاية بيتها وتربية أولادها والعناية بزوجها، لكن ماذا عن انشغال المرأة بوظيفة أخرى !!، فنحن في عصر أصبح يحتم خروج كثير من النساء لبعض الأعمال ذات الصبغة المباحة، وكثيراً ما يشكو الزوج ويؤرقه غياب دور زوجته في المنزل في ظل انشغالها تحت وطأة ضغط دراسة أو عمل، وهذا ما يعمل بدوره على زعزعة استقرار الأسرة واقتحام هدوئها.

وفي الحقيقة أود أن أهمس في أذن كل زوج اقترن بامرأة طالبة أو عاملة وكان ذلك بموافقة منه أو تشجيع، أن يتعقل كثيراً في طلباته منها وأن يتفهم وضعها، فهي بلا شك مشغولة، والمشغول لا يشغل، فليس من الحكمة أن تطالب

بوظائف زائدة عن قدرتها أو خارجة عن نطاقها، وأن تكون كالزوجة المتفرغة تماماً لبيتها وشؤون زوجها.

ومـع ذلـك فإني من جهة أخرى أود أن أنبـه الزوجة العاملة على خطورة أن يأخذهـا انشغالها بدراستها أو عملها الوظيفي بعيداً عن بيتها، مما يفضي إلى إهمال حاجات الـزوج النفسية والعاطفيـة، ولذلك تؤكد الكاتبة الأمريكية مليسـا ساندرز- مؤلفة كتاب الزوجة والحبيبـة، والتي فازت بجائزة الزوجة المثاليـة في أمريكا ثـلاث مرات متتالية- أنها تأكدت بعـد تجربتها الشخصية وتوصلـت إلى أن انحـراف الزوج يرجـع في معظم الأحيـان إلى جهل الزوجة بالأسلـوب الذي يجب أن تتعامل به مع زوجها لتحصينـه أمام كافة المغريات، وأيضـاً فإن انشغال الزوجـة وامتناعها عن تلبية احتياجـات زوجها العاطفية يدفع الـزوج لمحاولة الحصول على تلك الاحتياجـات بوسائل أخرى بعيداً عن الزوجة المشغولة دائماً.

✍ متى يتوقف الرجل عن الاستماع لزوجته:

بيّنـت دراسة حديثة أنها لن تدعي أن الرجال مبرمجون، ولكنهم متفقون كثـيراً على عـدم الاستماع إلى زوجاتهم في بعض الأوقـات، وبعد استفتاء عام على مجموعة من الرجال تبين أن هناك على الأقل ستة أوقات لا يحب الرجال أن يُشغلـوا فيهـا ولا يحبـذون مناقشة أي موضـوع مهمـا كان، أو حتى إعطاء رأيهم، لذا على الزوجة العاقلة تجنب الحوار مع زوجها في هذه الحالات، التي قطعاً سيكون مشغولاً فيها، والقاعدة تقرر أن المشغول لا يشغل.

- في مـكان العمـل، فقد تشعر كثير مـن الزوجات برغبة قويـة للحديث مع

الـزوج في ذلك الوقـت، ولكن ما لا يعرفنه هـو أن الرجال لا يحبذون هذا التصرف، بل وسيحاولون تجنب الحديث مع زوجاتهم قدر الإمكان، وعلى الأغلـب سيكون ردهم بالرفض على أي اقـتراح، لا لشيء !، وإنما لمحاولة إنهاء المكالمة بأسرع وقت ممكن، لذا توقفي عن ملاحقته في مكان عمله.

- عندمـا يشاهد برنامجه المفضل عـبر التلفاز أو وسائل الاتصال المختلفة، لـذا لا تحاول الزوجة الحكيمـة في هذا الوقت فتـح أي موضوع معه سواء كان جديـداً أو قديماً، بـل تتركه يستمتع بوقته، وبعد ذلك تتحدث إليه، أو يمكنها أن تنسى الموضوع الذي قد يكون غير ذات أهمية !!.
- قبـل المعاشرة الزوجيـة مباشرة، فلا يصح أن تستغـل الزوجة الحصيفة هـذا الوقت لمناقشـة أي موضـوع؛ لأن زوجها لن يكون في حالـة تسمح له بالحديـث أو إصدار قرارات مناسبة، وغالبـاً ما سينسى أي وعود أطلقها بعـد ذلك، لذا وحتى لا تشعر الزوجة بالإحباط فعليها تأجيل الحديث إلى وقت آخر مناسب.
- وقت العودة من العمل، فبعد يوم حافل بالتعب كل ما يريده الزوج هو طبق طعام منزلي شهي، ومن ثم الاسترخاء والراحة.
- في الأماكـن العامـة، كالأسواق والمطاعم والمتنزهـات، فالرجال لا يحبون مناقشـة المواضيـع الحساسـة والحاسمة فيهـا؛ لأنهم يخشـون إنصات الناس لأحاديثهم العائلية.
- عندمـا تتذمر الزوجـة كثيراً خلال اليـوم، فمتى كانـت لحوحة ولجوجة ومتذمـرة بشـكل متكـرر فعلى الأرجـح فإن زوجهـا قد توقف عـن سماع

شكواهـا من المرة الثانية، أما المـرات التي تلي ذلك فهو غير مهتم بسماع ما تقوله، وهذا يعني أنه غير مستعد للحوار.

إضاءة:

عنـد الإنسان المشغول من المعاناة والهموم ما يكفيه، فهو ليس بحاجة إلى معكرات إضافية !!.

القاعدة الثانية والأربعون

المشقة تجلب التيسير

هـذه إحـدى القواعد الفقهيـة الكبرى الخمـس التي يـدور عليها معظم أحـكام الفقه، وهي قاعدة يتخـرج عليها جميع رخصـ الشريعة وتخفيفاتها، والمـراد بها تقرير أن العناء والصعوبة البدنيـة أو النفسية التي يجدها المكلف عند القيام بالحكم الشرعي تصـير سبباً شرعياً صحيحاً للتسهيل والتخفيف عنه بوجه ما.

وهنـا يلحظ أن التصرفات المطلوبـة من قبل أحد الزوجين متى كانت من الصعوبـة عليه بمكان، سـواء من الناحية البدنيـة أو النفسيـة أو المالية، فإن الحكمـة ومراعاة الحال تقتضي التخفيف عنه والتيسير عليه، أو التغاضي عن المطالبة بها أساساً.

لن تجد كاملاً:

النقص صفة تلازم البشر، ومعظم الناس لا يحوز السبق والفضل فيما يتصف به من الصفات، وما يقوم به من الأعمال والتصرفات، ومقارب الكمال فيهم قليل، كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله: «**إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة**».

وليس المقصود بهذا الحديث تبرير واقع النقص البشري وتكريس جوانب الضعف فيه، بقدر ما هو تقرير واقع ملموس عن الطبيعة الإنسانية، التي لا تكاد تقارب الكمال، كحال الإبل في كثرة عددها، فإذا أردت منها راحلة نجيبة تصلح للحمل والركوب لم تكد تجدها.

وهناك مِن الأزواج مَن تراه كأنه ينشد العيش في أبراج عاجية، حيث دائماً ما يسرح في فضاء الخيالات، ويعيش في عالم المثاليات، ولا يلتفت إلى هذا الأمر، فيتعب نفسه ويطالب شريك حياته بما لا طاقة له به، وينتظر منه أن يقدّم من الأمور البدنية أو المادية أو المعنوية ما لا قِبَل له به، دون مراعاة لطبيعته البشرية، ونشأته العائلية، وطاقته الفطرية، وظروفه الاجتماعية، وحالته المادية، وحينها يشق عليه ويحمله كل عسير، ولا يلتفت إلى أن المشقة تجلب التيسير.

ولذلك لما جاء أحد العرب إلى خاطبة تدُّل على النساء، قال لها: ابغني امرأة، قالت:صفها لي، قال: أريدها بِكْراً كثيب، أو ثيباً كبكر، حلوة من قريب، فخمة من بعيد، كانت في نعمة، فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمة وذلّ الحاجة، فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة، فقالت على

الفور: لقد أصبتها لك، قال: وأين هي؟، قالت: في الرفيق الأعلى من الجنة، فاعمل لها، وقد صدقت تلك الخاطبة فهذا إنسان مبالغ، قد طلب ما لا يلتمس من نساء أهل الدنيا، وكأنه يعيش في كوكب آخر !!.

وأسوأ منه مبالغة ذلك الأعرابي الذي لما أراد الزواج، طلب من ابن عم له أن يبحث له عن امرأة بيضاء، مديدة فرعاء، كلامها شفاء، ورؤيتها سعادة وهناء، إن سكتت أسمعت، وإن تكلمت أقنعت وأمتعت، فقال له ابن العمّ: وأنى لنا بمثل هذه إلا في الجنان !!.

يسروا لا وتعسروا:

وهذا جزء من حديث وارد عن النبي ﷺ، وهو عام في طلب جميع أنواع التيسير على العباد، ما دام ذلك لا يخالف نصاً ولا قاعدة شرعية، ولا شك أن اتباع منهج التيسير في الحياة الزوجية كفيل بنشر السعادة في ربوعها، فمن أحب بصدق راعى الظروف والإمكانات، سواء كانت مادية أو معنوية، وتنازل عن المطالبة بالوفاء بحقوقه كاملة.

وهنا قد يجد أحد الزوجين من شريك الحياة شيئاً من ضعف العطاء، أو قلة الإنجاز، أو ضعف القدرة على تحمل الشدائد والمواقف العسيرة، أو سلاطة في اللسان، أو حدّة في الطبع، إلى غير ذلك من الصفات السيئة، وقد يكون مع وجودها في طبيعته ذا دين وعفة وشهامة، فهنا من الحكمة الصبر عليه، وعدم تحميله ما عجز عن إصلاحه، وتغليب النظر إلى صفاته الإيجابية.

وفي هذا الصدد نذكّر بالإرشاد الوراد عن النبي ﷺ، وذلك في قوله: «**لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة، إن كَرِه منها خُلقاً، رَضِي منها آخر**»، والمعنى لا يبغض

الزوج زوجته (وذكرُ الإيمان ههنا تنبيهٌ لطيف وتذكير جميل بالصفة الإيجابية فيها) إذا رأى منها ما يكرهه من الأخلاق؛ بل ينظر بعين العدل والإنصاف تجاهها.

وكم أبدع الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في كتابه (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة) حينما ذكر أن في هذا الحديث فائدتين عظيمتين، إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة وكل من بينك وبينه علاقة واتصال، وأنه ينبغي أن توطن نفسك على أنه لا بد أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه، فإذا وجدت ذلك، فقارن بينه وبين ما ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة، بتذكر ما فيه من المحاسن، وبهذا الإغضاء عن المساوئ وملاحظة المحاسن، تدوم الصحبة والاتصال، وتتم الراحة، والفائدة الثانية: زوال الهمّ وبقاء الصفاء، والمداومة على القيام بالحقوق، ومن لم يسترشد بهذا الهدي، بل عكس القضية فلحظ المساوئ، وعمي عن المحاسن، فلا بد له من القلق وتكدّر الحال مع من يحب، وانقطاع كثير من الحقوق.

وتذكر دائماً ما قاله التابعي الجليل محمد بن سيرين رحمه الله: ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوء ما تعلم، وتكتم خيره !!.

إضاءة:

من أجل شقائك في الحياة الزوجية كلّ ما عليك فحسب: تسليط عدستك المكبرة باتجاه أخطاء شريك الحياة وهفواته !!.

القاعدة الثالثة والأربعون

معظم الشيء يقوم مقام كله

تأتي هذه القاعدة الفقهية بصيغ أخر، وهي: الأكثر ينزّل منزلة الكمال، والأكثر يقوم مقام الكل، وللأكثر حكم الكل، ومعناها أنه في كثير من أمور الشريعة متى ما تحقق معظم الشيء أو أكثره أو غالبه فإن له حكم ما لو تحقق كله، ولهذا تحصل الركعة بإدراك الركوع مع الإمام.

وهكذا في الحياة الزوجية متى ما استطاع أحد الزوجين تلبية معظم الشيء المطلوب منه، سواء كان متعلقاً بأمر مادي أو معنوي، فبها ونعمت، ولا يحمّل أن يأتي به كاملاً وإلا فلا حاجة له!، فهذا قد يكون تعنتاً غير مقبول، كيف وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وذكر أهل العلم: أن المعنى اقبل الميسور من أخلاق الناس، ولا تستقصِ عليهم.

كل شيء أو لا شيء:

كثيراً ما يقْصُر الإنسان تصرفاته في علاقاته مع الآخرين على مبدأ: كل شيء أو لا شيء، وقد لا يتزحزح عن موقفه ويشبث به، وقد يعضّ عليه بالنواجذ، آملاً أن يتمكن من الحصول على كل شيء، وهو في حقيقته مبدأ غالباً ما يؤول إلى نهاية حتمية فاشلة، فكل شيء هو لا شيء !.

إن هذا النوع من البشر يعيش في دوامة لا نهاية لها، يتعب نفسه كثيراً ويتعب من حوله، فكل شيء بالنسبة إليه في حال لم يكن على المستوى المأمول تماماً فهو غير مقبول، وحينها تصبح نظرته ونمطه الطريقة المميزة لتفكيره، والتي تتحكم بتصرفاته ومواقفه تجاه الآخرين، أو الحياة، أو المستقبل.

إن كثيراً من الأزواج تجدهم دوماً في تطلع نحو الأفضل والأمثل، سواء في شؤون البيت أو التعلم أو العلاقة بالآخرين، أو حتى الشكل والمظهر، وهذا سعي يحمد عليه في الأصل، إلا أن المبالغة فيه تحمل تفاصيل مرهقة لمن يعاشرونه ويتعايشون معه، بحيث يصبح مصدر إزعاج لهم؛ إذ يدقق في كل شيء، ويرهق أعصابه بحثاً خلف الكمال المنشود، ويعيش في حالة اجترار مستمرة كالجمل، وفي النهاية قد لا تكون النتائج بالدرجة المرضية، وقد ينسى أو يتناسى أن كثيراً من أحداث الحياة لا يد لنا فيها، لذلك فالقدرة على التحكم بنتائجها تبقى محدودة.

وقد صدق وأحسن من قال :

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى

فأوّل ما يجني عليه اجتهاده

إن قاعدتنا الفقهية الرائعة ههنا توجهك إلى أن الأكثر يقوم مقام الكل، بل ينزل منزلة الكمال، فلن تستطيع تنفيذ وتحقيق طموحاتك وتطلعاتك بكامل تفاصيلها، فالحياة ليست خيارات ثنائية وبهذه لدرجة من الحدّية (كل شيء...أو لا شيء)، وإنما سعيٌ وبذل ومحاولة، وفي النهاية قد تنجز خطوات وتتعثر في أخر، وقد تكسب أشياء وتخسر أخر، والعبرة في المحصلة الإجمالية، ومتى ما تحققت لك مع شريك الحياة غالب التفاصيل التي تطمح إليها فاعلم أنك على مستوى عالٍ من النجاح، واحذر من السعي الدؤوب وراء المثالية الجوفاء المفضية إلى الإرهاق الجسدي والتوتر النفسي.

يقول العالم النفسي الدكتور البرت أليس: إن تفضيل ومحاولة فعل شيء بصورة كاملة هو أمر جيد، مثل إنتاج بعض الأعمال العبقرية...ولكن الإصرار على ذلك سينتج قلقاً كاملاً.

العوض ولا القطيعة:

هذا مثل شعبي دارج، وفي بعض ألفاظه: العوض ولا الحريمة، ويعبر عنه آخرون بقولهم: ريحته ولا عدمه، والمعنى أن الحصول على بعض الشيء خير من التشدد في الأمر المفضي إلى خسارته جملة والحرمان منه كله.

إنه في كثير من مواقف الحياة متى ما تمكن الإنسان من الحصول على شيء فيها يعدّ نجاحاً منه في حد ذاته، فطريقة التفكير بصورة واقعية تلعب دوراً كبيراً في تقبل الحياة، ذلك أن الواقع قد يختلف تماماً عما يتمناه ويطمح إليه...

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

قد ترجو امرأة من زوجها أن يسافر بها هذه السنة سياحة شهراً، فيوافقها بداية الأمر على ذلك، ثم تضطره ظروفه أن يختصرها ويجعلها أقل من ذلك، فتقوم حينئذ قيامتها وتثور ثائرتها، كيف تفعل بي ذلك؟، لقد وعدتني شهراً، كيف تغير رأيك ؟ هكذا نحن في كل مرة، لم أنعم في حياتي بالفرصة كاملة... وهكذا تولول في وجهه صارخة، فيشتط حينئذ غضبه، ويتراجع عن فكرة السفر أساساً، والباب الذي يأتيك منه الريح أغلقه واستريح !.

ومما نقل في وصايا لقمان الحكيم رحمه الله: يا بني ارضِ باليسير، واقنع بما تُرزق، ولا تمدن عينيك إلى رزق غيرك فإن ذلك يؤذيك.

ولو نظرنا إلى كتاب الصلح في الفقه لوجدناه كثيراً ما ينبني على تنازل أحد الطرفين عن حقه كاملاً في سبيل الحصول على بعضه، وذلك من باب أن استدراك بعض الشيء خير من فوات كله، ويشهد لذلك ما جاء في الحديث عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه تقاضى رجلاً ديناً كان له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما، حتى سمعهما رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته، وقال: «**يا كعب**»، فقال كعب: لبيك يا رسول الله، فأشار إليه بيده أن ضع الشطر من دينك، قال كعب: قد فعلت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ لخصمه: «**قم فاقضه**».

إضاءة:

من الحكمة تقبل بعض أحداث الحياة كما هي، فليس من الضروري أن تكون دوماً كما تريد تماماً.

القاعدة الرابعة والأربعون

مقاطع الحقوق عند الشروط

هذه قاعدة فقهية من جوامع الكلم المأثورة عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، فقد ورد أنه سئل عن اشتراط الزوجة البقاء في دارها، فقال: لها دارُها، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، إذن يُطلقننا !، فقال: إنَّ مقاطع الحقوق عند الشروط، والمقصود أن الفصل بين الحقوق إنما يتحدد تبعاً للشروط، ومن شرط على نفسه فقد التزم، فوجب عليه الوفاء.

ولا شك أن الزواج مسيرة حياة، وقد يرى أحد الطرفين فيه أهمية أمر بالنسبة له، فكان من حقه أن يشترطه على شريك الحياة صوناً للحقوق وحفظاً للعهود.

لا تنس:

الأصل قيام الحياة الزوجية على المحبة والمودة وروح التفاهم، وعمل كل واحد من الزوجين على إسعاد الآخر وتلبية حاجاته وأداء واجباته بنفس رضية طيبة، والالتقاء على بساط مشترك من المراعاة والتغاضي عن الهفوات والزلات، فحينئذ لا تسأل عن مدى السعادة التي سينعمان بها ويرفلان في أثوابها، أما متى بُنيت تلك الحياة على المشاحة والتنازع والمطالبة بكافة الحقوق، فإن ذلك علامة على وجود قلق ينتاب راحتها، وكدر يشوب صفاءها، ويسعى بها قدماً نحو هاوية الشقاق والعناء الذي لا نهاية له.

ولا شك أن عقد الزوجية ميثاق غليظ، وحياة يُراد لها البقاء والدوام على أحسن حال، إلا أن الناس ليسوا على درجة واحدة في التفهم والالتزام، فمراعاةً من الشارع لهذا الأمر، وحسماً لما قد يتخوفه شريك الحياة أحياناً من ضياع بعض الحقوق التي يرى أهميتها في حياته الزوجية بالنسبة له، أباحت شريعة الإسلام لكل من الزوجين الاشتراط عند الخطبة أو وقت إبرام عقد الزوجية، وهو ما وضع له الفقهاء باباً مستقلاً بعنوان: الشروط في النكاح.

أوف بالعهد:

لقد قرر فقهاء الإسلام أن الأصل في جميع شروط النكاح التي يقصدها الأزواج الحلُّ والصحةُ ولزومُ الوفاء، حتى يقوم دليل على المنع، وحينئذ لكل من الزوجين اشتراط ما يراه مناسباً له، متى ما كان أمراً مباحاً، يحقق مصلحة له، ويحفظ حقوقه، ولا يخالف مقصود العقد، وعلى الطرف الآخر الذي قبل الشرط

توفير الاطمئنان لصاحبه والالتزام به شرعاً وعرفاً، كما قال الرسول ﷺ مؤكدا ضرورة ذلك: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**».

كما ذكروا أيضاً أن الشرط المقترن بعقد الزواج لتحقيق مصلحة أحد الزوجين ثلاثة أقسام: شرط ينافي مقتضى العقد شرعاً، كاشتراط أحد الزوجين تأقيت الزواج، فهذا شرط باطل بالاتفاق، وشرط فاسد في ذاته لكنه لا يبطل العقد، كالتزوج بشرط عدم المهر أو عدم النفقة، وشرط صحيح، وهو ما اقتضاه العقد، كاشتراط حسن العشرة، أو لم يقتضه ولكنه غير مناف له، بل يعود نفعه إلى أحد الزوجين، كأن تشترط المرأة ألا يخرجها من دارها أو بلدها، أو ألا يسافر بها، أو أن تبقى في بيت أهلها، أو أن يبقى معها أولادها من غيره، أو ألا يمنعها من العمل، فهنا الواجب على الزوج الوفاء بذلك، سواء ذُكر الشرط عند الخطبة أو وقت العقد، وإن لم يحصل الوفاء به كان للزوجة الحق في المطالبة بفسخ النكاح، ولا يعدّ ذلك من طلب الطلاق المنهي عنه شرعاً.

ومن القضايا التي تحصل كثيراً عند الزواج: اشتراط المرأة على الرجل ألا يتزوج عليها، وهذه المسألة محل خلاف بين أهل العلم، إلا أن الراجح عند المحققين منهم صحة هذا الشرط، ولزوم الوفاء به من قبل الزوج؛ ذلك إن للمرأة غَرَضاً صحيحاً ومصلحة ظاهرة في طلبها عدم الزواج عليها، كما أنها بهذا الشرط لم تعتدِ على حق أحد، وإنما أسقط الزوج حقَّه برضاه.

بل إن الفقهاء إنصافاً للزوجة وإيماناً منهم بأهمية الوفاء بالعهد ذكروا أنه إن حصل وعد من الزوج للمرأة بأمر ترغبه كإكمال دراسة ونحوها، ولم

يشترط ذلك في العقد، فمن الواجب عليه شرعاً الوفاء به، ويدل على ذلك عموم قول الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٣)، وقول النبي ﷺ في حق المنافق إنه: «**إذا وعد أخلف**».

وأيضاً إيماناً من الفقهاء بإمكانية عودة المياه إلى مجاريها ومراعاة لحفظ الحقوق، ذكروا أن الزوج إن تضايق بعد العقد من بعض الشروط التي التزم بها مسبقاً، فإن بإمكانه سؤال زوجته إسقاطَها عنه بالمعروف أو بمقابل يعطيها إياه، فإنْ رضيت بذلك وقبلته، فإن الشرط يسقط حينئذ كأن لم يكن.

وفي المقابل أيضاً من الشروط الصحيحة اللازم الوفاء بها ما لو كان الشرط المباح من قبل الزوج، كما لو شرط خدمة والديه والسكنى معهما، أو رعاية أولاده من زوجة سابقة، ونحوها من الشروط السائغة، مما فيه منفعة مرجوة أو مصلحة معتبرة من غير تأثير في سريان عقد النكاح.

إضاءة:

كم هو جميل الوفاء بالوعد...وأجمل منه سكناه الفؤاد ومناغاته الروح.

القاعدة الخامسة والأربعون

المُكبَّر لا يُكَبَّر

هـذه قاعدة فقهيـة لغويـة، وإذا كان المصغر لا يصغـر، فكذلك المكبر لا يمكن أن يكبر؛ لأنه بلغ غايته في الكبر، فيمتنع حينئذ تكبيره.

إن الخطـأ سلوك بشري لا يسلـم منه الجميع، ولا بد من تحجيمه ووضعه في موضعـه الطبيعـي، ومن ثم الوقوف تجاه صاحبه بحكمـة ورويّة، فليس من المقبـول أن نجعله أكبر من حجمه مهمـا كان كبيراً، ففي هذا بعد وتجنٍ وظلم للطرف المخطئ، وتحميل لتصرفه فوق حجمه الطبيعي.

✍ صاحب العدسة المكبرة:

إن التوازن في مواقفنا تجاه شريك الحياة مطلب رئيس، فلا يكن همك إلا مجـرد تضخيم الأخطاء والزلات والهفوات وتهويلها وإعطائها حجماً أكبر من قدرهـا، ومحاولة تصفيـة الحسابات من خلالها، والعمل علـى تأويل الكلمات العابـرة وتحميل التصرفـات العفوية ما لا تحتمل، وتكـون كمن يسلط عدسته المكبرة عليها من أجل اصطياد ما علّه أن يعلق بها.

ولذلـك يؤكـد الخبراء في أحـدث الدراسات أن عدم الالتفـات إلى بعض المساوئ سرّ استمرار الحياة الزوجية، وأن شريك الحياة الحكيم هو من يغضّ الطـرف عن التصرفات التي لا تعجبه...حتى لو وصل الأمر إلى درجة التغابي !؛ ذلـك أنـه لا يخلو شخص من نقصـ، ومن المستحيل علـى الإنسان أن يجد كل مـا يريده في الطرف الآخر كاملاً، كما أشـاروا إلى أنه من غير المعقول أن تندلع حرب ضروس بين الزوجين كل يوم من أجل أشياء تافهة يمكن تجاوزها، فالحياة بذلك تتحول إلى جحيم لا يطاق !.

وفي بعض الأحيان يحصل عند أحد الزوجين عادة لا تعجب الطرف الآخر، أو خصلة تعود عليها ولا يستطيع تركها، مع أنها غير مؤثرة في الحياة الزوجية بشيء يذكر، إلا أن الطرف الآخر يدع كل صفات شريك حياته الرائعة، ويوجه عدستـه إلى تلك الصفـة محاولاً اقتلاعها بالقوة، بينما مـن الممكن التغاضي عنها تماماً.

✍ لا تكثر النقد:

متى ما أخطا عليـك شريك الحياة فإياك وكثرة النقد وتواصله، وإطلاق

الزفرات الحارة التي تلفح المتلقي لها، وقد تحرقه بحيث يشعر بتهدم عشّ الزوجية وعدم إمكانية التفاهم، بل اجعل نقدك دوماً نقداً بناء، كنسمة باردة ونبع رقراق، يصل أكثر مما يقطع، ويبني أكثر مما يهدم، ويسعى إلى لملمة الصف، ورأب الصدع، وتشييد جسور الحب والمودة، وفتح صفحة جديدة.

وكم أحسن من قال:

غلطةٌ ثم لفظةٌ فجوابُ

فشجارٌ ففرقةٌ فطلاق

أو تغاضٍ فرِقَّةٌ فدموعُ

فاعتذارٌ فلمسةٌ فعناقُ

وإن رأيت أنه لا مفرّ من توجيه النقد، فليكن موجهاً أولاً وأخيراً إلى ذات التصرف، واحذر من نقد الذات والشخص، كما قال الشيخ الإبراهيمي رحمه الله: وإن كان لا بد من النقد، فليكن للأفكار بالتمحيص، لا للأشخاص بالتنقيص.

إضاءة:

كم هو فاشل ذلك الإنسان الذي لا عمل له سوى تضخيم الأخطاء وتصيدها.

القاعدة السادسة والأربعون

من استعجل شيئاً قبل أوانه عُوقب بحرمانه

هذه قاعدة فقهية جميلة، وعبر عنها بعض الفقهاء بقوله: من استعجل الحـق قبل وقتـه حُرمه في وقته، وهي تنبه إلى أن الإنسـان إذا تعجل أمراً قبل وقتـه الطبيعي المعتاد الذي رتب عليه الشارع حصوله، فإن سعيه مردود عليه، ويُحرم مما قصده تعزيراً له، ومعاملة له بنقيض مقصوده.

ولا شـك أن الحياة الزوجية حياة مليئـة بالأحداث، ودائماً ما تواجهها خيارات متفاوتة وتطلعات متعددة تحتاج إلى شيء من التأني والتروي، حتى لا تؤدي العجلة فيها إلى فقدها وخساراتها بالكلية.

أم الندامات:

هكذا كانت العرب تكني العجلة، التي قال فيها أيضاً عمرو بن العاص رضي الله عنه: لا يزال المرء يجتني من ثمرة العجلة الندامة، وكثيراً ما يهجم الاستعجال على الحياة الزوجية، ويرغب أحد الزوجين بشدة في رؤية الثمار واقتطافها قبل أوان نضجها، فيغلبه حبه وتشوفه لرؤية النتائج على حساب التأني أو اتقان العمل واختيار أفضل السبل، كما قال أبو حاتم رحمه الله عن الإنسان العَجِل: إنه يقول قبل أن يعلم، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم.

إن العجلة كما ذكر المناوي رحمه الله: فعل الشيء قبل وقته اللائق به، وأحياناً يكون الحامل على استعجال النتائج إرادة الإنسان تغيير واقعه في لمحة، والحرص على تحقيق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله، ومدّ بصره إلى ما وراء اللحظة الحاضرة لتناولها، دون النظر والتأمل في العواقب، ودون الإعداد المطلوب للمقدمات، وبلا فهم مسبق لكافة الظروف والملابسات، ولذلك بيّن الله تعالى في محكم التنزيل أن العجلة من طبع الإنسان تحذيراً له من مغبتها وتنبيهاً على ضرورة التعامل بضدها، فقال: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء: ١١).

ومن جهة أخرى فإن مسيرة الحياة الزوجية لا تخلو من شعب متعددة وطرق متباينة وخيارات مفتوحة، فهناك انتقال من حي إلى آخر، أو من مدينة لثانية، أو من وظيفة إلى أخرى، ومن حال إلى حال... وههنا يتطلب الأمر من الزوجين عدم العجلة في اتخاذ القرار والتأني ودراسة الوضع من جميع جوانبه، ومراعاة حساب المكاسب والخسائر، وما أجمل ما جاء عن ابن عباس

رضـي الله عنهما حينما قال: كاد صاحب الأناة أن يصيب، أو قد أصاب، وكاد صاحب العَجلة أن يخطئ، أو قد أخطأ.

وفي أثـر عـن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قـال: المُنْبَتّ لا أرضاً قطـع، ولا ظهراً أبقى، والمنبـتّ هو الذي يواصل السير بدابته مواصلة مستمرة كأنمـا تسابق الزمن، رجاء العجلة والإسراع، ثم يكون من آثار ذلك أن تنقطع به الدابة في أثناء الطريق فتهلك، فلا هو الذي رفق بدابته حتى أوصلته غايته، ولا هو الذي قطع الأرض كما كان يأمل.

كمـا أن مدح الأناة والترفق وذم العجلة ممـا استقرت عليه نفوس الناس وفطرهـم، وأجمـع عليه العقـلاء، وقد جـاء في الأمثال: في التـأني السلامة، وفي العجلـة الندامـة، كما جاء: مـن تأنى نال ما تمنى، وأيضـا: التأني حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة، وقال الشاعر:

قـد يـدرك المـتـأني بـعـض حـاجـتـه

وقـد يـكـون مـع المـسـتـعـجـل الـزلـل

وهكذا سرق:

نلمـح في الحياة استعجال كثير من النساء على أزواجهن في تغيير الحال، وإصرارهـن علـى تحسين الوضع بـأي طريـق كان، والشكوى مـن ضيق ذات اليـد، وحينئـذ تحمّل زوجها ما لا طاقة لـه به، وقد تدفعـه إلى ارتكاب جناية أو اختلاس ونحوه، إرضاء لهـا وإخراساً للسانها السليـط وإسكاتا لإزعاجها المتواصـل، وحينها تفقد تلك المرأة تحسين وضعهـا وحالها، كما تخسر زوجها وسمعة عائلتها !!.

فهـذه صحيفـة تنقل عن عامل بسيـط أنه لم يتخيل يومـاً أن الفتاة التي أسـرت عقلـه وقلبه، وظلت حلمه الذي يراوده في حيـاة أسرية هانئة مستقرة، سـوف تصبح بعد زواجـه منها طريقه إلى عالم الجريمـة واحتراف السرقة، يقـول: لقد فعلت كل شيء من أجلها، ومن أجـل أن أوفر لها المال الذي تطلبه، تركـت العمل في ورشـة الخراطة الصغيرة التي كنت أملكهـا بعد أقل من عام واحـد مـن زواجي بها، حيث لم يكـن دخلي منها يتناسب مـع مطالبها التي لا تنتهـي، وقررت ممارسة أي عمل حر، إلا أنهـا كانت لا تكفّ يوماً عن معايرتي بالعجز عن الإنفاق عليها كما يجب، وتقارن بيني وبين أزواج شقيقاتها، الذين يشغلون مناصب مرموقة، ويحققون مكاسب مالية كبيرة، ولم أستطع أن أتحمل بسبـب حبي الشديد لهـا، فأقسمت أن أفعل المستحيل لتلبيـة رغباتها، وبذلت مجهـوداً خرافيـاً في العمل في عدد مـن الورش الكبرى صباحـاً ومساء، ولكن كل ذلـك لم يشفـع لي عندها، وفي لحظة يأس قـررت السرقة لتلبية مطالبها، وسرقة من ؟ سرقة جاري صاحب المصنع، وهو عائد من المصرف حاملاً معه رواتـب العاملين لديـه، إلا أنه تصادف مرور سيارة شرطـة بالقرب من مكان حادث السطو، وبدأت في مطاردتي فور سماع استغاثة المجني عليه، وما هي إلا لحظات حتى تمّ القبض عليّ وبحوزتي المبلغ المسروق !!!.

إضاءة:

متـى ما عملت بصدق وفـق ما هو متاح وممكن متطلعـاً لمستقبل مشرق، فكن على ثقة أنك في طريقك لجعل المستحيل في نظرك ممكناً !!.

القاعدة السابعة والأربعون

من لم ينظر لنفسه لا يُنظر إليه

هـذه القاعـدة الفقهية تقـرر أن الأصل في الإنسان العاقـل الحصيف أن يسعـى في مصالح نفسـه ويعمل لما ينفعه، محـاولاً في كل الحالات جلب الخير لنفسه ودفع الضر عنها، فلا ينتظر من غيره أن يسعى في مصالحه؛ لأن من لا يعمـل لمصلحة نفسه ومنفعتها لا يعمل غيره له؛ إذ كل إنسان مشغول في الأصل بنفسه وبالنظر لها.

إن الإنسـان في حياتـه الزوجيـة بحاجـة مستمـرة إلى النظـر إلى نفسه ورعايتهـا والعناية بها، فحرصه الحقيقي علـى أسرته يبدأ بحرصه على ذاته وتطويرهـا وإكسابها المهـارات اللازمة، ولا يصح أن يظـل ساكناً وينتظر من الآخرين مدّ يد العون له، وأن يهبّوا دوماً إلى نجدته.

✍ احرص على ما ينفعك في أمور دينك ودنياك:

في الحديث عن النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»، وذكر ابن القيم رحمه الله أن هذا الحديث الشريف تضمن أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص: كان حرصه محموداً، ولا بد أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به؛ فإن حرص على مالا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص: فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين به، ثم قال: «**ولا تعجز**»؛ فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله؛ فالحريص على ما ينفعه مستعين بالله تعالى.

✍ ثق بنفسك:

متى ما أردت بصدق النجاح مع شريك حياتك فابدأ أولاً في النجاح في إدارة ذاتك، وفي تعاملك مع نفسك، وتمثل قول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

إن الثقة بالنفس ليست مجرد مظهر نتلبس به أو كلمات نتشدق بها، بل هي أمر ينبع من الداخل، نؤمن به ونتصرف من خلاله، وهي عامل نفسي مهم يلعب دوراً كبيراً في إدارة الفرد لذاته، ويحدد شكل علاقته بمن حوله وبشريك الحياة، ويسهم في حسن توظيفه لمواهبه وطاقاته، ويعمل على تحقيق أهدافه وطموحاته.

إنه كثيراً ما يشتكي الزوجان من أن الطرف الآخر لا يحقق له مراداته،

ومـا يطمح إليه في شريك الحيـاة، وإذا ما تأملنا من ذلك الشريك العمل على تغيير حاله، بدا متذمراً وعاجزاً عن تغيير أي شيء، وأنه ليس في الإمكان أكثر مما كان، وهذا جنوح إلى الضعف والدعة واستسلام وهزيمة أمام واقع يمكن العمـل على تغييره، ذلك أنه لا يوجد في دواخل النفوس شيء اسمه: لا أستطيع فعله!!، بل ما هو موجود فيها حقيقةً هو أنني ليس لي رغبة بفعله !!.

ولذلك يحذر الدكتور ستيفـن كوفي في كتابه (العادات السبع) من سلوك لغـة الانفعاليين، التي يطمحون من خلالها إلى إعفـاء أنفسهم من المسؤولية، فتجدهـم دائماً ما يرددون «هكذا أنا وهذه هي طبيعتـي»، «أنا أتحلى بالعزم، ولكـن لا يمكننـي فعل شـيء حيال هـذا»، «هذا يدفعنـي للجنـون، إنني لست مسـؤولاً عنه، هناك شـيء ما يتحكم في حياتي العاطفيـة»، «لا يمكنني القيام بهـذا الأمـر»، «لو أن زوجتي تتحلى بشيء من الصبر فـإن سلوك شخص آخر يحـدّ من فعاليتي»، وهكـذا تتولّد هذه اللغـة من روح التملص مـن المسؤولية، وتصنع الأدلة الداعمة لمعتقدهم، وحينئذ يتعاظم شعورهم بأنهم ضحية، وأن الأمـور خارجة عن سيطرتهم، وأنه لا حيلـة لهم في اختيار حياتهم، أو أنه أمر مقدّر، ودائماً يلومـون أشخاصاً آخرين أو القوى الخارجية على الظروف التي يمرون بها.

وأضـع ههنا أمامـك كلمات مأثورة من الحكمة؛ علّـك تنهض من غفلتك وتنفض الغبار المتراكم على رفوف روحك:

- إذا حططت من قيمتك فتأكد أن العالم لن يرفع سعرك.
- النـاجح يقول: الحلّ صعب لكنه ممكن، والفاشل يقول: الحلّ ممكن لكنه صعب.

- الناجح لا تنضب أفكاره، بينما الفاشل لا تنضب أعذاره.
- يتقبلك الناس حسب تقبلك لنفسك.
- يحظى المرء في حياته بالنصيب الذي يهيىء نفسه لأخذه.

أصلح ذاتك :

بدلاً من الحسرة وضياع الوقت والجهد في لوم الآخرين، ولوم شريك حياتك، هلّا كنت واقعياً ونظرت إلى حالك من زاوية أخرى، وهلاّ فكرت لماذا أنا هكذا ؟ بدلاً من التفكير لماذا هو كذلك ؟، قال الفيلسوف السويسري جان جاك روسو: أصلح ذاتك تجد السعادة أمامك.

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وأخيراً أود أن أهمس في أذنيك بمقولات رائعة، قد تفتح لك الآفاق:

- من قاد نفسه فقد قاد العالم.
- إن المرء يصبح له قيمة عندما تدور بينه وبين نفسه معركة.
- الإنسان الذي لا يفكر لنفسه هو إنسان لا يفكر على الإطلاق.
- إذا أردت قضاء مصلحتك فلتذهب بنفسك.
- الانتصارات الوحيدة التي تدوم أبداً ولا تترك وراءها أسى هي انتصاراتنا على أنفسنا.

كن كما أنت:

إذا أردت أن تكون رائعاً في نظر شريك الحياة فكن كما أنت...من غير رتوش...كن كما أنت مع نفسك واضحاً شفافاً نقياً صافياً...ستجد مع الوقت

أنك أكثر اطمئناناً وراحة...يقول أحد الخبراء في العلاقات الإنسانية: إن أهم مقوّم نضعه لأي علاقة ليس ما نقوله أو ما نفعله، ولكنه حقيقتنا.

والإنسان إذا عمل على تغيير طبعه وشخصيته التي ولدت معه (التي هي فطرية خَلقية...لا المكتسبة بحال !!)...بدا في حقيقته كالمسخ، فلا هو بقي على طبعه الذي وُلد عليه، ولا هو في استطاعته الوصول إلى طبع لم يُكتب له !!

وإذا أردت شاهد ذلك: فكل إنسان في داخله وروحه أشبه ما يكون بلوحة فنية، قد يعجب بها أناس ويرونها رائعة تأخذ بالألباب، وقد لا يلتفت إليها آخرون!، فإذا حاول ذلك الإنسان أن يغير طبعه بحسب مَن أمامه!! كان كمن يجري تعديلات على لوحته الفنية ويضيف إليها ويزيل حسب كل موقف، وحينئذ تتلوث تلك اللوحة وتبهت شيئاً فشيئاً، فلا هي لوحته الباقية على طبيعتها، ولا هي لوحة تغيرت إلى الأحسن والأفضل !!.

وتلخيصاً لما مضى يقول خبير العلاقات الإنسانية ديل كارنيجي في كتابه (فن التعامل مع الناس): اعرف نفسك، وكن نفسك، ولا تحاول التشبه بغيرك.

انتظار إلى متى:

بادر إلى إصلاح شأنك، ولا تكن كذلك الرجل الذي ركب قاربه، ودخل به عرض البحر، فتحطم مركبه جراء أمواج عاتية، إلا أنه وجد خشبة وتعلق بها، وظل منتظراً الإنقاذ والنجدة، مرّ به يوم وهو على حاله ينتظر!، بعدها شاهد مركباً يتراءى في الأفق، ففرح به وجلّي عنه...أشار إليه وصرخ بركابه وانتظر علّهم يسارعون إلى إنقاذه، لكن المركب لم يحرك ساكناً، فقال في نفسه: لمَ لا أسبح نحو المركب، فأخذ يسبح ويسبح لساعات، وإذا به لا يجد المركب !!،

بل وجد الشاطئ الذي كان يظنه مركباً، فخرج من البحر سالماً معافى، فتأمل لو انتظر هذا الرجل المركب ولم يساعد نفسه إلامَ كان سيمكث في البحر ؟؟.

إضاءة:

قال بعض الحكماء: إن أعظم معارك الحياة تحدث يومياً في حجرات الروح الصامتة، فإذا انتصرتَ في معارك الروح وإذا سوّيتَ قضايا الصراع الذي يدور بداخلك، ستشعر بالسلام والهدوء، وستشعر بمعرفة نفسك.

القاعدة الثامنة والأربعون

الوصف في الغائب معتبر

هــذه قاعدة فقهية جميلــة، تنبه إلى ضرورة مراعــاة الوصف في العقود، وقــد عبر بعض أهل العلم عنها أيضا بقولهم: ذكر الوصف يقوم مقام الرؤية، إلا أنه من الممكن استثمارها في العلاقات الزوجية.

وفي الحيــاة الزوجيــة طالمــا أفضــى وصف الزوجــة لامرأة أمــام زوجها وبيــان شيء من محاسنها ومفاتنها أو وصــف زوجها أمام امرأة وبيان صفاته ومميزاتــه إلى مشاكل كانت في غنى عنها، ذلك أنهــا تصف أمراً غائباً بعيداً عن العين، فتتعلق النفس به.

ليتها لم تجن على نفسها براقش:

علـى رصيف الحياة تتجـاذب الرغبـات، وعلى ذات الرصيـف نلمح من البشر تجارب بشر ودروس إنسانية، حيث تحرقها الآهات، وتؤرق ليلها الأنات، فتعالـج الزفـرات وتناهيد العبرات، بعد أن تاهـت الكلمات وضلت طريقها في محاولـة منهـا أن ترسو على مرفأ، علّـه يحوي بقايا من حـروف، لا تجد غير صفحات من مواقف مبللة بالدموع.

وها هــي أنثى تذرف دمعاً لا يجف: بسطت لها قلبي، فنخرت جدرانه من الداخـل، أردت تحسين صورتها في عيني زوجي، فسهلـت لها مهمة اختطافه، واقتحمـت عشي الهادئ الجميل، فكانت ضرّة مع سبق الإصرار والترصد!!، لا شك أنها طعنة في القلب بكل المقاييس، وهي لا تعرف كيف تقاوم ما تحدثه من جراح تشق صدرها.

في معترك الحياة عِبَرٌ تعلم الإنسان الكثير والكثير، وتكشف تجاربها التي يخوضهـا بحلوها ومُرّها الكثير من الأخطاء، وقد يتجرّع الظلم ويذوق مرارته مـن أقـرب الناس إليه، ويحمل داخل جوانحه نيراناً مـن الأحزان التي تستمر تكوي بصمت.

ثرثرة ليست عابرة:

ههنـا نقف على خطـأ تقترفه كثير مـن الزوجات، فـيعمـد بعضهن إلى وصـف امـرأة أو صديقـة أو جـارة أو قريبة عنـد زوجها، وتحيطهـا بالهالات السحريـة التي تأخذ بالعقـول، وقاعدتنا الفقهية تقـرر أن الوصف في الغائب معتـبر، فهو غائب عنه لم يره، ولم يقف على مساوئـه وعيوبه، فيعمل الوصف

عمله ويذهب خيال الـزوج إلى صفات أعلى بكثير من حال الموصوفة، ويتجاوز في تصـوره حدود الواقع، ويشتط خياله إلى ما هو أبعد منه، سواء من الناحية المعنوية أو الحسية، فيتعلق قلبه بها.

ولا شـك أن كثيراً من الرجال خيالاته تحلـق دوماً وتسبق خطواته...وهي ألـوف مؤلفة، وعلى نسب ودرجات متفاوتة، فهناك من خياله كجري الخيل... وآخـر كسرعـة البرق...ومنهم من هو دون ذلك...ومهمـا كانت زوجته جميلة ومتدينـة ومثقفـة...ولا عيب فيهـا...إلا أن هذه الخيالات دائمـاً ما تحلق دون قانون محدد يحكمها...اللهم إلا (فساد العقول وخراب البيوت !!)..

ومـن المعلـوم أن الإنسـان ينشـد الكمال وينـزع نحوه، وقد يكـون لمبالغة الزوجـة من أجل شدّ انتباه زوجها الأثر البالـغ في هذا التعلق، ولعل مما يؤكد هذا ما جاء عن النبي ﷺ لما وفد عليه زيد الخيل رضي الله عنه في وفد طيّ، فأسلـم فسمـاه زيد الخير، وقال له: «**ما وُصف لي أحـد في الجاهلية رأيته في الإسلام إلا رأيتهُ دون ما وصف لي...غيرك**».

وهـذا أمر ملموس ومشاهد من أحـوال النـاس، فكثيراً ما ينتهي إلى سمع الإنسـان عن مكان مثلاً أنـه جميل ساحر يأخذ بالألبـاب، فيتعلق به ويحرص على رؤيته ومباشرة الاستمتاع به، وإذا رآه علم أن هناك نوع مبالغة في الوصف من قبل المتكلم، إما لكون هذا منتهى علمه عنه، أو لرغبته في جذب الانتباه.

وفي سنـة نبي الإسلام محمـد ﷺ تحذير للمرأة من مغبـة وصف امرأة لزوجهـا: «**لا تباشـر المـرأة المـرأة، فتنعتهـا لزوجها كأنـه ينظر إليهـا**»، وقد قـال الشيخ القابسي رحمه الله: الحكمـة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور، فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: واعلم أنه إنما نُهي عن هذا؛ لأن الرجل إذا سمع وصف المرأة تحركت همته واشتغل قلبه، والنفس مولعة بطلب الموصوف بالحسن، فربما كانت الواصفة داعية إلى تطلب الموصوف بالحسن، وربما وقع اللهج بالطلب ما يقارب العشق.

خط أحمر:

بحسن نية في الغالب أو على شفا حفرة من سذاجة - مع غفلة عن الالتفات إلى ما بين عالمي الرجال والنساء من فرق - تعمد بعض الزوجات بشكل تلقائي إلى وصف إحدى صديقاتها أو قريباتها أمام زوجها ! وذلك من فرط إعجابها بتدينها وأخلاقها...أو ثقافتها واطلاعها...أو حسنها وأناقتها.

وحينئذ يتحرك كل ساكن داخل ذلك الزوج، وتتشوف نفسه وتتطلع إلى معرفة المزيد، وصدق يحي بن معاذ رحمه الله حينما قال: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها!!.

وقد قيل:

يا قوم أُذني لبعض الحي عاشقةٌ

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

الحرب خدعة:

وقد يعمد الزوج بتخابث وسوء طوية إلى إظهار عدم الاهتمام عند وصف زوجته لامرأة له!، وحينئذ يعمل على نصب شَرَكه نحو زوجته الساذجة، فيعلّق مثلاً قائلاً: لكنها ليست بذات قوام جذاب !، أو نحو ذلك من العبارات!، ليستجرّ المتحدثة ويعرف حال الموصوفة أكثر!، فتقع المسكينة فريسة في الفخ،

وتبتلع الطُعم الملقى لها على حين غرة، غير مدركة في أي متاهة قد انزلقت!، وفات المسكينة أن المكّار كان يستمتع بدهاء من خلال خيال رجل، ويرسم صورة تمناها وسعى إليها، ونالها عبر زوجته !.

ولو تأملنا الأمر لأدركنا أن ذلك لم يكن ليحصل من الزوجة لولا تكالبها على الفضفضة والثرثرة في غير محلها، وقد قال أرسطو: إن السمكة لا تبتلع الطعم أبداً، إلا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس !!، وههنا لم تبتلع الزوجة الطعم الملقى لها من قبل زوجها لولا ما كانت عليه من حرص على فتح فمها فيما لا داعي له !.

خطر لا حدود له :

تحذير النبي ﷺ من مغبة هذا التصرف وإدراك العقلاء له يحمل في طياته الحرص على اجتنابه باعتباره خطراً مدلهماً على كافة المستويات:

- فلتحذر الزوجة من وصف زوجها ومدحه لصديقتها، أو الثناء العاطر على صديقتها أمام زوجها، فتتحرك المياه الساكنة نحو ما لا يحمد عقباه، والمؤمن كيّس فطن، وقد يحمد الظن الاحترازي، وفيه قيل:

لا يكن ظنك إلا سيئاً

إن سوء الظن من أقوى الفطن

ما رمى الإنسان في مقتله

إلا حسن الظن والقول الحسن

- أن هذه ليست دعوة لأن تكون شكاكاً مطلقاً، بل لا تكن مغفلاً وساذجاً في كافة الأحوال، وضع كل الاحتمالات السيئة منها والحسنة، فهو ظن تحوطي

وقائـي احترازي، مبني على كياسة وحيطة وحذر، يعود إلى سدّ الذرائع - ومـن المعلوم أن سـدّ الذرائع في ذاته أصل شرعي، ولهـذا ذكر بعض أهل العلـم أن حديث «لا تباشر المرأة..» أصـل لمالك رحمه الله في سدّ الذرائع - ،ولا نقصد بأي حال الشكّ المرضي المنهي عنه الذي يستند إلى الأوهام والوساوس، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌ﴾ (الحجـرات: ١٢)، ولم يقـل: اجتنبوا كل الظن، ولا أن كل الظـن إثـم !!، فالشك التحوطـي في الجملة مطلـوب، وقد يبالغ في انتهاجه الخبثاء والأذكياء، ويحذّر منه مطلقاً الطيبون والأغبياء!!.

- كـم قرأنا وسمعنـا من اشتكت: جارتي سرقت زوجـي، وصديقتي اختطفت زوجـي، بل قالت ثالثة بكل ألم وحرقة: مهدت الطريق لزوجي، ليقع في حب أعز صديقاتي !، وتحكي العجائز في الماضي حكايات مماثلة!!، الغرض منها تنبيه الفتيات المقبلات على الزواج، (لا تمدحي أي امرأة أمام زوجك !).
- لتكـن علاقة الزوجة مـع الصديقة وغيرها ذات حـدود محترمة، لا يسع الآخريـن اختراقهـا وتجاوزهـا، ولتحرص علـى علاقاتهـا فيمن تحب، وتـزن تصرفاتهـا بميزان القسط، والمرأة الفطنة مـن تحافظ على عشها بـذكاء وحـب، ولا تـدع امرأة أخـرى تفترس حياتهـا وتمزقها إربـاً إرباً، ولتختـر الصديقة الصادقة، فنحن في زمـن أضحت فيه الصداقة تتغلف بالمصالـح، والمحبة تتدثر بحب الامتـلاك !!، وقد قيل: احذر عدوك مرة، واحذر صديقك ألف مرة...فربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة !.
- (يـداك أوكتا وفوك نفخ !)...زوجة تشتكـي كما في جريدة البلاد: وصفت

زميلتـي فطار مني زوجـي!!، فقد كان يطلب منـي أن أصفها له، فأفعل، لا لشيء! وإنما لينقل هو بزعمه وصفها إلى قريب له يبحث عن زوجة جميلة، وقد كان يكـرر نفس الأسئلة ؟، وأنا بدوري أكرر نفس الموال، وصدقوني ما طرأ ببالي أنه يفكر فيها، فجأة وبدون مقدمات أعلن زوجي أنه قد تم عقد قرانـه، فلم أحفل بكلامـه، فأقسم على ذلك، قلت هازلة: ومن هي سعيدة الحظ ؟، قال بكل ثقة: فلانة!! يقصد زميلتي، فلم أتحمل هول الصدمة... ذهبـت فوراً لبيت الوالـد أندب حظي، ومـا إن هـدأت أعصابي، وجمعت أفكاري، حتى أدركت سر أسئلته المتكررة، وبناء عليه قررت الانفصال عنه.

- وثانيـة مكلومة تنـدب حظها وتـذرف دمعها، فـتحكي: أصبـت بالصدمة عندما أخبرني زوجي أنه سيتزوج صديقتي وجارتي التي لا تفارقني معظم الوقـت، ليس هذا فقط، بل خـيّرني بين الرضا بالأمـر أو الانفصال الذي أعلمنـي بترتيباته، فهو سيقوم مشكوراً بإبقائي في المنزل مع أطفالي ودفع نفقـة شهريـة!، صعقت مما سمعت، فهو لم يفكر يومـاً بالزواج، ولم أشك يومـاً بصديقتي، فذهبت جرياً إليها وفتحت لي الباب، عندما قلت لها: لم تجدي غير زوجي!، ردت علي بكل وقاحة: لماذا الآن فقط أصبح (غالياً) ؟، أليس كذا و كذا، وأخذت تردد كل كلمة بحت بها عن زوجي في لحظة خلاف معه...نسيتها بعد ذلك، لكن الصديقة حفظتها عن ظهر قلب!.

- وها هو رجل يحكي قصة صديقه، فيقول: إن صديقه متزوج وعنده أطفال وزوجتـه امرأة صالحـة، إلا أنها ثرثارة !!، تحكي لـه قصص صديقاتها، ومـن ضمنهن قصـة زميلتها المعلمة التـي تبلغ من العمـر ٢٧ عاما، وهي

معلمة فاضلة وداعيــة، رفضت كل من تقدم لها؛ لأنها تشترط فيه التدين والعمــل في مجال الدعوة، ودائمــاً ما تمدح هذه المسكينــة زميلتها المعلمة أمــام زوجهــا الشيخ الداعية الــذي بدأ قلبه يميــل إلى لمعلمة وبــدأ يفكر بالــزواج منهــا بسبب مدح زوجته لهــا! ، يقول هذا الداعيــة لصديقه:أنا لم يكــن عندي رغبة في الزوجة الثانية، لكن كــثرة مدح زوجتي في المعلمة أدخلتها قلبي، وأنا الآن عازم على الزواج منها !!.

- وأبلــغ من ذلك أن امرأة كانت تخطــب لابنها، وتبحث له عن زوجة جميلة فاضلــة، حتى وجــدت ضالتهــا، وحكت عن ذلــك إلى زوجهــا وبالغت في وصفهــا والثناء عليها، فحركت داخل الكهل أشواقاً ساكنة ومياها راكدة، فسبق ابنه إلى خطبتها، وحصل النصيب !!.
- التحذيــر من مغبــة الوصف في الغائب يسري أيضــاً على الزوج، فلا يحق له أن يصف لزوجته محاسن رجل آخر كأنها تراه، فقد يدفعها بذلك إلى الإعجاب والتعلق به، وقد يثير شهوة كامنة ويحرك نفوساً غافلة، والنساء شقائــق الرجــال، ولهــذا جاء في روايــة النهي عــن الوصــف شاملاً لكلا الجنســين، فقال الرســول ﷺ الناصح الأمين: «**لا يصــف الرجلُ الرجلَ لزوجته كأنها تراه، ولا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها كأنه يراها**».

إضاءة:

قيــل: كل لاعب يجب أن يقبل كل ما يقــدم له من أوراق في الحياة...ولكن بمجرد أن تصل هذه الأوراق إلى يده...فهو الوحيد الذي يقرر كيف يلعبها حتى يربح اللعب.

القاعدة التاسعة والأربعون

يُتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام

المقصود بهذه القاعدة الفقهية: أنه إذا تعارض في أمر ما ضرران محققان، إلا أن أحدهما يقع خاصاً على شخص أو عدد قليل من الناس، والآخر يقع عاماً على عموم الناس، ولا مجال لتفاديهما معاً، فإنه يغلّب ما فيه ضرر عام فيجتنب أو يزال، ولو حصل في سبيل ذلك ارتكاب ضرر خاص؛ حيث يتحمل في سبيل دفع الضرر العام.

وهنا قد يتعارض في حق أحد الزوجين ضرران محققان، بحيث يكون أحدهما خاصاً به، بينما الآخر عام يتعرض بالخطر إلى أسرته وفلذات كبده، وحينئذ فقد يرى - مصلحةً وحكمةً- أن التضحية بوقوع الضرر عليه أهون وأيسر من إيقاع الضرر بأسرته.

زينة الحياة الدنيا:

لا شك أن أولاد الإنسان نعمة من نعم الله تعالى التي امتن بها عليه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦)، فهم بهجة الحياة وقناديلها، وكم يضحي الوالدان في سبيل زرع الابتسامة على شفاههم، وما أجمل ما قاله التابعي الجليل الأحنف بن قيس رحمه الله في الأولاد: هم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويُحِبُّوك جهدهم.

وكم أجاد من قال:

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرضِ

لو هبتِ الريحُ على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمضِ

وأي حياة مشتركة بين كائنين حيين تفتقر دوماً إلى ما يمدّها بعوامل الديمومة والاستمرار، والحياة الزوجية باعتبارها رحلة عمر تحتاج إلى عوامل تدفع الطرفين إلى البقاء سوية مهما ادلهمت الخطوب وعظمت العقبات، ولا شك أن وجود الأطفال من أبرز الأسباب التي تشدّ الروابط وتعزز الأواصر.

وقد لا تخلو الحياة الزوجية من مشكلات ومنغصات تعصف بها، أو أخطاء وهفوات يرتكبها الزوج، أو حمق ورعونة يتصف بها، ونحو ذلك من العقبات والصفات التي يمكن تحملها على مضض، وقد يلحق الزوجة بعض الأضرار منها، وتجد من نفسها صعوبة في تقبلها، إلا أنه في ظلّ وجود أطفال بينهما ينبغي أن تميل إلى التضحية والبذل من خلال تغليب مصلحتهم العامة على مصلحتها الخاصة.

ولعل مما يؤيد ذلك ما أشار إليه أستاذ التربية الدكتور/ عبد المنعم القو في مقابلة صحفية معه من ضرورة تغليب الزوجين المصلحة العامة للأبناء على المصلحة الذاتية التي تميل إلى الانفصال، لافتاً إلى أن الخلافات وتعثر المركبة الزوجية لا يعني فشلها في الاستمرار، ونوّه بأهمية أن تصبّ القرارات في مصلحة الأبناء قبل أن تصبّ في المصلحة الفردية الذاتية، وعلى أهمية تغليب المصلحة العامة على الخاصة.

ومن جهة أخرى يذكر الدكتور آلان جوتماشر في كتابه (الحمل والولادة) أن أقوى حليف للزواج السعيد هو الأطفال، فالزواج وسيلة وليس غاية...والطفل مسؤولية، ولكنه مسؤولية لذيذة، فهو لا يطلب من أبويه سوى الحب والرعاية، فإذا وجدهما قدم مقابلهما أضعاف ما قُدم منهما...إنه الرباط القوي الذي يجمع ما بين الزوجين، ويشدهما إلى بعضهما البعض...ومن أجل هذا الطفل وحده تهون كل المتاعب، وتسوّى كل الخلافات التي قد تنشب بين الزوجين.

✍ شواهد حية:

الحياة الزوجية حينما تتطرق إليها المنغصات والعقبات تضحي حياة صعبة ومقلقة وباعثة على الهم والنكد، لكنها في كثير من الأحيان تصبح أفضل من خسارة الأولاد بالنسبة إلى المرأة، ولذلك تذكر زوجة أنها قررت الانفصال من زوجها الذي لم تستطع إكمال الحياة معه، رغم ولادتها توأمين منه، إلا أنها عانت كثيراً بعد الطلاق، عندما شاهدت معاناة طفليها مع أبيهم، وندمت لأنها تركت طفليها، ورأت أنه كان من الأفضل لها لو صبرت وتحمّلت، حتى لا يعيش أولادها في ظل حياة مفككة، وأن التضحية من أجلهم كانت أفضل بكثير من خسارتهم !!.

وتذكر زوجة أخرى أنها تزوجت رجلاً واكتشفت إنه عصبي وبخيل ولا

يحــترم المرأة، إلا أنه بعد مرور سنة من الزواج أصبح لدي ولد منه، وأصبحت أفضّـل العيش معه حتــى لا يضطر ابني إلى العيشـ دون أب...وربما مع مرور الأيـام أجد وزوجي صيغة مشتركة للتفاهم، وبتضحيتي هذه أرجو أن أكون قد أنقذت أولادي من الضياع.

وهنــا قــد يتبــادر اعتراضـ وتساؤل مــن قبل حــواء: لماذا تطالــب المرأة بالتضحية من أجل الأطفال دون الرجل ؟ ولماذا تميل إلى أفراد جنسك في هذا الحكم الجائر، وهلّا جعلت التضحية كأساً مراً يتجرع منه الطرفان !!، فأقول: رويـدك أختاه، سيأتي نصيب الــزوج بعد قليل، وإنما بدأت بالمرأة قبل الرجل، إيماناً مني بأن الجنسين وإن تشابهت الظروف والأحداث التي تجعل كلاً منهما يميل إلى اكتساب صفة الأنانية ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ (النساء: ١٢٨)، إلا أنه في غالب مواقف التضحية تكون المرأة بطبيعتها وتكوينها النفسي أسرع استجابــة لها، وهذا ما يتفق مع دراسة بريطانيــة حديثة أكدت على أن طبيعة المــرأة – سواء كانت أمّــا أو فتاة مثقفة أو متعلمة أو أمّية – تميل إلى التضحية أكـثر من الرجــل، فالتضحية لا ينظر إليهــا على أنها انتحــار أو انكار للذات، بقدر ما هي إحسان ورأفة تجلب السعادة لصاحبها، ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٨).

وهــذا في الحقيقة مــا يعدّ العنوان البارز لــزكاء النفس وجمال الروح من قبل حواء، فحينما تضحي الأم وتهب زهرة حياتها من أجل أولادها، فلا بد أن تكــون مثالاً حياً لكل القيم النبيلة، حيث إنها تضحي هنا في سبيل غاية سامية ورابطــة رائعــة، لا سيما أن لكفــة الأطفال غلبة واضحة في ميــزان المقارنة مع الذات، أو مع كمّ الخسارة التي قد تتكبدها من أجلهم!!.

✍ وللزوج نصيب:

إن ما سبق الكلام عنه ينطبق على الزوج أيضاً، فالجميع يسلّم بأنه في بعض الحالات يحدث الخلل من قبل الزوجة، فهي إنسان لا يمكن أن تكون معصومة من الأخطاء والزلات والاتصاف بالصفات السيئة أو غير المرغوبة، التي قد تنكد حياة الزوج وتنغصّ عليه العيش، إلا أنه في ظلّ وجود الأطفال بينهما يحسن الصبر عليها واحتمال أذاها تضحية وبذلاً وتقديماً لمصلحة فلذات الأكباد على مصلحته الذاتية.

ولذلك أمر اللّه تعالى في محكم التنزيل الأزواج بمعاشرة نسائهم بالمعروف حتى في ظلّ وجود نوع من الكره تجاههن: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩)، ونجد ترجمان القرآن ابن عباس رضي اللّه عنهما يفسر الخير المذكور في الآية بأنه: أن يعطف عليها، فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير.

ولعل في قول النبي ﷺ عن زوجه خديجة رضي اللّه عنها: «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد» إشارةً لطيفة إلى أن وجود الأولاد من المرأة سبب من أسباب المحبة والألفة والاعتراف بالجميل، فالزوج في كل الأحوال لا ينبغي أن ينسى أن هذه المرأة كتب اللّه تعالى أن تكون أمّ فلذات الأكباد الذين يحملون شرف اسمه !!.

وها هو زوج يحكي حالته، ويكشف أنه متزوج منذ أكثر من ٣٠ عاماً، ولكنه قضى كثيراً من الأوقات في معاناة دائمة مع زوجة مختلفة كثيراً عنه، فما يراه صواباً، تراه خاطئاً، والعكس تماماً، مبيناً أنه أصبح لا يحتكّ بها إلاّ في أوقات

الواجبـات؛ من أجـل أن يشعر أبناؤه بتلاحمهما، وأشـار إلى أن الحياة مضت رغـم معاناته وافتقاده وجود امـرأة حقيقية في حياته، لكنه – مع ذلك- راضٍ بحب أبنائه له، فما أجمل التضحية عندما تخسر شيئاً من حياتك واستقرارك النفسي والعاطفي من أجل مصلحة فلذات الكبد.

ومـن جهة أخرى قد يعاني بعض الأزواج من زوجة صارمة، فهي بطبيعتها امرأة جادة قاطعة...مشدودة دائما...حادة التصرفات...شحيحة البسمات... قليلـة الكلمات...واضحة فيما تقـول وتفعل...تفرض على بيتها ما تفرضه على نفسها...تضـع نظامـاً صارماً لحياتها لا تحيد عنه...لا تـكاد تتنازل ولا تنسى خطـأ الـزوج في حقهـا، ولا ترضى بابتعـاد الأولاد عما رسمته لهـم من قواعد وقوانين، ويسمي بعض المتخصصين صاحبة هذه الطباع بالشخصية القهرية.

ورغـم ذلك فهذه الشخصية ليست بالضرورة شخصية مرفوضة يصعب التعامـل معها، بل قد يفضّل بعض الرجال الاستمرار معها والتضحية في سبيل ذلـك ببعض الامتيـازات التي يتمناها، نظراً إلى قدرتهـا الرائعة على أن تحلّ محله عند اضطراره إلى التغيّب عن المنزل لسفر ونحوه؛ إذ هي قادرة بطبيعتها الصارمة على إدارة دفة الحياة فيه ورعاية الأبناء وحمايتهم بشكل آمن، حتى إن كثـيراً مـن علماء الاجتماع يدعـون إلى الارتباط بهذه النوعيـة من النساء والاطمئنان على حياتهم الأسرية.

إضاءة:

قد نجد صعوبة في التضحية والبذل من أجل غيرنا، لكننا نكاد نتفق على أن التضحية من أجل فلذات الأكباد برد وسلام !!.

القاعدة الخمســــون

اليقين لا يزول بالشك

هذه القاعدة مـن القواعد الفقهية الكبرى، واتفق العلماء على اعتبارها، وبالغوا في الاهتمام والاعتناء بها، حتى قال بعضهم: إن المسائل المخرجة عليها تبلـغ ثلاثة أربـاع الفقه أو أكثر، ويُـراد بها أنه إذا ثبت أمـر بطريق من طرق الإثبات، فإنه لا يصح رفع هذا الثابت بواسطة ما طرأ عليه من شك.

وهكذا ما ثبت في الحياة الزوجية من عقد صحيح أو سلامة دينية وخُلُقية لأحـد شريكي الحياة، فالأصل بقاؤه وثبوتـه، وليس من المقبول رفعه بما يطرأ عليه من شكوك لا أساس لها من الصحة !!.

الوسواس القهري:

الوسواس القهري هو اعتقاد الإنسان بشيء معين يلازمه ويحتلّ جزءاً من وعيه وشعوره، سواء كان فعلاً أو فكرة، مع اعتقاده واقتناعه بسخافة ذلك، ومحاولته مقاومته، إلا أنه يظلّ مستحوذاً ومتسلطاً عليه، هذا هو الوسواس القهري بناء على المفهوم العلمي، وقد يقع في أمر الطلاق ويضحي مشكلة عويصة يعاني منها بعض الأزواج، ويشغل نفسه وأهله وغيره من أهل العلم، ويستمر في خوف وقلق من حصول التلفظ بالطلاق بشكل صريح أو بالتلميح، ورعب هائل من أن يكون الطلاق قد حدث فعلاً بسبب ذلك ، وهنا لا يكف عن سؤال من حوله: هل وقع مني الطلاق أو لا ؟، وكثيراً ما تفشل كافة محاولات إقناعه بعدم وقوع الطلاق !!.

وفي الحقيقة الذي يحصل من صاحب هذا المرض المزمن أحد أمرين، إما أن يكون ذلك مجرد خواطر وحديث نفس أو ترداد لكلمة الطلاق في ذهنه ككلمة قهرية متسلطة عليه، من غير إقدام على الطلاق أصلاً، فهذا لا يعتبر طلاقاً في الشريعة الإسلامية، حيث لم يتحقق سببه، والنكاح قد حصل يقيناً منه، فلا يزول بمجرد الشك، كما ترشد قاعدتنا الفقهية، وكما صرح بذلك ابن قدامة رحمه الله بقوله: لا يزول يقين النكاح بشك الطلاق.

وأحياناً تدفعه حالة الوسواس إلى التلفظ بالطلاق إراحة لنفسه من العذاب الذي يعانيه، فيقول حينها: يكفي هي طالق !!، أو : أف هي طالق، أو نحو ذلك من العبارات، وهو لا يريده إرادة صادقة حقيقية، وهنا أيضاً يفتي طائفة من محققي علماء الشريعة بأن الطلاق لا يقع في هذه الحالة، إيماناً منهم بأن اليقين لا يزول إلا بيقين.

وفي هذا الصدد سئل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن الوسوسة في موضوع الطلاق، فقال: المبتلى بالوسواس لا يقع طلاقه، حتى لو تلفظ به بلسانه إذا لم يكن عن قصد؛ لأن هذا اللفظ باللسان يقع من الموسوس من غير قصد ولا إرادة ، بل هو مغلق عليه وكره عليه لقوة الدافع وقلة المانع، وقد قال النبي ﷺ: «**لا طلاق في إغلاق**»، فلا يقع منه طلاق إذا لم يرده إرادة حقيقية بطمأنينة، فهذا الشيء الذى يكون مرغماً عليه بغير قصد ولا اختيار، فإنه لا يقع به طلاق.

ويبدو أن هذا المرض قديم عانى منه أيضاً الأولون، ومن طرائف ما ورد في هذا الباب: ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله في كتابه (الأذكياء) من أن رجلاً جاء إلى أحد العلماء، فقال له:إن الشيطان يأتيني، فيقول: إنك قد طلقت زوجتك، فيشككني!!، فقال له العالم: أو ليس قد طلقتها ؟، قال: لا، قال: ألم تأتني أمس فطلقتها عندي ؟، فقال: والله ما جئتك إلا اليوم، ولا طلقتها بوجه من الوجوه ؟، وحينها قال له العالم بكل فطنة وذكاء: فاحلف للشيطان إذا جاءك كما حلفت لي، وأنت في عافية !!.

شكوك لا أساس لها:

الأصل في كل مسلم ومسلمة الطهر والبراءة من العهر والمجون، والفقهاء يقررون أن الأصل براءة الذمة، فحري بكل زوج الثقة دوماً بشريك حياته، ذلك أنه لا يمكن أن تخيم السعادة ويعم الوفاق ربوع الحياة الزوجية مع وجود شبح الشك، الذي هو الوجه السيء من الغيرة المذمومة.

وفي الحقيقة بناء الثقة المتبادل بين الزوجين ينبغي أن يكون دوماً شامخاً، ذلك أن كل ذرة من شك كاذب ينهار أمامها ذرات من الحب، وحينها يختل

تماسك البناء ويبدأ في الانهيار التدريجي، وينهك الزوجان في دوامة من الأسئلة والحيرة والرقابة، وطلبات كشف الحساب لكل التحركات والخطوات، وكثيراً ما تتسع دائرة الشكوك لتكشر عن وجهها السيء من خلال سلوكيات مزعجة ومقلقة ومستفزة، ما بين طرف يعاني نار الشك وآخر يحاول جاهداً إخمادها.

ولأجل تجنب آثار هذا المرض يُوصى بضرورة العمل وفق الآتي:

- التسلح أولاً بسلاح الدعاء، فهو علاج ناجع للغيرة المذمومة، ويشهد لذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها حينما قالت: يا رسول الله، أنا امرأة غيرى !، فقال الرسول ﷺ: «**سأدعو لك أن يذهب الله غيرتك**».
- الحرص دوماً على إظهار الحب وإعلان المودة، حيث يعدّ ذلك عاملاً رئيساً لتبديد ضباب الشكوك.
- العمل على تجنب كافة السلوكيات التي قد تثير الشكوك لدى شريك الحياة وتدعمها.
- منح الثقة المتبادلة وإعطاء جزء من الحرية والخصوصية لشريك الحياة، والحذر من خنقه بالحب !.
- الحوار المباشر والفعال في وقت مناسب هادئ من أجل كشف ملابسات أي شبهة تثير الظنون لدى شريك الحياة.

إضاءة:

حينما تفتح للشك باب حياتك الزوجية...فثق أنك بذلك تتيح له إلقاء المودة والحُبّ من الشباك!!.

الخاتمة

الحمـد لله الذي يسر إتمام الكتاب، فلم تكن دراسة مباحثه أمراً يسيراً، بل تطلبت الكثير من الجهد والوقت، وهذه سمة الكتابة في الموضوعات المتعلقة بالحياة الإنسانية، ذات الجوانب والشعب المختلفة.

وقبـل الختـام أود التذكير ببعض الإضاءات التي تمـت كتابتها في فترات مختلفة، ولم يحالفها الحظ في الانتظام داخل القواعد الفقهية:

- التعامل مع المشاكل الزوجية وفق حلول مجتزأة يزيدها إشكالاً.
- رتابـة الحيـاة قد تكون نوعا من الإدمان لا يحبذ بعض النـاس العمل على تغييره.
- ثراء العلاقة الزوجية ونجاحها لا يأتي من خلال التطابق، بل من خلال التنوع.
- الشعور بالمسؤولية يعمل على توليد شخصية فاعلة.
- في حـالات الخصومة يسهل الوقوف على السلبيـات وتذكرها، بل ونسيان الإيجابيـات أو إنكارها، والعـدلُ والإنصافُ كفيلٌ بالقضـاء على مظاهر ذلك.
- حـين يلتقي طرفان من ثقافتين بينهما نـوع تباين يحتاجان أكثر إلى تقبل بعضهما.
- تقتضـي العلاقة الزوجية شيئاً من التنافـس كسائر العلاقات البشرية... لكن لا بدّ فيها في النهاية من التعاون والتآزر.
- مـن الخلل العمل على مبـدأ كل شيء أو لا شيء، بل حصول شيء خير من لا شيء.

- الاشتغال بالجزئيات كفيل بإهمال الكليات.
- الاتفاق على فكرة من أول وهلة دليل في الغالب على عدم هضمها.
- لا يمتدّ الآخرون إلى حياتك الأسرية إلا في حال وجود فراغ!.
- لا يلزم من نجاح فكرة في حلّ أزمة أسرة نجاحُها في سائر الأسر.

وختاماً أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد، وما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبي أني بذلت الجهد والطاقة في ذلك، والله تعالى الموفق والمستعان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

أبرز المراجع

كتب القواعد الفقهية:

- الأشباه والنظائر، لابن نجيم الحنفي، دار الفكر- دمشق.
- الأشباه والنظائر، لتاج الدين السبكي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.
- الأشباه والنظائر، لجلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الأولى.
- درر الحكام شرح مجلة الأحكام، لعلي حيدر، دار الكتب العلمية-بيروت.
- شرح القواعد الفقهية، لأحمد بن محمد الزرقا، دار القلم – دمشق، الطبعة الثانية.
- غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، للشيخ أحمد بن محمد الحموي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.
- الفروق، لشهاب الدين القرافي، عالم الكتب - بيروت.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثانية.
- القواعد الفقهية، د.يعقوب الباحسين، مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الثانية.
- القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، للدكتور محمد الزحيلي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الأولى.

- المنثور في القواعد- لبدر الدين الزركشي، الناشر/وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية.
- موسوعة القواعد الفقهية، للدكتور محمد صدقي البورنو، مكتبة التوبة- الرياض، الطبعة الأولى.

كتب إسلامية:

- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الدعوة – استانبول.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية دار الجيل - بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، دار الفكر العربي.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- جامع البيان في تفسير القرآن، لابن جرير الطبري، دار الحديث- القاهرة.
- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، دار السلام- القاهرة.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة- بيروت.
- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- صيد الخاطر، لأبي الفرج ابن الجوزي، دار الكتاب العربي – بيروت.
- فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث- القاهرة، الطبعة الثانية.

- فيض القدير، للشيخ المناوي، دار المعرفة - بيروت.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

كتب منوعة ومترجمة:

- ابدأ بالأهم ولو كان صعبا، برايان تريسي، مكتبة العبيكان.
- إدارة الأولويات، ستيفن كوفي، مكتبة جرير.
- الأسرة المسلمة في زمن العولمة، د. فاطمة عمر نصيف، دار الأندلس الخضراء.
- أيقظ قواك الخفية، أنتوني روبنز، مكتبة جرير.
- بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، القاضي عياض اليحصبي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب.
- ترانيم الحب والعذاب، عبدالوهاب مطاوع، الدار المصرية اللبنانية.
- التواصل الأسري، د.عبدالكريم بكار، دار السلام – مصر.
- التعامل مع من لا تطيقهم، ريك برينكمان و ريك كيرشنير، المؤتمن للتوزيع.
- الحياة الأسرية، د.عبدالكريم بكار، دار السلام – مصر.
- الرجال من المريخ...النساء من الزهرة، د.جون غراي، مكتبة جرير.
- سنة أولى زواج، د. أيمن الحسيني، مكتبة ابن سينا.
- العادات السبع، ستيفن كوفي، مكتبة جرير.
- لا تحزن، د. عايض القرني، مكتبة العبيكان.
- لغات الحب الخمس، جاري تشابمان، مكتبة جرير.

- فن التعامل مع الناس، ديل كارنيغي، مكتبة جزيرة الورد.
- قوة الثقة بالنفس، د. إبراهيم الفقي، دار الراية.
- كيف تتمتع بالثقة والقوة في التعامل مع الناس، لس جبلين، مكتبة جرير.
- متاعب الزواج، د. عادل صدقي، دار الشروق – القاهرة.
- صحف ومجلات متنوعة ومواقع متخصصة على الشبكة العنكبوتية.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
المقدمـة	٥
التمهيد	١١
القاعدة الأولى: اتحاد الموجب والقابل ممنوع.	١٧
القاعدة الثانية: الاختيار لا يتحقق في موضع الاضطرار.	٢١
القاعدة الثالثة: إذا ضاق الأمر اتسع وإذا اتسع ضاق.	٢٧
القاعدة الرابعة: إشارة الناطق كعبارته.	٣١
القاعدة الخامسة: الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود.	٣٥
القاعدة السادسة: الأصل بقاء ما كان على ما كان.	٤١
القاعدة السابعة: الأصل في الصفات العارضة العدم.	٤٧
القاعدة الثامنة: الأمور بمقاصدها.	٥٣
القاعدة التاسعة: البقاء أيسر من الابتداء.	٥٧
القاعدة العاشرة: تأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع.	٦١
القاعدة الحادية عشرة: التابع تابع.	٦٩
القاعدة الثانية عشرة: الثابت ثابت.	٧٥
القاعدة الثالثة عشرة: الحادث يضاف إلى أقرب أوقاته.	٧٩
القاعدة الرابعة عشرة: للحالة من الدلالة كما للمقالة.	٨٣

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
القاعدة الخامسة عشرة: الحالّ لا يتأجل.	٨٧
القاعدة السادسة عشرة: الحكم على الشيء فرع عن تصوره.	٩٣
القاعدة السابعة عشرة: الحكم يدور مع علته وجودا وعدما.	١٠١
القاعدة الثامنة عشرة: الخطأ لا يستدام.	١٠٧
القاعدة التاسعة عشرة: خير الأمور أوسطها.	١١٣
القاعدة العشرون: دفع المفاسد أولى من جلب المصالح.	١٢١
القاعدة الحادية والعشرون: الرضا بالشيء رضا بما يتولد منه.	١٢٥
القاعدة الثانية والعشرون: الساقط لا يعود.	١٣١
القاعدة الثالثة والعشرون: الطاعة بحسب الطاقة.	١٣٥
القاعدة الرابعة والعشرون: العادة محكمة.	١٤١
القاعدة الخامسة والعشرون: العبرة للغالب الشائع لا النادر.	١٤٧
القاعدة السادسة والعشرون: الغرم بالغنم والغنم بالغرم.	١٥٣
القاعدة السابعة والعشرون: الفعل أقوى من مجرد القول.	١٥٩
القاعدة الثامنة والعشرون: القديم يترك على قدمه.	١٦٧
القاعدة التاسعة والعشرون: قطع المنازعة واجب ما أمكن.	١٧١
القاعدة الثلاثون: قول المتعنت مردود.	١٧٩
القاعدة الحادية والثلاثون: الكتاب كالخطاب.	١٨٣

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
القاعدة الثانية والثلاثون: كل ما تجاوز عن حده انعكس إلى ضده.	١٩٥
القاعدة الثالثة والثلاثون: كلما عظم شرف الشيء عظم خطره.	٢٠١
القاعدة الرابعة والثلاثون: كل مجتهد مصيب.	٢٠٧
القاعدة الخامسة والثلاثون: لا ضرر ولا ضرار.	٢١٣
القاعدة السادسة والثلاثون: لا عبرة بالتوهم.	٢١٩
القاعدة السابعة والثلاثون: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان والأحوال.	٢٢٣
القاعدة الثامنة والثلاثون: ليس الخبر كالمعاينة.	٢٢٩
القاعدة التاسعة والثلاثون: ما عمّت بليته خفت قضيته.	٢٣٥
القاعدة الأربعون: المتوقع كالواقع.	٢٤٥
القاعدة الحادية والأربعون: المشغول لا يشغل.	٢٥١
القاعدة الثانية والأربعون: المشقة تجلب التيسير.	٢٥٧
القاعدة الثالثة والأربعون: معظم الشيء يقوم مقام كله.	٢٦١
القاعدة الرابعة والأربعون: مقاطع الحقوق عند الشروط.	٢٦٥
القاعدة الخامسة والأربعون: المكبر لا يكبر.	٢٦٩
القاعدة السادسة والأربعون: من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه.	٢٧٣
القاعدة السابعة والأربعون: من لم ينظر لنفسه لا يُنظر إليه.	٢٧٧
القاعدة الثامنة والأربعون: الوصف في الغائب معتبر.	٢٨٣

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
القاعدة التاسعة والأربعون: يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام.	٢٩١
القاعدة الخمسون: اليقين لا يزول بالشك.	٢٩٧
الخاتمة.	٣٠١
قائمة المراجع.	٣٠٣